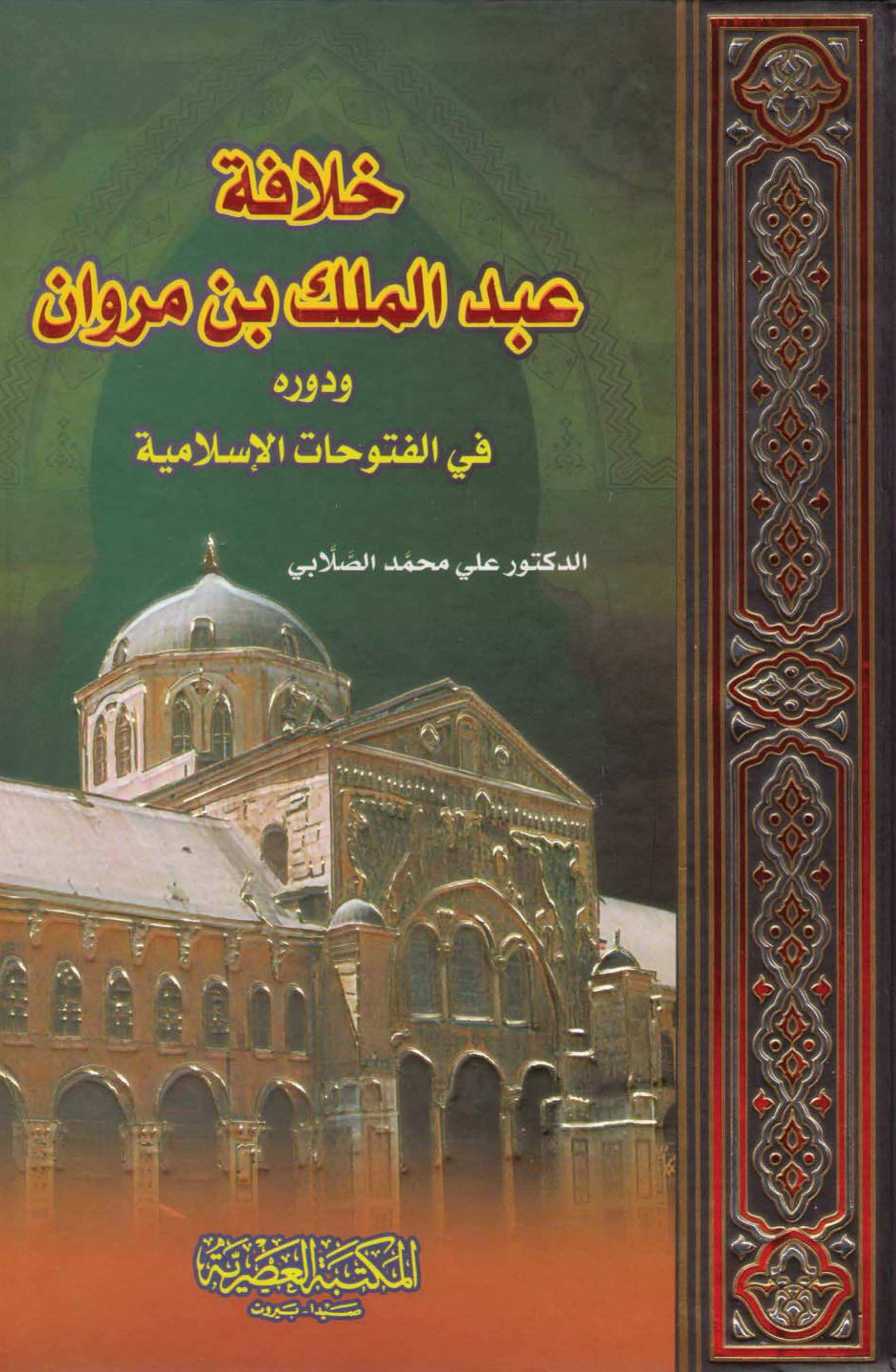
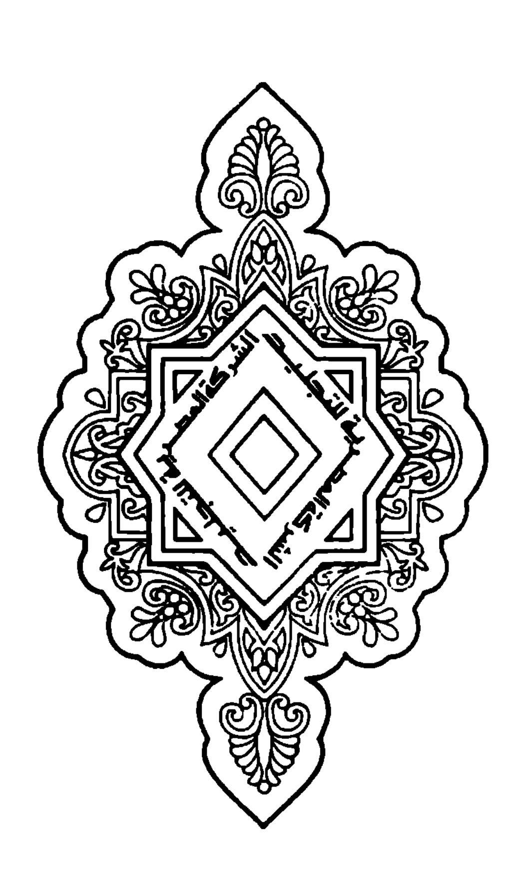

خلافة
عبد الملك بن مروان
ودوره
في الفتوحات الإسلامية
الدكتور علي محمَّد الصَّلَّابي
المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



خلافة عبد الملك بن مروان

ودوره في الفتوحات الإسلامية

تأليف الدكتور
علي محمد محمد الصلابي





• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

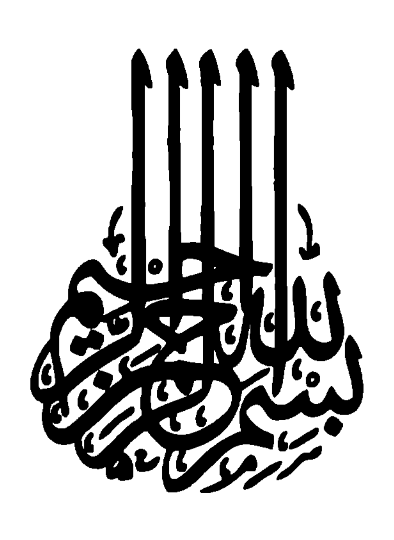
الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣١هـ

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

ISBN 978 - 614 - 414 - 033 - 8



الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين اللّه تعالى أهدي هذا الكتاب، سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد:

هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وقد صدر منها السيرة النبوية.. عرض وقائع وتحليل أحداث، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والحسن بن علي، رضي الله عنهم جميعاً، وقد سميت هذا الكتاب «خلافة عبد الملك بن مروان ودوره في الفتوحات الإسلامية».

تحدثت فيه عن عبد الملك بن مروان اسمه ونسبه وكنيته وشيء من حياته وتوليه الزعامة الأموية بعد وفاة أبيه مروان وبينت سياسته الداخلية وترتيبه للأولويات في الصراع حتى استطاع القضاء على الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، وعن حركة التوابين ومعركة عين الوردة، وحركة المختار بن أبي عبيد الثقفي، وحركة عمرو بن سعيد بن العاص، وضم العراق والقضاء على مصعب بن الزبير.

وصراعه مع الخوارج، ودور المهلب بن أبي صفرة في القضاء على الخوارج الأزارقة، واهتمام الدولة الأموية بمحاربة الخوارج الصفرية، وترجمت لشخصيات

من الخوارج كقطري بن الفجاءة وعمران بن حطان، وذكرت شيئاً من أشعارهم وأشرت إلى أسباب فشل الخوارج في عهد عبد الملك، وقمت بدراسة لثورة عبد الرحمن بن الأشعث وأسباب خروجه وموقف العلماء منها وأسباب فشلها.

وتكلمت عن جهود عبد الملك في توحيد الدولة والقضاء على الثورات الداخلية وعن النظام الإداري وأهم الدواوين التي كانت في عهده كديوان الرسائل، والعطاء والخراج والخاتم، والبريد، وعن دوره في تعريب الدواوين وأسباب ذلك والنتائج التي ترتبت عليه، وعن إدارته للإقليم.

وألمحت للخطوط العامة لسياسته في إدارة شؤون الدولة، كالمشاورة واعتماده على أهل الشام، ووضع الشخص المناسب في المكان المناسب ومتابعة أخبار الولاة، وتقديم الأقرباء في المناصب وحفظ التوازن القبلي، وتسامحه مع أهل الكتاب واحترام وتقدير الشخصيات البارزة في المجتمع، وتحجيم الولاة إذا أرادوا تجاوز الخطوط الحمراء، . . . إلخ.

وترجمت لأهم ولاته كالحجّاج بن يوسف الثقفي، وذكرت النظام المالي في عهده وأشرت إلى القطاع الزراعي والصناعي، ودور عبد الملك في إحداث دور ضرب العملة، وتعريب النقد وتطرقت للعمارة والبناء والنظام القضائي والشرطة في عهده، واهتمامه بالعلماء والشعراء.

وأفردت فصلاً كاملاً عن الفتوحات في عهده وعهد ولديه الوليد وسليمان لكي نعطي صورة متكاملة عنها بسبب ترابطها ببعضها، ولخصت أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات، كأسباب دخول الإسلام في البلاد المفتوحة، كعالمية الدعوة، والمعاملة السمحة الكريمة من المسلمين، وكتفسير حركة التعريب بين الشعوب من هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة، وتعريب الدواوين وتفوق الحضارة الإسلامية . . إلخ.

وتحدثت عن عقد عبد الملك لولاية العهد لابنه الوليد ثم سليمان وموقف العالم الجليل سعيد بن المسيب من ذلك وما تعرض له من الابتلاء بسبب ذلك، وذكرت وصية عبد الملك لابنه الوليد عند موته ووصيته لبنيه.

وهذا الكتاب جزء من كتاب «الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار» رأينا نشره منفصلاً لأهميته ولتعم الفائدة.

والفضل للَّه من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يثيبني على كل حرف كتبته،

ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين ساهموا في إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه
علي محمد محمد الصَّلَّابي

الأخوة القرّاء الكرام، يسر المؤلف أن تصله ملاحظاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبه من خلال دور النشر، ويطلب من إخوانه الدعاء بظهر الغيب بالإخلاص والصواب ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

عنوان المؤلف

E ail:abumohamed2@maktoob.com

الفصل الأول

عبد الملك بن مروان اسمه ونسبه وكنيته وشيء من حياته

الفصل الأول
عبد الملك بن مروان

أولاً
اسمه ونسبه وكنيته وشيء من حياته

١ ـ اسمه ونسبه وكنيته:

هو عبد الملك بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الوليد الأموي، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية[١].

٢ ـ مولده ووصفه:

كان مولده ومولد يزيد بن معاوية في سنة ستٍّ وعشرين، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد، الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن، وكان ربعة من الرجال أقرب إلى القصر، وكانت أسنانه مشبكة بالذهب، وكان أفوه مفتوح الفم، فربَّما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب، فلهذا كان يقال له: أبو الذِّبان، وكان أبيض ربعة ليس بالنحيف ولا البادن، مقرون الحاجبين، أشهل[٢] كبير العينين، دقيق الأنف، مشرق الوجه، أبيض الرأس واللحية، حسن الوجه لم يخضب، ويقال: إنه خضب بعد ذلك[٣].

٣ ـ طلبه للعلم وعبادته قبل الإمارة وثناء الناس عليه:

قال نافع: لقد رأيت المدينة ما فيها شاب أشدُّ تشميراً، ولا أفقه، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان[٤]. وقال الأعمش عن أبي الزناد: كان فقهاء المدينة أربعة، سعيد بن المسيِّب، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك قبل أن يدخل الإمارة[٥]، وعن ابن عمر أنه قال: ولد الناس أبناء وولد مروان أباً ـ يعني

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٧٧).

(٢) أشهل: أي يشوب سواد عينه زرقة.

(٣)، (٤)، (٥) البداية والنهاية (١١/ ٣٧٩).

عبد الملك[١] ـ ويقصد ابن عمر أن عبد الملك كان يفوق سنه، ويعلو فوق أقرانه[٢].

وعن يحيى بن سعيد قال: أول من صلّى ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه. فقال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصيام، إنما العبادة التفكر في أمر اللّه، والورع عن محارم اللّه[٣]. وقد صدق رحمه اللّه. وقال الشعبي: ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، فإنَّني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني فيه[٤].

٤ ـ تعظيمه لاسم اللّه تعالى:

روى البيهقي: أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قذرة، فاكترى عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرجه منها، فقيل له في ذلك، فقال: إنه كان عليه اسم اللّه عز وجل[٥].

٥ ـ التسبيح والتكبير في الأسفار:

روى ابن أبي الدنيا، أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره إذا رفعت له شجرة: سبِّحوا بنا حتى نأتي تلك الشجرة، وكبِّروا بنا حتى نأتي ذاك الحجر، ونحو ذلك[٦].

٦ ـ هل يصح هجره للقرآن الكريم؟

قيل: إنه لما وضع المصحف في حجره قال: هذا آخر العهد منك[٧]. وهذه رواية ضعفها ابن كثير ورواها بصيغة التمريض قيل[٨]، كما أن عبد الملك قال لمؤدِّب أولاده ـ وهو إسماعيل بن عبيد اللّه بن أبي المهاجر ـ: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن[٩].

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٧٩).

(٢) الخلافة الأموية للهاشمي، ص (١١٦).

(٣) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٠)، البداية والنهاية (١١/ ٣٨٠).

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٠).

(٥)، (٦) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٥).

(٧)، (٨) المصدر نفسه (١١/ ٣٨١).

(٩) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٨).

٧ ـ ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته:

روى ابن سعد ما يدل على أن عبد الملك كان محبوباً مرغوباً من عمومته كبار بني أمية، فذكر أن معاوية بن أبي سفيان كان جالساً يوماً، ومعه عمرو بن العاص رضي اللّه عنهما، مر بهما عبد الملك بن مروان فقال معاوية: ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته فقال، عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالاً ثلاثاً: أخذ بحسن الحديث إذا حدّث، وحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبحسن البشر إذا لقي، وخفة المؤونة إذا خولف، وترك من القول ما يعتذر عنه، وترك مخالطة اللئام من الناس، وترك ممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروءته[١].

٨ ـ وصيته لمؤدب أولاده:

قال عبد الملك لمؤدّب أولاده ـ وهو إسماعيل بن عبيد اللّه بن أبي المهاجر ـ: علمهم الصّدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السَّفِلَةَ فإنهم أسوأ الناس رِعة[٢]، وأقلهم أدباً، وجنّبهم الحشم، فإنَّهم بهم مفسدة، وأحف شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقْوَوا، وعلمهم الشعر يمجُدُوا وينجُدُوا، ومُرْهم أن يستاكوا عَرْضاً، ويمصوا الماء مصّاً ولا يَعُبُّوا عبّاً، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سرّ لا يعلم بهم أحد من الحاشية فيهونوا عليهم[٣].

٩ ـ موقفه من ابن الزبير قبل الإمارة وبعدها:

كان لعبد الملك من ابن الزبير موقفان متناقضان:

أما الأول: فكان قبل أن يتولى الخلافة يستعيذ باللّه أن يبعث خليفة إلى مكة جيشاً ليقتل ابن الزبير ومن معه، وكان يرى في ذلك إثماً كبيراً[٤]، قال يحيى الغساني: لما نزل مسلم بن عقبة المدينة، دخلت مسجد رسول اللّه ﷺ فجلست إلى جنب عبد الملك، فقال لي عبد الملك: أمن هذا الجيش أنت؟ فقلت: نعم، قال: ثكلتك أمك!! أتدري إلى من تسير؟ إلى أول مولود ولد في الإسلام (بعد الهجرة)، وإلى ابن حواري رسول اللّه ﷺ، وإلى ابن ذات النطاقين، وإلى من

---

(١) الطبقات لابن سعد (٥/ ٢٢٤).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٩)، الرعة: قلة الورع.

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٩).

(٤) الخلافة الأموية للهاشمي، ص (١١٦).

حنّكه رسول اللّه ﷺ، أما واللّه لو جئته نهاراً لوجدته صائماً، ولئن جئته ليلاً لوجدته قائماً، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبَّهم اللّه جميعاً في النار[١].

وأما موقفه الثاني: فكان بعد الخلافة ويأتي عكس الأول تماماً، عندما جهز عبد الملك جيشاً يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي، وبعث به إلى مكة حيث كان يتحصن ابن الزبير بالكعبة، وظل محاصراً مكة حتى قُتل عبد اللّه بن الزبير[٢].

ثانياً

حياته السياسية قبل الإمارة

كان أول حِادث سياسي أثر في حياته عندما كان عمره عشر سنوات، فقد شهد مقتل عثمان رضي اللّه عنه، وكان لهذا الحادث أثر في سياسته لما تولى الإمارة، فقد خطب في إحدى خطبه: أيها الناس إنا نحتمل لكم كل اللغوبة ما لم يكن عقد راية أو وثوباً على منبر[٣]. وأول منصب إداري تولاه في الدولة في عهد معاوية بن أبي سفيان، فقد كان عاملاً على هجر[٤]، ثم تولى ديوان المدينة بعد وفاة زيد بن ثابت[٥]، وشارك في الجهاد فقد خرج على رأس حملة إلى أرض الروم وشتى هناك في سنة ٤٢هـ[٦]، كما يذكر أنه غزا إفريقيا مع معاوية بن حديج، وكلفه بفتح «جلولا» في بلاد الشام الإفريقي.

وفي عهد يزيد كان يقول عن ابن الزبير: ما على الأرض اليوم خيراً منه[٧]، كما أن علاقته بمصعب بن الزبير كانت حسنة، وأما عن دوره السياسي في عهد مروان بن الحكم، فقد تولى فلسطين وكان يبعث نائباً عنه روح بن زنباع[٨]، ويمكن أن يكون ذلك ليبقى في دمشق قريباً من إدارة الدولة لمساعدة والده هناك، لا سيما أن الفترة التي تولى فيها والده الحكم كانت الدولة محاطة فيها بالأعداء من

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص (٢١٧).
(٢) المصدر نفسه، ص (٢١٧).
(٣) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص(٦٤).
(٤) المعارف لابن قتيبة، ص (٣٥٥)، الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص (٦٤).
(٥) الطبقات (٥/ ٢٢٥).
(٦) تاريخ خليفة (١/ ٦٩).
(٧) الطبقات (٥/ ٢٢٦).
(٨) أنساب الأشراف (٥/ ١٢٧).

الداخل والخارج، وتولى إمرة دمشق عند ذهاب والده لفتح مصر[١]، وهذه المهمة تدل على كفايته الإدارية وحزمه[٢].

ثالثاً

العلماء الذين كانوا مع عبد الملك

بايع بعض العلماء لعبد الملك بن مروان بالشام، وكانوا قلة لا يعدون شيئاً أمام العلماء الذين بايعوا ابن الزبير، أو الذين اعتزلوا حتى تجتمع الأمة على خليفة، وانحصر وجود هؤلاء في إقليم الشام، وقد ذكر من هؤلاء العالم الجليل قبيصة بن ذؤيب ـ رحمه اللّه ـ فكان من المبايعين لعبد الملك وأحد المقربين إليه[٣]، ومنهم يزيد بن الأسود الجرشي ـ رحمه اللّه ـ، فورد أنه كان مع عبد الملك في خروجه لقتال مصعب بن الزبير، وروى عنه أنه حين رأى الجيشين قد التقيا قال: اللّهم احجز بين هذين الجبلين ولِّ الأمر أحبهما إليك[٤].

رابعاً

حركة التوابين ومعركة عين الوردة (٦٥هـ)

عندما عمّ الاضطراب أنحاء البلاد بعد موت يزيد، وفرار عبيد اللّه بن زياد، شرع أنصار الحسين يتصلون ببعضهم البعض بهدف وضع خطة للثأر لدمه، إذ بعد استشهاده هزتهم الفاجعة وندموا على تقاعسهم عن نصرته، والدفاع عنه، معترفين بخطيئتهم، بحماسة شديدة، لذلك لم يجدوا وسيلة يكفرون بها عن هذا التقصير ويتوبون إلى اللّه بها من هذا الذنب الكبير سوى الثأر للحسين[٥].

وأخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي لدراسة الموقف، وأسلوب العمل الذي سيتبعونه، وغلب على هذه الاجتماعات موضوع التوبة والغفران، ثم شرعوا في تجييش الناس، وخرج التوابون من معسكرهم في

---

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن الدور السياسي لأهل اليمن، ص (٦٥).
(٢) الدور السياسي لأهل اليمن، ص (٦٥).
(٣) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، (٥٤٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٣٧).
(٥) الكامل في التاريخ (٢/ ٦٣٥).

النخيلة في شهر ربيع الأول ٦٥هـ وهو الموعد الذي حددوه لخروجهم، وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية في كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحموا عليه، وبكوا وتابوا عن خذلانهم له، وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم حق العمق، فقرروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذي أصدر الأمر بقتل الحسين، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام[١].

ومرّ جيش التوابين ببلدة هيت على الفرات، ثم صعد مع النهر إلى إن وصل إلى قرقيسياء[٢]. وكانت هذه المدينة هي أبعد المناطق في هذا الاتجاه التي اعترفت، ولو اسميًا ببيعة ابن الزبير[٣]، واستقبل أمير قرقيسياء زفر بن الحارث الكلابي، جيش التوابين بحماسة خاصة أنه قد جمعت بين الفريقين مصلحة مشتركة هي مقاتلة الأمويين. واقترح زفر عليهم توحيد صفوفهم مع أنصار ابن الزبير، إلا أنهم اعتذروا عن عدم قبول اقتراحه كما رفضوا نصيحته بالعدول عن قرارهم الانتحاري، واكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة ثم مضوا إلى مصيرهم[٤].

والتقى التوابون بالجيش الأموي في عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربي من صفين في عام ٦٥هـ، وخاضوا ضده معركة ضارية غير متكافئة، بفعل قلة عددهم بالمقارنة مع عدد أفراد الجيش الأموي، أسفرت عن تدميرهم ومقتل زعمائهم باستثناء رفاعة بن شداد الذي تراجع بالبقية القليلة منهم إلى الكوفة[٥].

وقد علق الذهبي على سليمان بن صرد زعيم جيش التوابين بقوله: كان ديناً عابداً، خرج في جيش تابوا إلى الله من خذلانهم الحسين الشهيد، وساروا للطلب بدمه، وسُمُّوا جيش التوابين[٦].

وعلق ابن كثير على جيش التوابين بقوله: لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة، لكان أنفع له وأنصر من اجتماعهم لنصرته بعد

(١) تاريخ الطبري نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية، طقوش، ص (٧١).
(٢) الكامل في التاريخ (٢/ ٦٣٨).
(٣) تاريخ الطبري نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية، طقوش، ص (٧١).
(٤) تاريخ الدولة الأموية، طقوش، ص (٧٢)، الكامل في التاريخ (٢/ ٦٣٩).
(٥) تاريخ الطبري، نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية، ص (٧٢).
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩٥).

أربع سنين[١]، وكان عُمر سليمان بن صرد رضي اللّه عنه ـ يوم قتل ـ ثلاثاً وتسعين سنة[٢].

والحق أن الإنسان يقف مبهوراً أمام شجاعة التوابين وجرأتهم، فقد كان عددهم لا يتجاوز أربعة آلاف رجل، وخاضوا هذه المعركة بإيمان صادق، وعقيدة راسخة، وشجاعة نادرة، وصبر فائق، مع عشرين ألف جندي على أقل تقدير من أهل الشام، وأنزلوا بهم خسائر فادحة في الأرواح، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى خاضوا في الدماء، ولولا كثرة جيش الشام، حتى استطاعوا أن يلتفوا حولهم، ويضربوا عليهم طوقاً، وأحاطوا بهم من كل جانب، ثم رموهم بالنُّبل لما استطاعوا الانتصار عليهم[٣].

ولكننا إزاء هذا الإعجاب بشجاعتهم، وإخلاصهم وتفانيهم في القتال، لا نملك إلا أن نتساءل، أين كانت هذه الشجاعة يوم تركوا الحسين ـ رضي اللّه عنه ـ يواجه الموت هو وأهل بيته، دون أن يتحرك منهم أحد[٤]؟

وأما أهم أسباب فشل التوابين فهي:

١ ـ **قلة عددهم إذا قورنوا بجيش الشام**، فكان عدد التوابين أربعة آلاف مقاتل، بينما كان جيش خصمهم الذين اشتبكوا معهم عشرين ألفاً، عدا من كان ينتظر مع عبيد اللّه بن زياد على سبيل الاحتياط.

٢ ـ **ضعف التوابين من الناحية العسكرية**، فلا نستطيع أن نقارن أي واحد من قادة التوابين بقدرة ابن زياد أو حصين بن نمير من حيث الخبرة والقدرة العسكرية، وهذا يتفق مع وصف المختار الثقفي لسليمان بن صرد: إن سليمان رجل لا علم له بالحرب وسياسة الرجال[٥].

٣ ـ **تخاذل التوابين عن الاشتراك**، فعندما أحصى ابن صرد من بايعوا وجدهم ستة عشر ألفاً عدا أهل المدائن والبصرة، الذين لم يتم تنسيقهم مع الآخرين مع أن المشتركين في القتال هم أربعة آلاف.

٤ ـ **عدم اشتراك المختار الثقفي في القتال** ـ وليت الأمر كذلك ـ ولكنه كان يثبط الناس عن سليمان بن صُرد[٦].

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٦٩٧).
(٢) المصدر نفسه (١١/ ٧٠٣).
(٣) الأمويون للوكيل (١/ ٣١٥).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٣١٥).
(٥) أنساب الأشراف (٥/ ٢٠٧).
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٤)، عبد اللّه بن الزبير للناطور، ص (١٤٨).

خامساً

حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي

هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذَّاب، كان والده الأمير أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة الثقفي، أسلم في حياة النبي ﷺ، ولم نعلم له صحبة. استعمله عمر بن الخطاب على جيشٍ، فغزا العراق، وإليه تنسب وقعة جسر أبي عبيد، ونشأ المختار، فكان من كبراء ثقيف، وذوي الرأي، والفصاحة، والشجاعة والدّهاء وقلة الدين[1]، وقد قال النبي ﷺ: **«يكون في ثقيف كذاب ومبير»**[2]، فكان الكذاب هذا، ادّعى أنَّ الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب، وكان المبير الحجاج، قبّحهما الله[3].

ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ، وهو من الشخصيات التي حفل بها العصر الأموي، والتي كانت تبحث لها عن دور، وتسعى إلى السلطان بأي ثمن، فتقلب من العداء الشديد لآل البيت إلى ادعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين[4].

فقد مر بنا في كتابي عن الحسن بن علي بن أبي طالب بأنه أشار على عمه سعد بن مسعود الثقفي بالقبض على الحسن بن علي وتسليمه إلى معاوية، لينال بذلك الحظوة عنده[5]، ثم حاول الاتصال بعبد الله بن الزبير والانضمام إليه، وشرط عليه شروطاً، منها أن يكون أول داخل عليه، وألا يقضي الأمور دونه، وإذا ظهر استعان به على أفضل أعماله[6].

وباختصار أراد أن تكون له كلمة في دولته، ولكنه لم يجد تجاوباً من ابن الزبير، فانصرف عنه إلى الكوفة[7]، حيث كان الأمر فيها مضطرباً، فأراد أن يصطاد في المياه العكرة، ولم يجد فيها ورقة رابحة سوى الادعاء بالمطالبة بدم الحسين وآل البيت، وادعى أن لديه تفويضاً بذلك من محمد بن علي بن أبي طالب، الملقب

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٩).

(٢) مسلم رقم (٢٥٤٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٩).

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٦٦).

(٥) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٤٨٢).

(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٤٨٢).

(٧) البداية والنهاية (١١/ ٦٦).

بابن الحنفية، ولكنه لم يكن صادقاً في ذلك، بل قرر أن يركب تيار الشيعة ليصل إلى هدفه وهو الحكم والسلطان.

وقد عبر هو نفسه عن ذلك في حواره مع رجال من رجاله الذين أخلصوا له، وكانوا يظنونه صادقاً في دعوته للثأر لآل البيت، وهو السائب بن مالك الأشعري. فقد قال له المختار عندما ضُيق عليه الخناق واقتربت نهايته: ماذا ترى؟ فقال له السائب: الرأي لك؟ قال: أنا أرى أم اللّه يرى؟ قال: اللّه يرى، قال: ويحك، أحمق أنت؟! إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة، ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد، فكنت كأحدهم إلا أني قد طلبت وبالغت في ذلك إلى يومي هذا، فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية، فقال السائب: إنا للّه وإنا إليه راجعون[١].

قال السائب ذلك لما تبين له أن المختار صنع كل ما صنع من أجل السلطان وحده، ولذلك يصف الذهبي المختار بالكذب وقلة الدين[٢]، وقد ظهر المختار في الكوفة في الوقت الذي كان فيه سليمان بن صرد الخزاعي زعيم التوابين يستعد للذهاب إلى الشام، لقتال عبيد اللّه بن زياد، فحاول تثبيط الناس عنه، وقد نجحت دعايته، وتجمع حوله نحو ألفين من الشيعة وبقيت غالبيتهم مع سليمان بن صرد، وكانت نتيجة معركة عين الوردة من مصلحة المختار، فقد جاءت مصدقة لتوقعاته، كما أنه انفرد بزعامة الشيعة ولجأ إليه الفارون من المعركة، فقويت حركته وكثر أتباعه، ثم ازداد مركزه قوة بانضمام إبراهيم بن الأشتر النخعي إليه، وهو من زعماء الكوفة، فثار على عبد اللّه بن مطيع العدوي، أمير الكوفة من قبل عبد اللّه بن الزبير فأخرجه منها، وأحكم سيطرته عليها.

قضاء المختار على قتلة الحسين:

ولكي يثبت دعواه في صحة دعوته في المطالبة بدم الحسين، فقد تتبع قتلته، فقتل معظمهم في الكوفة[٣]، ثم أعد جيشاً جعل على قيادته إبراهيم الأشتر، وأرسله إلى قتال عبيد اللّه، فالتقى به عند نهر الخازر بالقرب من الموصل، وحلت الهزيمة بجيش ابن زياد، الذي خرّ صريعاً في ميدان المعركة سنة ٦٧هـ[٤].

---

(١) تاريخ الطبري (٦/ ٦٧٧). (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٩).

(٣) العراق في العصر الأموي، ثابت الراوي، ص (٢٥٠، ٢٥١).

(٤) الكامل في التاريخ (٢/ ٧).

وقد قال ابن مفرّغ حين قتل ابن زياد:

إن المنايا إذا ما زُرن طاغية ... هتّكن أستار حُجاب وأبواب

أقول بُعداً وسحقاً عند مصرعه ... لابن الخبيثة وابنِ الكوْدن الكابي[1]

لا أنت زُوحِمت عن مُلك فتمنعهُ ... ولا متَتَّ إلى قوم بأسباب[2]

وقد شرع المختار في تتبع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء من ناحية ابن زياد، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وظفر برؤوس كبار منهم، كعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذي قتل الحسين، وشمر بن ذي الجوشنِ أمير الألف، الذين وَلُوا قتل الحسين، وسنان بن أبي أنس، وخوليّ بن يزيد الأصبحيّ، وخلق غير هؤلاء[3].

وكان مقتل عبيد اللّه بن زياد في يوم عاشوراء سنة سبع وستين، ثم بعث إبراهيم بن الأشتر برأس ابن زياد إلى المختار[4]، وتعاظم نفوذ المختار بعد انتصار جيشه على جيش ابن زياد، وسيطر على شمال العراق والجزيرة، وجعل يولي العمال من قبله على الولايات[5]، ويجبي الخراج، وانضم إليه عدد كبير من الموالي لبغضهم بني أمية من ناحية[6]، ولأنه أغدق عليهم الأموال من ناحية ثانية[7]. وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة به في العراق بين دولتي ابن الزبير في الحجاز، وعبد الملك بن مروان في الشام[8].

١ ـ أسباب نجاح حركة المختار في مرحلتها الأولى:

نجحت حركة المختار في بداية الأمر للأسباب الآتية:

أ ـ الأرضية الملائمة، حيث العواطف ثائرة، والنفوس مشحونة في وقت كانت حركة التوابين تلقى مصيرها الذي اختارته، عبر عملية استشهادية في نظر التوابين كان لها صداها المأساوي في الكوفة، ومن ناحية أخرى، فإن ابن الزبير

(١) الكودن: البرذون الهجين أو البغل، الكابي: المنكب على وجهه.
(٢) الكامل في التاريخ (٢/ ٩).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٦٦).
(٤) تاريخ الطبري، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٤٨٤).
(٥) تاريخ الطبري، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٤٨٤).
(٦) الدولة الأموية في المشرق للنجار، ص (١٤٣).
(٧) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٤٨٤).
(٨) المصدر نفسه، ص (٤٨٤).

لم يدعم وجوده بالكوفة بالجيوش، وإغداق الأموال والتلطف للأعيان والأشراف والزعماء، وكانت وجهة نظره معتمدة على ترك تطاحن الأمويين مع أتباع المختار، وما يترتب على ذلك من استنزاف لهما، بكون ابن الزبير هو المستفيد من نتائج ذلك التطاحن[١].

ب ـ تودد المختار لبني هاشم، فكان يرسل الهدايا لهم، وعمل على كسبهم[٢].

جـ ـ الشخصية القيادية البارزة التي تمتع بها المختار، في الوقت الذي غابت فيه عن الكوفة الزعامة السياسية المحورية، القادرة على توحيد اتجاهات الحركة الشيعية واستيعاب التطورات المتلاحقة، ولا نهمل المكر والدهاء والمرونة، والقدرة على استثمار الأحداث من مقتل الحسين، وحجر بن عدي، والتوابين وتوظيف ذلك، كما امتازت شخصية المختار بقدرتها على المناورة[٣].

د ـ البرنامج العملي الذي تقدم به، كان المدخل الاستقطابي لشريحة عريضة في المجتمع، كانت مضطهدة ومسحوقة، وهي شريحة الموالي التي وجدت في حركته المتنفس لتحقيق أهدافها في المساواة، وتحسين أوضاعها الاجتماعية[٤].

هـ ـ سوء اختيار ابن الزبير لعماله في الكوفة، ويبدو أنهم لم يكونوا على قدر المرحلة، ولذلك انفلتت الأمور من أيديهم في الكوفة[٥].

٢ ـ نهاية المختار على يد مصعب بن الزبير:

كان من المتوقع أن تكون نهاية المختار على يد عبد الملك الذي وتره بقتل ابن زياد أبرز أعوانه، ولكن عبد الملك كان من الدهاء بحيث أدرك أن ابن الزبير، وإن كان قد أسعده ظهور المختار في البداية وقهره لجيش عبد الملك[٦]، إلا أنه لن يسمح لنفوذه أن يتسع ويهدد دولته، وأنه لا بد أن يتحرك للقضاء عليه، فآثر الانتظار وترك ابن الزبير يواجه المختار، لأن نتيجة المواجهة ستكون في صالحه، فسوف يقضي أحدهما على صاحبه، ومن يبقى تكون قوته قد ضعفت، فيسهل له القضاء عليه.

---

(١) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص (٢٠٤، ٢٠٥).
(٢) عبد الله بن الزبير للناطور، ص (٨١٥).
(٣) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص (٢٠٥).
(٤) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص (٢٠٥).
(٥) عبد الله بن الزبير للناطور، ص (٢٠٥).
(٦) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٤٨٤).

وقد حدث ما توقعه عبد الملك، فإن المختار لم يكتف بانتصاره على جيش عبد الملك وبسط نفوذه على شمال العراق والجزيرة، بل أخذ يعد نفسه للسير إلى البصرة لانتزاعها من مصعب بن الزبير الذي أصبح والياً عليها من قبل أخيه عبد الله بعد أن بايعه أهلها، وهنا أصبح الصدام محتوماً بين المختار وآل الزبير(١)، فسار مصعب بن الزبير بنفسه إلى قتال المختار في جيش هائل، فحاصره بالكوفة وضيق عليه، وما زال حتى أمكن الله منه، فقتله واحتزَّ رأسه، وأمر بصلب كفّه على باب المسجد، وبعث مصعب برأس المختار مع رجل من الشُّرَط على البريد إلى أخيه عبد الله بن الزبير، فوصل مكة بعدَ العشاءِ فوجد عبد الله يتنفَّل، فما زال يصلِّي حتى أسحر، ولم يلتفت إلى البريد الذي جاء بالرأس، فقال: ألقه على باب المسجد، فألقاه ثم جاء فقال: جائزتي يا أمير المؤمنين. فقال: جائزتك الرأس الذي جئت به تأخذه معك إلى العراق.

ثم زالت دولة المختار كأن لم تكن، وكذلك سائر الدول، وفرح المسلمون بزوالها، وذلك لأنَّ الرجل لم يكن في نفسه صادقاً، بل كان كاذباً، وكاهناً، وكان يزعم أن الوحي ينزل عليه على يد جبريل يأتي إليه(٢)، وعن رفاعة بن شدّاد قال: كنت أقوم على رأس المختار، فلمّا عرفت كذبه هممت أن أسلَّ سيفي فأضرب عنقه، فذكرت حديثاً حدّثناه عمرو بن الحمق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أمّن رجلاً على نفسه فقتله، أعطي لواء غدر يوم القيامة**»(٣)، وقد قيل لابن عمر: إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه. فقال: صدق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وعن عكرمة قال: قدمت على المختار، فأكرمني وأنزلني حتى كان يتعهد مبيتي بالليل، قال: فقال لي: اخرج فحدِّث الناس. قال: فخرجت فجاء رجل فقال: ما تقول في الوحي؟ فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالى: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: ١١٢]، قال: فهمُّوا بي أن يأخذوني، فقلت: ما لكم وذاك، إنِّي مفتيكم وضيفكم، فتركوني، وإنما أراد عكرمة أن يعرّض بالمختار وكذبه في ادّعائه أن الوحي ينزل عليه(٤).

---

(١) المصدر نفسه، ص (٤٨٥)، البداية والنهاية (١١/ ٦٧).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٦٨).

(٣) سنن ابن ماجه رقم (٢٦٨٨)، حديث صحيح.

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٦٩).

قال ابن كثير: وذكر العلماء أن الكذّاب هو المختار بن أبي عبيد، وكان يظهر التشيع ويبطن الكهانة، ويُسِرُّ إلى أخصّائه أنه يوحي إليه. ولكن ما أدري هل كان يدّعي النبوة أم لا؟، وكان قد وُضِع له كرسي يُعَظَّمُ، ويُحَفُّ بالرجال، ويُسْتَرُ بالحرير، ويحمل على البغال، وكانَ يُضاهي به تابوت بني إسرائيل المذكور في القرآن، ولا شك أنّه كان ضَالاً مُضلاً، أراح اللّه المسلمين منه بعد ما انتقم به من قوم آخرين من الظالمين[١]، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وتسليط الظالم على الظالم سنّة من سنن اللّه في حركة المجتمعات واضحة المعالم في دراسة تاريخ الإنسانية.

٣ ـ أسباب فشل حركة المختار:

أ ـ **نفور أشراف العرب في الكوفة**، وما يمثلون من حول وقوة، وقتالهم له، ثم توجه من سلم إلى مصعب بن الزبير في البصرة، واشتراكهم معه في القتال ضد المختار.

ب ـ **إصابته بالغرور**، بحيث أنه طرد عمر بن علي بن أبي طالب لأنه لم يحضر له كتاباً من ابن الحنفية، حيث قال له: انطلق حيث شئت فلا خير لك عندي[٢]، فتركه وذهب إلى مصعب ليعود معه ليقاتله.

جـ ـ **تجهيز مصعب جيشاً كبيراً**، وانضمام المهلب بن أبي صفرة واشتراكه معه في القتال. بينما لم يشترك قائد المختار إبراهيم بن الأشتر، ولذلك لم يكن القتال متعادلاً.

د ـ **اكتشاف كذب المختار**: فقد قال الشعبي بأن ابن الحنفية لم يرسل مع المختار كتاباً لابن الأشتر[٣]، ولم تخف الرسالة عليه، فقد شك فيها لولا من شهد مع المختار، وقد عرف أشراف العرب ذلك وقالوا: هذا كذاب[٤].

هـ ـ **تخلي ابن الحنفية عن المختار**، فقد قام على باب الكعبة وقال: إنه كان كذاباً يكذب على اللّه ورسوله[٥]، بل أكثر من ذلك، فقد روى الطبري أن ابن الحنفية

---

(١) المصدر نفسه (١١/ ٧١).
(٢) تاريخ الدولة الإسلامية ابن الطقطقي، ص (١٢١)، عبد اللّه بن الزبير للناطور، ص (١٥٩).
(٣) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد اللّه بن الزبير للناطور، ص (١٥٩).
(٤) إمبراطورية العرب، ص(١٥٦)، غلوب نقلاً عن ابن الزبير للناطور ص(١٥٩).
(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ١٥٨).

كتب إلى شيعته: فاخرجوا إلى المجالس والمساجد فاذكروا اللّه علانية وسراً، ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة، فإن خشيتم على أنفسكم فاحذروا على دينكم الكذابين(١).

و ـ **ابتداع المختار لأمر غريب في الإسلام ألا وهو الكرسي**، فقد جاء بكرسي ثم قال لأصحابه: إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن من هذه الأمة مثله، وإنه كان في بني إسرائيل التابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وإن هذا فينا مثل التابوت، اكشفوا عنه، فكشفوا عنه أثوابه، وقامت السبئية، فرفعوا أيديهم فكبّروا ثلاثاً(٢).

ز ـ **حاجة ابن الزبير الماسة إلى العراق؛** فهو مصدر المال والرجال الوحيد بعد ضياع الشام ومصر، وبقاء المختار في العراق يهدد مكانته، ويقطع عليه الوصول إلى بلاد فارس التي لا تزال على طاعته(٣).

٤ ـ الفرقة الكيسائية وعلاقتها بالمختار:

أما كيسان المنسوبة إليه فمختلف فيه(٤)، لكن الذي لا خلاف عليه أن المختار بن أبي عبيد الثقفي تزعم الفرقة سنة ٦٦هـ بالكوفة، وكانت الفرقة الكيسانية من الشيعة الغلاة، وكان المختار الثقفي أول من أكد فكرة المهدية في شخص محمد بن الحنفية، حيث أطلق عليه لقب المهدي، كما استخدم فكرة (البداء)، وقد اشتهرت هذه المقولة قبيل قتل المختار ٦٧هـ.

وكان المختار ـ أيضاً ـ يقول بالبداء الذي هو من أصول الرافضة الأولى، فإن المختار كان قد تكهن بنصر أصحابه، فلما انهزموا زعم أن اللّه بدا له(٥)، وهذه الفكرة الشيطانية مكنته من تغيير آرائه من حين لآخر، هذا فضلاً عن إظهار نفسه بمظهر النبي وإقراره لفكرة الكرسي الذي ادعى أنه يعود للإمام علي رضي اللّه عنه وإلى غير ذلك من الآراء المبتدعة(٦)، وقد تطورت معتقدات الكيسانية ودخلوا في

---

(١) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد اللّه بن الزبير للناطور، ص (١٥٩).

(٢) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد اللّه بن الزبير للناطور، ص (١٥٩).

(٣) عبد اللّه بن الزبير للناطور، ص (١٥٩).

(٤) أهو كيسان مولى علي بن أبي طالب الذي قتل يوم صفين؟ أم كيسان تلميذ محمد بن الحنفية؟ أم كيسان رئيس حرس المختار بن عبيد الثقفي؟ أم هو المختار نفسه لأنه كان يسمى كيسان، ويكنى أبا عمرة، وأبا إسحاق؟ (الملل والنحل ١/ ١٣٣).

(٥) الفَرق بين الفِرق، ص (٥٥، ٥٦)، دراسات في الأهواء والفرق، ص (٢٤٨).

(٦) نشأة الحركات السياسية والدينية في الإسلام د. فاروق فوزي، ص (١٠١).

النفق الشيطاني المظلم، وكانوا يقولون بإمامة محمد بن علي المعروف بابن الحنفية، لأنه دفع إليه الراية بالبصرة[١].

وقالوا بالتناسخ ويزعمون أن الإمامة جرت في علي ثم في الحسن ثم في الحسين ثم في محمد بن الحنفية، ومعنى ذلك أن روح الله صارت في النبي ﷺ، وروح النبي ﷺ صارت في علي، وروح علي صارت في الحسن، وروح الحسن صارت في الحسين، وروح الحسين صارت في محمد بن الحنفية، وروح ابن الحنفية صارت في ابنه أبي هاشم[٢].

ويعتقدون في ابن الحنفية اعتقاداً فوق حده ودرجته، من: إحاطته بالعلوم كلها، واقتباسه من (السيدين) الأسرار بجملتها من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس[٣].

والحق أن ابن الحنفية لم يقر الغلو الذي قيل فيه، ولم يعترف بأنه المهدي المنتظر، وروى ابن سعد حديثاً رفعه إلى أبي العريان المجاشعي قال: فبلغ محمداً أنهم يقولون: إن عندهم شيئاً أي من العلم. قال: فقام فينا وقال: إنا والله ما ورثنا من رسول الله ﷺ إلا ما بين هذين اللوحين. ثم قال: اللّهم خلا هذه الصحيفة في ذؤابة سيفي، فسألت: وما كان في الصحيفة؟ قال: من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً[٤].

وقال محمد للرجل الذي قابله وسأله عن أشياء سرية نُميت إلى الرجل عن محمد: أما بعد، فإياكم وهذه الأحاديث، فإنها عيب عليكم، وعليكم بكتاب الله، فإنه به هُدِي أولكم، وبه يُهدى آخركم[٥].. ويظهر أن المختار هو الذي روّج فكرة مهدية محمد لأسباب سياسية أي أنه أراد أن يحكم باسمه دون إشراكه بالسلطة الفعلية. وعندما هم ابن الحنفية أن يقدم إلى الكوفة، وبلغ ذلك المختار فثقل عليه قدومه فقال: إن في المهدي علامة، يقدم بلدكم هذه فيضربه رجل في السوق بالسيف فلا تضره.. فبلغ ذلك ابن الحنفية فأقام[٦].

---

(١) المقالات والفرق، ص (٢٦)، الشيعة العربية والزيدية، ص (٢٥٨).

(٢) الملل والنحل (١/ ١٣١).

(٣) المصدر نفسه (١/ ١٣١).

(٤) الشيعة العربية والزيدية، ص (٢٥٩).

(٥) الطبقات (٥/ ٧٠).

(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٨).

وقال كثير عزّة في ابن الحنفية:

ألا إن الأئمة من قريش	ولاة الحقّ أربعة سواء
عليٌ والثلاثة من بنيه	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبرٌ	وسبط غيّبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى	يقود الخيل يقدمها لواء
تغيب لا يُرى عنهم زمانا	برضوى عنده عسل وماء[١]

سادساً

حركة عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) ومقتله

نصت مقررات مؤتمر الجابية ـ كما أشرنا ـ على أن تكون الخلافة لعمرو بن سعيد الأشدق بعد مروان بن الحكم، وخالد بن يزيد بن معاوية، وتجاوز مروان عمراً وبايع لابنيه عبد الملك، وعبد العزيز، الأمر الذي أثار نقمة عمرو، بعكس خالد بن يزيد الذي انصرف إلى العلم لا سيما الكيمياء[٢]، وفي أول سنة ٦٩هـ خرج عبد الملك بجنوده يريد قرقيسيا، ليحاصر فيها زفر بن الحارث، واستخلف على دمشق عمرو بن سعيد بن العاص، ولم يكد عبد الملك يخرج بجيشه من دمشق، حتى تحصن بها عمرو بن سعيد، وأخذ ما في بيت المال من الأموال.

وتذكر رواية أخرى أن عمرو بن سعيد كان مع عبد الملك حين خرج إلى قرقيسيا ولكنه استغل فرصة الليل، وانخذل هو وجماعة معه من الجيش، ورجعوا إلى دمشق ففر والي دمشق من قبل عبد الملك عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي، ودخلها عمرو بن سعيد واستحوذ على ما فيها من الخزائن[٣]، وبعث عمرو إلى عبد الرحمن بن أم الحكم فلم يجده، فأمر بهدم بيته، واجتمع الناس وصعد عمرو المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنه لم يقم أحد من قريش قبلي على هذا المنبر إلا زعم أن له جنة وناراً، يدخل الجنة من أطاعه، والنار من عصاه، وإني أخبركم أن الجنة والنار بيد الله، وأنه ليس إليّ من ذلك شيء، غير أن لكم عليّ حسن المواساة والعطية[٤]، وأصبح عبد الملك فسأل عن عمرو بن سعيد فلم يجده، فكرّ راجعاً إلى دمشق، فوجد عمراً وقد تحصن بها، ودارت بينهما معركة استمرت ستة عشر يوماً[٥]، ويبدو أن عبد الملك قد رأى موقف عمرو قوياً حيث

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٢).
(٢) تاريخ خلافة بني أمية، نبيه عاقل، ص (١٥٢).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ١١٤).
(٤)، (٥) البداية والنهاية (١١/ ١١٥).

كان متحصناً بقلعة رومية منيعة، فعرض الصلح فتصالحا على ترك القتال[١].

١ ـ شروط عمرو بن سعيد بن العاص:

كانت شروطه كالآتي: أن لعمرو بن سعيد الخلافة بعد عبد الملك[٢]، وأن يكون له عامل مع كل عامل لعبد الملك، وأن يستشيره في كل صغيرة وكبيرة[٣]، ويوليه الديوان وبيت المال[٤].

وتبرز كتب التاريخ أسباباً عديدة دعت عبد الملك للقبول بهذه الشروط منها:

أ ـ انقسام قبيلة كلب ذات القوة والتأثير السياسي في الأحداث آنذاك، بين عبد الملك وعمرو الأشدق، مما جعل كسب المعركة بالقوة يؤدي إلى خسائر فادحة لكلا الطرفين، ولم يكن لصالح كلب التي فرضت الصلح[٥].

ب ـ سيطرة عمرو الأشدق على مدينة دمشق التي تعد العاصمة آنذاك، وفيها بيت المال وديوان الجند اللذان يعدان عصب الحياة وكسب المؤيدين آنذاك.

جـ ـ وقوف أكثر القبائل اليمانية الأخرى على الحياد، وعدم تدخلها في الصراع مما يجعل القرار الفعلي للصلح بيد قبيلة كلب ذاتها[٦].

د ـ قوة عمرو الأشدق في الشام وخاصة في دمشق، فقد أيدته دمشق فضلاً عن زعيم بجيلة عبد الله بن كريز القسري الذي كان مع شرطته[٧].

هـ ـ ويمكن أن يكون قبول الاتفاقية من قبل عبد الملك لحل النزاع سلمياً، ثم القيام بقتل عمرو الأشدق بعد اتفاقه مع بعض زعماء الشام وبني أمية[٨].

٢ ـ غدر عبد الملك بابن عمه وعمرو بن سعيد:

وبعد عقد الصلح ودخول عبد الملك دمشق بأربعة أيام، أرسل إلى عمرو أن ائتني. فلما كان بعد الظهر لبس عمرو درعاً بين ثيابه، وتقلد سيفه، فلما نهض عثر

---

(١) الأمويين للوكيل (١/ ٣٦٩).
(٢) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص (٨٥).
(٣) تاريخ خليفة نقلاً عن الدور السياسي لأهل اليمن، ص (٨٥).
(٤) أنساب الأشراف (٤/ ١٣٩).
(٥) نهاية الأرض (٢١/ ١٠٢)، الدور السياسي لأهل اليمن، ص (٨٦).
(٦) الدور السياسي لأهل اليمن، ص (٨٧).
(٧) الدور السياسي لأهل اليمن، ص (٨٧).
(٨) الكامل في التاريخ نقلاً عن الدور السياسي لأهل لايمن، ص (٨٧).

في البساط، فقالت امرأته وبعض من كان حاضراً عنده: إنا لا نرى أن تذهب إليه، فلم يعبأ بكلامهم، ومضى في مائة من عبيده، وكان عبد الملك قد أمر بني مروان بالحضور عنده، وأمر حاجبه أن يدخل ابن سعيد ويغلق الباب دون من معه.. ثم غُلقت الأبواب واقترب عمرو من عبد الملك، فرحب به وأجلسه معه على السَّرير، ثم جعل يحدثه طويلاً.

ثم إن عبد الملك قال: يا غلام، خذ السيف عنه، فقال عمرو: إنا للَّه يا أمير المؤمنين، فقال له عبد الملك: أو تطمع أن تتحدَّث معي متقلِّداً سيفك؟ فأخذ الغلام السيف عنه، ثم تحدَّثا ساعة، ثم قال له عبد الملك: يا أبا أمية. قال: لبيك يا أمير المؤمنين قال: إنك حيث خلعتني آليت بيميني إن ملأتُ عيني منك وأنا مالك لك أن أجمعك في جامعة. فقال بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟ قال: ثم أُطلقه، وما عسيت أن أفعل بأبي أميّة؟ فقال بنو مروان: أبرَّ قسم أمير المؤمنين، فقال عمرو: فأبرَّ قسمك يا أمير المؤمنين. فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة فطرحها إليه، ثم قال: يا غلام، قم فاجمعه فيها. فقام الغلام فجمعه فيها، فقال عمرو: أُذكِّرُك اللَّه يا أمير المؤمنين أن تُخرجني فيها على رؤوس الناس، فقال عبد الملك: أمكراً يا أبا أمية عند الموت؟ لاها اللَّهِ إذاً، ما كنّا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس ولما نخرجها منك إلا صعداً[١].

ثم اجتذبه اجتذابة أصاب فمه السرير فكسر ثنيّته، فقال عمرو: أُذَكِّرُك اللَّه يا أمير المؤمنين ألا يدعوك كسر عظمي إلى ما هو أعظم من ذلك. فقال عبد الملك: واللَّه لو أعلم أنّك إذا بقيت تفي لي وتصلح قريش لأطلقتك، ولكن ما اجتمع رجلان قطّ في بلد على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه[٢].

وجاء في رواية: أن عبد الملك كلّف أخاه عبد العزيز بقتله. وخرج لصلاة العصر ولما رجع من صلاته وجد أخاه لم يقتله فلامه وسبّه وسبّ أمه ـ ولم تكن أم عبد العزيز أم عبد الملك ـ فقال: إنه ناشدني اللَّه والرحم، وكان ابن عمة عبد الملك بن مروان، ثم إن عبد الملك قال: يا غلام ائتني بالحربة، فأتاه بها فهزها وضربه بها، فلم تغن شيئاً، ثم ثنى فلم تغن شيئاً، فضرب بيده إلى عضد عمرو فوجد مس الدرع فضحك، وقال: ودارعٌ أيضاً، إن كنت لمُعِداً، يا غلام ائتني

---

(١) الصعد: المشقة، وعذاب صعد: شديد.

(٢) البداية والنهاية (١١/ ١١٧).

بالصمصامة، فأتاه بسيفه ثم أمر بعمرو فصُرع فجلس على صدره فذبحه، وهو يقول:

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حيث تقول الهامة اسقوني

وانتفض عبد الملك بعد ما ذبحه، كما تنتفض القصبة برعدة شديدة جداً بحيث إنهم ما رفعوه عن صدره إلا محمولاً، فوضعوه على سريره وهو يقول: ما رأيت مثل هذا قط قبله، صاحب دنيا ولا طالب آخرة. ودفع الرأس إلى عبد الرحمن بن أمّ الحكم، فخرج به للناس فألقاه بين أظهرهم، وخرج عبد العزيز بن مروان ومعه البدرُ[١] من الأموال تحمل، فأُلقيت بين الناس فجعلوا يختطفونها، ويقال: إنها استرجعت بعد ذلك إلى بيت المال.

ويقال: إن الذي ولي قتل عمرو بن سعيد مولى عبد الملك أبو الزُّعيزعة بعد ما خرج عبد الملك في الصلاة[٢]. وهكذا تخلص عبد الملك من منافس قوي له، ولم يبال بنقض العهود، وسفك الدماء، فالطريق نحو الملك جعله يتخلص من ابن عمته عمرو بن سعيد، ومن أحب الأصدقاء إليه مصعب بن الزبير، ومن أفضل أهل الأرض في زمانه على حد تعبيره عبد الله بن الزبير.

سابعاً

مصالحة عبد الملك للروم والتضييق على الجراجمة

نظراً للاضطرابات الداخلية في دولته اضطر عبد الملك إلى مصالحة الروم على أن يدفع لهم ٣٦٥ ألف قطعة ذهبية، و٣٦٠ عبداً و٣٣٠ جواداً أصيلاً سنوياً، وأن تقتسم الدولة البيزنطية والدولة الأموية خراج قبرص وأرمينيا[٣]، وارتهن منهم رهائن وضعهم في بعلبك[٤] في مقابل ذلك يسحب ملك الروم الجراجمة إلى وسط الإمبراطورية البيزنطية[٥]، ولم يمتنع عبد الملك عن مصالحة الجراجمة في جبل اللكام، ووافق على أن يدفع لهم ألف دينار كل جمعة[٦].

---

(١) البدر: جمع بدرة: وهي كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ويقدم في العطايا.
(٢) البداية والنهاية (١١/ ١١٩).
(٣) الدولة البيزنطية، ص (١٥٨)، الدور السياسي لأهل اليمن، ص (٩٠).
(٤) فتوح البلدان (١/ ١٩٠).
(٥) المصدر نفسه (١/ ١٩٠)، الدور السياسي لأهل اليمن، ص (٩٠).
(٦) أنساب الأشراف (٥/ ٢٩٩، ٣٠٠)، الدور السياسي، ص (٩٠).

ولكن سرعان ما سنحت الفرصة لعبد الملك للتخلص من الجراجمة، فبعد أن عقد الصلح معهم أرسل أحد قادته الثقات سحيم بن المهاجر إلى القائد البيزنطي والذي كان على رأس الجراجمة، ونجح في كسب ثقته، ثم كاده بقوات دبرها لهذا الشأن، فقتل القائد البيزنطي وهرب أصحابه وأمّن الباقين، فرجع العبيد إلى أسيادهم والأنباط إلى قراهم[١]، كما أن الاتفاقية مع الدولة البيزنطية لم تدم طويلاً، لأن الروم نقضوا العهد، كما أن عبد الملك استطاع القضاء على ابن الزبير وتوحيد الدولة تحت زعامته مما جعله يفكر بالرد على تحديات البيزنطيين المتكررة، فعين أخاه محمد بن مروان سنة ٧٣هـ[٢]، فشرع في غزوهم سنة ٧٤هـ[٣].

ثامناً

زفر بن الحارث الكلابي

ظل القيسيون الموتورون في مرج راهط على ولائهم لابن الزبير، وكان أحد كبار زعمائهم ـ زفر بن الحارث الكلابي ـ قد فر إلى قرقيسيا، وتحصن بها، وثابت إليه قيس، وأصبح تجمُّعه هناك مركزاً لشن الغارات على كلب في المناطق المجاورة له، مما كان يسبب إحراجاً بالغاً لعبد الملك الذي كان يطمح إلى استعادة بقية بلدان العالم الإسلامي تحت سيادته وسلطانه.

وكان في هذه الفترة يوجه كل جهوده لاستعادة العراق من سيطرة مصعب بن الزبير، وكان لا بد لعبد الملك إذا أراد أن يضم إليه العراق، وينهي سيطرة الزبيريين عليه، أن ينهي اعتصام زفر بن الحارث في قرقيسيا، فسار إليه في جيشه الذي كان جهزه لحرب مصعب بن الزبير، وبدأ بزفر أولاً فحاصره، ولكن رجال زفر أبدوا بطولة عجيبة وانتزعوا إعجاب عبد الملك الذي قال: لا يبعد اللّه رجال مضر، واللّه إن قتلهم لذل، وإن تركهم لحسرة[٤].

ولجأ عبد الملك إلى المسالمة، وكتب إلى زفر يدعوه إلى طاعته ويرغبه فيها، ويهدده إن لم يقبل ذلك، وبعد جهود ومفاوضة أرسل إليه زفر يجيبه إلى طلبه، ويشترط عليه أن يبقي له الخيار في أن يظل مخلصاً لابن الزبير، أو ينضم إلى

---

(١) أنساب الأشراف (٥/ ٣٠١).
(٢) الكامل لابن الأثير نقلاً عن الدور السياسي، ص (٩٢).
(٣) الكامل في التاريخ (٣/ ٨٤).
(٤) الكامل في التاريخ (٣/ ٦١).

عبد الملك، ورغم ذلك فقد وافق على شرطه، وأعطاه الأمان هو وابنه وقائده الهذيل بن زفر، وجميع أتباعهما، ولم يأخذ بمال أو دم أهدره، بل أعطى عبد الملك الزعيم القيسي مبلغاً من المال يوزعه بين أتباعه، ثم اختتم ذلك العمل بأن زوَّج ابنه مسلمة بن عبد الملك بالرباب بنت زفر بن الحارث، كما أمر زفر ابنه الهذيل أن ينضم إلى جيش عبد الملك المتجه إلى حرب مصعب بن الزبير، إذ لم يكن على ولده ما عليه هو من بيعة ابن الزبير[١]، وحرص عبد الملك إلى تحقيق التوازن بين القبائل اليمانية والقيسية، وجعل في أصحابه زفر بن الحارث الكلابي وابنيه الهذيل وكوثراً وعبد الله بن مسعدة الفزاري وغيرهم من زعماء قيس، كما كان في أصحابه حسان بن مالك الكلبي، وروح بن زنباع الجذمي، ورجاء بن حيوة، الكندي وغيرهم من زعماء اليمانية، وكما عدل بين الفريقين في مجلسه عدل بينهم في وظائفه، فكان يختار ولاته على الأمصار من القيسية غالباً، بينما يختار موظفي بلاطه من اليمانية وهكذا[٢].

تاسعاً

ضم العراق والقضاء على مصعب بن الزبير

بعد أن استعاد ابن الزبير نفوذه على العراق أصبحت المواجهة محتومة بينه وبين عبد الملك، الذي قرر أن يقود المعركة بنفسه بعد أن شاور خاصته في ذلك، فمنهم من أشار عليه أن يقيم في الشام، ويرسل واحداً من أهله ليقود الجيش، ومنهم من أشار عليه بأن يسير بنفسه، فمال هو إلى هذا الرأي. وقال: إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأي، ولعلي أبعث من له شجاعة ولا رأي له، وإني بصير بالحرب، شجاع بالسيف إن احتجت إليه، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ولكنه لا علم له بالحرب، ومعه من يخالفه، ومعي من ينصح لي[٣].

عزم عبد الملك إذن على السير إلى العراق لانتزاعه من ابن الزبير وكان ذلك في سنة ٧١هـ أي بعد أربع سنوات من القضاء على المختار. ولعله أخَّر الصدام مع ابن الزبير إلى هذا الوقت متعمداً، فهو لم يشأ أن يسير إلى العراق إلا بعد أن يوطد دعائم حكمه في الشام، فقضى هذه السنين في تحقيق هذا الهدف، فقد حل مشاكله

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٦٢).

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٣٨٦).

(٣) الكامل في التاريخ (٣/ ٥١).

مع زفر بن الحارث الكلابي الذي كان معتصماً في قرقيسيا[١]، مهدداً بذلك إقليم الجزيرة كله، وقد عالج عبد الملك مشكلة زفر بالحكمة والسياسة، واصطلح معه، وأنهى بذلك مسألة قرقيسياء التي استمرت حوالي سبع سنوات، كالشوكة في جنب دولته، وأحكم سيطرته على إقليم الجزيرة[٢]، ثم تخلص من منافسه الخطير، وهو عمرو بن سعيد الأشدق[٣]، ولما أراد الخروج للعراق ودّع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فبكت وبكى جواريها لبكائها، فقال: قاتل اللّه كثير عزة؛ لكأنه يشاهدنا حين قال:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همَّهُ ... حَصانٌ عليها عِقدُ دُرٍ يزينها
نهته فلما لم تر النّهي عاقه ... بكت وبكى ممّا عناها قطينها[٤]

وسارع عبد الملك إلى العراق بجيشه، وجعل على مقدمته أخاه محمد بن مروان، ونزل بمسكن، وكان مصعب قد علم بمسيره، ونزل بمسكن مقدمته إبراهيم بن الأشتر، ونزل باجميرا[٥]، وأخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم.

وكان إبراهيم بن الأشتر قائد جيوش المختار الثقفي قد انضم إلى مصعب بعد مقتل المختار، وكتب إليه عبد الملك أيضاً، فأخذ الكتاب مختوماً ودفعه إلى مصعب، فقال له: ما فيه؟ فقال له: ما قرأته، فقرأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق، فقال لمصعب: إنه واللّه ما كان من أحد آيس منه مني، ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذي كتب إليّ، فأطعني فيهم فاضرب أعناقهم، قال: إذاً لا تنصحنا عشائرهم، قال: فأوقرهم حديداً، وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هناك، ووكل بهم على عشائرهم، فقال: يا أبا النعمان إني لفي شغل عن ذلك، يرحم اللّه أبا بحر ـ الأحنف بن قيس ـ إنه كان ليحذرني غدر أهل العراق، كأنه ينظر إلى ما نحن فيه[٦].

وهذا ليس غريباً على أهل العراق، فلهم في الغدر وتغيير المواقف سجل حافل. بل قد صرح عبد الملك بأن كتبهم كانت تأتيه يدعونه إليهم قبل أن يكتب هو

(١) المصدر نفسه (٣/ ٥٩).
(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٥٠١)، نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(٣) البداية والنهاية (١١/ ١١٩).
(٤) الكامل في التاريخ (٣/ ٥١)، قطينها: خدمها.
(٥) تاريخ الطبري (٧/ ٣٤).
(٦) الكامل في التاريخ (٣/ ٥٢).

إليهم[١]. ولم يكن هذا خافياً في معسكر مصعب، فعندما استدعى المهلب بن أبي صفرة ـ وكان من رجاله في ذلك الوقت ـ يستشيره، قال له: إعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم، فلا تبعدني عنك. فقال له مصعب: إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج، وهم قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إذا سار عبد الملك إليّ ألا أسير إليه، فاكفني هذا الثغر[٢].

في الوقت الذي كان عبد الملك يكاتب فيه زعماء أهل العراق من قواد مصعب والذين قبلوا التخلي عنه والانضمام إليه[٣]. كان حريصاً على ألا يقاتل مصعباً، للمودة والصداقة القديمة التي كانت بينهما فأرسل إليه رجلاً من كلب، وقال له: اقرئ ابن أختك السلام ـ وكانت أم مصعب كلبية ـ وقل له يدع دعاءه إلى أخيه، وأدع دعائي إلى نفسي، ويجعل الأمر شورى، فقال له مصعب: قل له السيف بيننا[٤].

ثم حاول عبد الملك محاولة أخرى: فأرسل إليه أخاه محمد ليقول له: إن ابن عمك يعطيك الأمان، فقال مصعب: إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً[٥]. ثم دارت المعركة فبدأت خيانات أهل العراق تظهر، فقد أمد مصعب إبراهيم بن الأشتر بعتاب بن ورقاء، وهو من الذين كانوا كاتبوا عبد الملك، فاستاء إبراهيم من ذلك وقال: قد قلت له لا تمدني بعتاب وضربائه، إنا لله وإنا إليه راجعون، فانهزم عتاب بالناس.

فلما انهزم صبر ابن الأشتر فقتل[٦]، فكان مقتله خسارة كبرى لمصعب، لأنه، فوق شجاعته، كان مخلصاً له غاية الإخلاص، ولذلك لما اشتد القتال على مصعب وتحرج موقفه صاح قائلاً: يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم[٧]، تخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه، حتى لم يبق معه سوى سبعة رجال[٨]، ولكنه ظل يقاتل في شجاعة وبسالة، حتى أثخنته الجراح، وأخيراً قتله زياد بن ظبيان. وكان مقتله في المكان الذي دارت فيه المعركة على قصر دجيل عند دير الجاثليق[٩]، في جمادى الآخرة سنة ٧٢هـ.

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٥٢).
(٢) الكامل في التاريخ (٣/ ٥١).
(٣) تاريخ الطبري (٧/ ٤٤).
(٤) الكامل في التاريخ (٣/ ٥٢).
(٥) تاريخ الطبري (٧/ ٤٥).
(٦) الكامل في التاريخ (٣/ ٥٣).
(٧) تاريخ الطبري (٧/ ٤٥).
(٨) الكامل في التاريخ (٣/ ٥٤، ٥٣).
(٩) تاريخ الطبري (٧/ ٤٤).

فلما بلغ عبد الملك مقتله قال: واروه، فقد واللَّه كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكن هذا الملك عقيم[١]، وبمقتل مصعب انتهت المعركة، فدخل عبد الملك الكوفة، وبايعه أهلها، وعادت العراق إلى حظيرة الدول الأموية. وعيّن عبد الملك أخاه بشراً والياً عليها، وقبل أن يغادرها أعد جيشاً للقضاء على ابن الزبير بمكة.

١ ـ أسباب هزيمة مصعب بن الزبير:

هناك أسباب كثيرة أسهمت في هزيمة مصعب بن الزبير منها:

أ ـ عدم اشتراك المهلب بن أبي صفرة، ومن معه من الجنود، وهو المقاتل العنيد والخبير في شؤون الحرب، وإصرار مصعب بن الزبير على بقائه في قتال الخوارج بناء على رغبة أهل البصرة، علماً بأن المهلب قال: لا تبعدني عنك[٢]، ولو لم يبعد مصعب المهلب لتمَّ الاستفادة من جيشه، ومن قدرة وخبرة هذا القائد.

ب ـ خيانة قادة الفصائل من الجيش الزبيري من العراقيين بناء على الأماني التي مناهم إياها عبد الملك، وعدم قدرة مصعب على ثنيهم بعد اكتشاف خيانتهم.

جـ ـ عدم إغداق أمير المؤمنين عبد اللَّه بن الزبير الأموال، والأعطيات على أعيان وأشراف أهل العراق لما جاءوا إلى مكة مع مصعب.

د ـ غضب بعض الشيعة لمقتل المختار، فلقد رأوا فيه أنه هو الذي انتقم من قتلة الحسين، بحيث لم يترك أحداً، ولهذا عبّر زائدة بن قدامة عن ذلك عندما طعن مصعب وقال: يا لثارات المختار[٣].

هـ ـ قلة الخبرة العسكرية لدى مصعب على الرغم من شجاعته وإقدامه وبطولته التي اعترف بها خصمه.

و ـ إنهاك جيش الزبيريين، فقد خاضوا معارك عدة في العراق، بينما كان جيش الأمويين مرتاحاً، فلما رأوا جنود خصمهم تواكلوا وشملهم الرعب[٤].

ز ـ عدم مد الخليفة ـ عبد اللَّه بن الزبير ـ أخاه بالقوات والجند، وكان الأجدر به أن يمده بكل ما يستطيع، لأن ضَياع العراق من يديه يعني فقدان الموارد المالية وبداية الانهيار السياسي[٥].

---

(١) المصدر نفسه (٧/ ٤٧).
(٢) الكامل في التاريخ (٣/ ٥١).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٥٤).
(٤) تجديد الدولة الأموية للناطور، ص (٨٠).
(٥) المصدر نفسه، ص (٨٠).

٢ ـ أثر مقتل مصعب على ابن الزبير وخطبته:

ولما بلغ عبد اللّٰه بن الزبير قَتْلُ أخيه مصعب، قام فخطب في الناس، فقال: الحمد للّٰه الذي له الخلق والأمر، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

ألا إنه لن يُذل اللّٰه من كان الحق معه، وإن كان فرداً، ولم يعز من كان وليه الشيطان وحزبه وإن كان معه الأنام طُرّاً، ألا وإنه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا، أتانا قتل مصعب ـ رحمه اللّٰه ـ، فأما الذي أفرحنا؛ فعلمنا أنه قتله له شهادة، وأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوي بعدها ذوو الرأي إلى جميل الصبر، وكريم العزاء ولئن أصبت بمصعب لقد أصبت بالزبير قبله، وما أنا من عثمان بخلو مصيبة، وما مصعب إلا عبد من عبيد اللّٰه؛ وعون من أعواني، إلا أن أهل العراق أهل الغدر والنفاق، أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فإن يقتل فإنا واللّٰه ما نموت على مضاجعنا، كما تموت بنو العاص، واللّٰه ما قتل منهم رجل في زحف في الجاهلية ولا الإسلام، وما نموت إلا قعصاً[(١)] بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف. ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبل لا آخذها أخذ الأشِر البَطِر، وإن تدبر لا أبك عليها بكاء الحَرِقَ المَهين. أقول قولي هذا وأستغفر اللّٰه لي ولكم[(٢)].

٣ ـ رأي عبد الملك في مصعب بن الزبير:

لما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك، بكى وقال: ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له، حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم[(٣)]. لقد نسي عبد الملك كل ما كان بينه وبين مصعب، ولم يذكر إلا الكرسي وسلطة الحكم، حتى إذا ما تم له الأمر، وخلص له الحكم، أخذ يتحدث عما كان بينهما من المودة والخُلة، وراح يذكر محاسنه في مجالسه، وهو يعلم أن ذلك لن يضر ملكه شيئاً[(٤)].

روى ابن كثير أن عبد الملك قال يوماً لجلسائه: من أشجع العرب قالوا: شبيب، قطريٌ بن الفجاءة، فلان، فلان. فقال عبد الملك: إن أشجع العرب لرجل

---

(١) القعص: الموت السريع.
(٢) تارخي الطبري (٧/ ٥٣).
(٣) المصدر نفسه (٧/ ٤٧).
(٤) البداية والنهاية (١١/ ١٥٢).

جمع بين سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، وأمة الحميد بنت عبد اللّه بن عامر بن كُريز، وأمّه رباب بنت أُنيف الكلبي، سيد ضاحية العرب، وولي العراقين خمس سنين فأصاب ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف، وأُعطي الأمان فأبى، ومشى بسيفه حتى مات. . ذلك مصعب بن الزبير، لا من قطع الجسور مرة هاهنا ومرّة هاهنا[١].

إن مدح مصعب الآن لا يضر عبد الملك شيئاً، فقد مضى إلى ربه، وترك له الدنيا بزخارفها، فهو الآن، وبعد أن لم يعد مصعب يشكل خطراً على ملك عبد الملك، فلا بأس بأن يذكر محاسنه، ولا بأس بأن يؤبنه، ولهذا لما جيء برأس مصعب إلى عبد الملك قال: واروه فقد واللّه كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكن هذا الملك عقيم، وأمر به وابنه عيسى فدفنا[٢].

---

(١) تاريخ الطبري، الأمويون للوكيل (١/ ٣٨١).
(٢) الأمويون للوكيل (١/ ٣٨٠).

الفصل الثاني

القضاء على حركة الخوارج

المبحث الأول

القضاء على حركة الخوارج

ظل الخوارج فرقة واحدة يتبنون أفكاراً ومبادئ واحدة بصفة عامة إلى ما بعد وفاة يزيد، ثم بدأوا ينشقون على أنفسهم وكلما اختلف أحدهم مع رفاقه في الرأي، انشق عنهم مكوناً له فرقة خاصة، حتى وصل عدد فرقهم إلى أكثر من ثلاثين فرقة[١]، ومن أشهر فرق الخوارج التي قاتلها عبد الملك: الأزارقة والصفرية.

أولاً

الأزارقة

هم أتباع نافع بن الأزرق، الذين يعدون أشد فرق الخوارج تطرفاً في الأفكار والمبادئ وجنوحاً إلى العنف، وكان زعيم هذه الفرقة هو أول من أحدث الخلاف بين الخوارج لتطرفه، فقد برئ من القاعدين، الذين لا يخرجون معه للقتال، كما قال بكفر من لم يهاجر إليه[٢]. فضلاً عن إباحته أموال ودماء مخالفيه، وتكفيره لمرتكب الكبيرة وحكمه بخلوده في النار[٣]، ومن أهم ما تميزت به هذه الفرقة:

- الانفصال الكامل عن المجتمع المسلم، حيث زعم نافع وأتباعه أن دار مخالفيهم دار كفر.
- إيمانهم بمبدأ الاستعراض، فكانوا يتعرضون للناس بالقتل والنهب، فقد أباحوا لأنفسهم قتل الرجال والنساء والصبيان «من المسلمين».
- أنهم كفروا القعدة، ونافع أول من أظهر البراءة من القعدة عن القتال، وإن كانوا موافقين له على دينه، وكفَّر من لم يهاجر إليه.

فهذه من أهم البدع التي فارق بها الأزارقة بقية الخوارج[٤].

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري (١/ ١٥٧)، رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص (٣٠٥).
(٢) مقالات الإسلاميين (١/ ١٥٧).
(٣) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٤٥٦).
(٤) الخوارج.. دراسة ونقد لمذهبهم، ناصر السعوي، ص (٧٦).

وقد فارق الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق عبد الله بن الزبير عندما تبين لهم أنه لم يكن على رأيهم فيما يذهبون إليه، وقد انبث أفراد هذه الفرقة الخارجية في مناطق البصرة والأهواز وما وراءها من بلاد فارس وكرمان في أيام عبد الله بن الزبير وصاروا يحاربون المسلمين جهاراً[١]، وجاءت تولية المهلب على حرب الأزارقة بناء على اختيار أهل البصرة له، واقتران ذلك بموافقة عبد الله بن الزبير[٢]، إلا أن المهلب لم يخرج لقتالهم إلا بعد أن اشترط على أهل البصرة جملة شروط أجابوه إليها، فخوّل الحق باختيار من يشاء من المقاتلة، وأن تكون له إمرة وخراج كل بلد يقع في حوزته[٣].

وانتخب المهلب اثني عشر ألف رجل من أخماس البصرة، ولم يكن ببيت المال سوى مائتي ألف درهم، عجزت عن عطاء الجند وعن تجهيزاتهم، فبعث المهلب إلى التجار وقال لهم: إن تجارتكم منذ حول قد كُسِرت بانقطاع موارد الأهواز وفارس عنكم، فهلمّ فبايعوني واخرجوا معي أوفيكم إن شاء الله حقوقكم، فأخذ منهم من المال ما يصلح به عسكره، واتخذ لأصحابه ما يلزم من التجهيزات، فلما انتصر المهلب على الخوارج، قام بجباية الخراج من الكور حتى قضى للتجار ما أخذ منهم[٤].

استمر المهلب يقاوم الخوارج ما يقرب من عامين، ثم استدعاه مصعب بن الزبير الذي أصبح والي البصرة من قبل أخيه عبد الله، ليشترك معه في حرب المختار الثقفي سنة ٦٧هـ، وبعد هزيمة المختار عين مصعب المهلب والياً على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية[٥]، ولكن أحداً لم يستطع أن يقوم مقام المهلب في مقاومة الخوارج، مما اضطر مصعباً أن يستدعيه من الموصل ليتولى قتالهم من جديد[٦]، وبينما المهلب يقاوم الخوارج في الأهواز تمكن عبد الملك بن مروان من سيطرة الدولة الأموية على العراق، بعد مقتل مصعب بن الزبير سنة ٧٢هـ[٧]، وولى أخاه بشر بن مروان على العراق، وأمره بإبقاء المهلب على حرب

(١) آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ، ص (٣٧).
(٢) تاريخ الطبري، نقلاً عن آل المهلب بن أبي صفرة، ص (٣٧).
(٣) الكامل في التاريخ، نقلاً عن آل المهلب بن أبي صفرة، ص (٣٧).
(٤) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٨٣).
(٥) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٤٦٢).
(٦) المصدر نفسه، ص (٤٦٢).
(٧) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٤٦٢).

الخوارج ومساعدته، فعمل بشر بما أمره به أخوه.

وبرهن المهلب على إخلاصه في حرب الخوارج الأزارقة مهما كانت السلطة التي تصدر إليه الأوامر[١]، فكما قاتلهم تحت لواء آل الزبير استمر يقاتلهم تحت لواء عبد الملك، ولما أسندت ولاية العراق إلى الحجّاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٥هـ جدّ في مساعدة المهلب وحشد له العراقيين وشد أزره، فاشتد في مقاومتهم حتى تمكن من القضاء على خطرهم.

وقد أتاح له الخوارج أنفسهم فرصة كسر شوكتهم عندما انقسموا على أنفسهم قسمين، قسم تزعمه رجل اسمه عبد ربه فقد قضى عليه المهلب نهائياً[٢]، وأما قطري بن الفجاءة زعيم القسم الثاني ومجموعته فقد رحلوا إلى طبرستان، ولكن المهلب تمكن من القضاء عليهم سنة ٧٧هـ بمساعدة جيش أرسله إليه الحجّاج بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي[٣]، وهكذا قضى المهلب على خطر من أكبر الأخطار التي هددت الدولة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان، وهم الخوارج الأزارقة الذين كان مسرح عملياتهم العراق وبلاد فارس وكرمان والأهواز، واستمرت حركتهم ثلاثة عشر عاماً ٦٥ ـ ٧٨هـ[٤].

١ ـ وصف المهلب بن أبي صفرة الأزدي وشيء من أقواله:

وصف المهلب بأنه كان نزر الكلام وجيزه، يفضل فعله على لسانه[٥]، متلطفاً في إجاباته[٦]، كاتماً للسر[٧]، حليماً في موضع الحلم، شديداً في موضع الشدة، وإن كان الحلم أغلب عليه، فيروى أن رجلاً شتمه فلم يرد عليه، فقيل له: لم حلمت عنه؟ قال: لم أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه[٨]، واتصف المهلب بصبره وأناته في أعماله وحروبه، وكان يقول: أناة في عواقبها فوت خير من عجلة في عواقبها درك[٩]، وعندما كان الحجّاج يستعجله بمناجزة الأزارقة الخوارج،

---

(١) العراق في العصر الأموي، ص (٢٣٣، ٢٣٤).
(٢) تاريخ الطبري (٧/ ٨٣ ـ ٨٩).
(٣) المصدر نفسه، نقلاً عن العالم الإسلامي، ص (٢٦٤).
(٤) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٤٦٤).
(٥) الأخبار الطوال، ص (٢٨١).
(٦) المصون في الآداب، ص (١٨٧).
(٧) المحاسن والأضداد، ص (١٤)، آل المهلب ص (٢٢).
(٨) الكامل في اللغة والأدب (٢/ ٣١٤)، آل المهلب، ص (٢٢).
(٩) المحاسن والمساوئ (٢/ ٩١).

أجابه بقوله: إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره[١].

ومما اشتهر به المهلب في حروبه هو إعداده للبيات وإحكامه الأمور[٢]، أي أنه كان يباغت أعداءه بشن الهجوم عليهم ليلاً فيحرز انتصارات مؤزرة.

واشتهر المهلب بكرمه وسخائه، ومن أقواله لأبنائه في هذا الباب: ما رأيت أحداً بين يدي قط إلا أحببت أن أرى ثيابي عليه، واعلموا يا بني أن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم[٣]، وكان يحرص على شراء ود الناس، وله قول مأثور في ذلك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه[٤]، وقيل له: بما ظفرت؟ قال: بطاعة الحزم، ومعصية الهوى[٥].

٢ ـ من أساليب المهلب في قتال الخوارج:

كانت سياسة المهلب تقوم على النفس الطويل في محاربة الخوارج، وكان ينتظر تفجيرهم من الداخل، حتى يهون عليه أمرهم ويسهل القضاء عليهم، فقد كتب إلى الحجّاج: إني أنتظر منهم ثلاث خصال: موت صاحبهم قطري بن الفجاءة، أو فرقة وتشتيتاً، أو جوعاً قاتلاً[٦]، ولم تخطئ تقديرات المهلب للخوارج إذ سرعان ما دبّ الشقاق في صفوف الأزارقة، فما كان من المهلب إلا أن انتهز الفرصة فصعّد الخلاف في صفوفهم، فعمد إلى حيلة ناجحة، فقد عرف بين الخوارج رجلاً يصنع السهام المسمومة، فأرسل المهلب أحد أصحابه، بكتاب أمره أن يلقيه بين عساكر قطري سراً كتب فيه: أما بعد، فإن نصالك وصلت وقد أنفذت إليك ألف درهم. فلما استوضح عن الصانع أنكر، فقام قطري بن الفجاءة بقتله، فخالفه بذلك عبد ربه الكبير ووقع خلاف جديد[٧].

وتعميقاً للخلاف في صفوف الخوارج جنّد المهلب رجلاً نصرانياً وأمره أن يسجد لقطري بن الفجاءة، فلما شاهده الخوارج أنكروا ذلك عليه وقتلوا النصراني واتهموا زعيمهم بتأليه نفسه[٨]. وأخذ الخوارج يقتتلون فيما بينهم، بينما المهلب

---

(١) العقد الفريد (١/ ٨٧). (٢) البيان والتبيين (١/ ٢٥٣).
(٣) قلائد العقيان في محاسن الأعيان ص (١٩٨).
(٤) آل المهلب بن أبي صفرة، ص (٢٤).
(٥) سرح العيون لابن نباته، ص (١١٣).
(٦) الفتوح (٧/ ١٤).
(٧) الكامل في الأدب (٣/ ١١٣٩، ١١٤٠).
(٨) الكامل في التاريخ (٣/ ١٢٨).

ينتظر النتائج النهائية، التي تسفر عنها هذه التصفيات، ليتفرغ لها مما جعله لا يمتثل لأمر الحجّاج عندما طالبه بمقاتلتهم، بل كتب له: إني لست أرى أن أقاتلهم ما دام يقتل بعضهم بعضاً، فإن تمّوا على ذلك، فهو الذي تريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رمق بعضهم بعضاً، فأناهضهم حينئذ، وهم أهون ما كانوا وأضعفهم شوكة إن شاء الله تعالى[١]، فكف عنه الحجّاج، وتركهم المهلب يقتتلون شهراً لا يحركهم[٢].

ثم سار إليهم المهلب وتهيأت له الخوارج بقيادة عبد ربه الكبير، ثم تلا ذلك قتل شديد تمكن المهلب في نهايته من طردهم من جيرفت، ثم لاحقهم حتى هزمهم هزيمة منكرة، وقتل زعيمهم عبد ربه، ولم ينج منهم إلا عدد قليل[٣]، ولعل نجاح المهلب يعود إلى أسلوبه الحربي، الذي يعتمد على المطاولة ويتجنب العجلة، بجانب قيادته الحكيمة وشجاعته وخبرته العسكرية ومكره في الحروب[٤]. قال الشاعر:

قد يدرك المرء بالتدبير ما عجزت عنه الكماة ولم يحمل على بطل

ونتيجة انتصاراته ضد الخوارج، فقد رأى فيه الخليفة عبد الملك بأنه قادر على إيجاد التوازن بين الأطراف القبلية المتنازعة فولّاه على خراسان، فمكث فيها خمس سنوات إلى أن توفي عام ٨٢هـ[٥].

٣ ـ قطري بن الفجاءة التميمي:

خرج زمن مصعب بن الزبير، فبقي عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة[٦] ـ عند الخوارج الأزارقة ـ وهزم الجيوش، واستفحل بلاؤه، جهز إليه الحجّاج جيشاً بعد جيش فيكسرهم، وغلب على بلاد فارس، وله وقائع مشهودة، وشجاعة لم يسمع بمثلها وشعر فصيح سائر[٧]، فله:

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعي

---

(١) الكامل في التاريخ (٣/ ١٢٩).
(٢) الأخبار الطوال، ص (٢٧٦).
(٣) الكامل في التاريخ (٣/ ١٢٩).
(٤) تجديد الدولة الأموية، ص (٩٥).
(٥) الكامل في التاريخ (٣/ ١٥٢).
(٦) شذرات الذهب (١/ ٣٢٥).
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٢).

فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاعِ
ولا ثوب الحياة بثوب عزٍّ فيطوى عن أخي الخنع اليراعَ
سبيل الموت غاية كل حيٍّ وداعيةٌ لأهل الأرض داعي
ومن لم يُعتبط يهرم ويسأم وتُسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خيرٌ في حياة إذا ما عُدَّ من سقط المتاع[1]

وقد أرسل الحجّاج لحربه سفيان بن الأبرد الكلبي، فانتصر عليه وقتله، وقيل: عثر به الفرس، فانكسرت فخذه بطبرستان، فظفروا به وحُمل رأسه سنة تسع وسبعين إلى الحجّاج، وكان خطيباً بليغاً كبير المحلّ من أفراد زمانه[2].

ثانياً
الخوارج الصفرية

الخوارج الصفرية هم أحد فرق الخوارج الرئيسية، في تعيين نسبتهم أقوال عدة، فقيل: إنهم أتباع زياد بن الأصفر، وقيل: ابن عبد اللّه بن صفار، وقيل: عبد اللّه بن قبيصة وأطلق عليهم ذلك اللقب لأن العبادة أنهكتهم فاصفرت وجوههم، فنسبوا إلى تلك الصفرة[3]، وأياً كان ذلك السبب فقد بدأت خطورة أمرهم من الصالحية أو أتباع صالح بن مسرح التميمي، ذلك الرجل الذي كان موطنه بين نصيبين ومساروين، وهو مؤسس فرقة الخوارج الصالحية، وسمت هذا الرجل الصمت والهدوء، وعدم التعجل، لذا ظل يعلم الناس في هدوء وسكينة عشرين سنة[4]، وكان من أهم أتباعه وأنصاره، ذلك الرجل المقدام الذي دوّخ جيوش الحجّاج في مواقع عدة، وهو شبيب بن يزيد الشيباني، والذي كان يسكن في الجانب الأيمن من الفرات في صحراء الكوفة.

وبدأ أمر الخوارج يعلو، ولا سيما بعد محاولة شبيب اغتيال عبد الملك بن مروان في موسم الحج، لولا وصول الخبر إلى عبد الملك فأخذ حذره وانقضى الموسم بسلام، وبدأ الحجاج في التضييق على صالح وأتباعه، فنزلوا جميعاً وبعثوا إلى إخوانهم واستعدوا للخروج على دولة الخلافة.

---

(١)، (٢) المصدر نفسه (٤/ ١٥٢).
(٣) الخوارج، ناصر عبد اللّه، ص (٨١)، الحجاج بن يوسف، جمال محمود، ص (٨١).
(٤) تاريخ الطبري (٧/ ١٠٤ ـ ١١٢).

وكان الرجل من الخوارج كأنه جيش بمفرده بعدته وعتاده، وكانت وقعات الخوارج مع جيوش الحجّاج كثيرة العدد وقد بدأت هذه الفرقة بالخروج على دولة الخلافة وهم مائة وعشرون(١). وكانت بداية هذه الثورة من الموصل في شمال العراق وكانت ثورة خطيرة جداً، فقد تمكن قائدها شبيب بن يزيد من هزيمة العديد من جيوش الحجّاج الجرارة وهي في عدد قليل، وتمكن من دخول الكوفة(٢)، بعد أن قتل خمسة قوّاد أرسلهم الحجّاج لحربه واحداً بعد واحد، وكانت زوجته غزالة عديمة النظير في الشجاعة(٣)، وكانت نذرت أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران(٤)، ووفت بنذرها(٥)، وعيّر عمران بن حطان شاعر الخوارج الحجّاج فقال:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفُرُ من صفير الصافر
هلّا كررت على غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر
قرعت غزالة قلبه بفوارس ... تركت مناظره كأمس الغابر(٦)

وقد قتل شبيب عدداً من أشراف الكوفة، ولكنه لم يتمكن من البقاء فيها فخرج منها، ثم عاد إليها ثانية وضرب عليها الحصار بعد أن هزم جيشاً للحجاج عدته ألوف، وقتل قائده عتاب بن ورقاء، وهو وستمائة رجل(٧).

ولما يئس الحجّاج من أهل الكوفة لتقاعسهم عن القتال، وهالته هزائمهم المتكررة وهم في أعداد كبيرة أمام شبيب وهو في أعداد قليلة، أرسل إلى عبد الملك بن مروان يطلب مدداً من أهل الشام واضطر الحجاج أن يقود الجيش بنفسه، واستطاع هزيمة شبيب لأول مرة، فلاذ بالأهواز، فأرسل الحجّاج خلفه جيشاً التقى به هناك، ولم تكن النتيجة حاسمة لأي من الفريقين، غير أن شبيب غرق بينما كان يعبر أحد الأنهار، فلما سقط قال: ﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال: ٤٢] وانغمس في الماء، ثم ارتفع وقال: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦] وغرق(٨)، وبهذا تخلص منه الحجّاج بعد أن

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ١٠٨). (٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٤٦).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ١٤٥، ١٤٦).
(٤) الكامل في التاريخ (٣/ ١٢١).
(٥) شذرات الذهب (١/ ٣١٦).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٤٧)، تاريخ ابن عساكر (٤٦/ ٣٣٨).
(٧) العراق في العصر الأموي، للراوي، ص (٢٣٨).
(٨) الكامل في التاريخ (٣/ ١٢٣).

كبد الدولة كثيراً من الأموال والأرواح[١].

ولولا الله ثم تدخل عبد الملك لكان من الممكن أن تتغير الأوضاع السياسية في العراق والمناطق الشرقية، فقد استطاع أن يسوي المشكلة، ووضع لها الحل المناسب من تجهيز الجيوش وإرسالها، وتولية القادة المحنكين ليواجهوا شبيباً[٢].

ومن اللطائف التي تذكر: حضر عتبان الحروري عند عبد الملك بن مروان فقال: أنت القائل:

فإن يك منكم كان مروان وابنه وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فمنّا حُصينٌ والبطينُ وقعنبٌ ومنا أميرُ المؤمنين شبيب

فقال: إنما قلت: ومنا أميرَ المؤمنين شبيبُ. على النداء فأعجبه وأطلقه[٣]. وهذا الجواب في نهاية الحسن، فإنه إذا كان «أمير» مرفوعاً كان مبتدأ فيكون شبيب أمير المؤمنين، وإذا كان منصوباً فقد حذف منه حرف النداء ومعناه: يا أمير المؤمنين منا شبيب، فلا يكون شبيب أمير المؤمنين، بل يكون منهم[٤].

١ ـ من شعراء الخوارج عمران بن حطان:

هو عمران بن حطّان بن ظبيان، السدوسي البصري، من أعيان العُلماء، لكنّه من رؤوس الخوارج، حدّث عن عائشة وأبي موسى الأشعريّ وابن عباس، قال أبو داود: ليس في أهل الأهواء أصحُّ حديثاً من الخوارج ثم ذكر عمران بن حطان، وأبا حسّان الأعرج[٥].

وقد تميزت حياته أول الأمر بأنه فقيه ومحدث على منهج أهل السنة ثم تزوج قريبة له ـ كانت على مذهب الخوارج ـ يريد أن يصرفها عن مذهبها، لكنها استمالته إلى مذهبها، كان ذلك وقد كبرت سنه وطال عمره، فضعف عن الحرب، وقنع بالدعاية إلى مذهبه بلسانه، ولم يستطع أن يشارك في الحرب بسيفه ورضي القَعدة من الصفرية منه بهذا البيان، وطارده الحجّاج، ففر من العراق إلى الشام وجعل يتنقل من مدينة إلى مدينة في استخفاء وتمويه وتغيير للأسماء.

ونزل على روح بن زنباع الجذامي وأنس إلى كرمه وأخلاقه، وادّعى أنه

(١) انظر: تاريخ الطبري (١٠٤ ـ ١١٢).
(٢) تجديد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك، ص (١٠٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/١٠٦).
(٤) المصدر نفسه (٤/٤٥٦).
(٥) المصدر نفسه (٤/٢١٤).

أزديّ، فاستضافه روح سنة كاملة كان فيها معجباً بتقوى ضيفه الأزدي وعلمه وأدبه، وكان روح لا يسمع شعراً نادراً أو حديثاً غريباً عند عبد الملك ثم يقصه على صاحبه، أو يسأله عنه، إلا وجده عليماً به، وزائداً عليه، وذات يوم حدّث روح عبد الملك بن مروان بمزايا ضيفه الأزدي فقال عبد الملك إنه عمرأن بن حطان فأحضره[١]، وكان عبد الملك بن مروان قد أهدر دمه لما بلغ شعره عبد الملك في علي رضي اللّه عنه، وأدركته حمية لقرابته من علي رضي اللّه عنه ووضع عليه العيون. وشعر عمران في علي قوله:

يا ضربة من تقيٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنّي لأذكره حيناً فأحسبه ... أوفى البرية عند اللّه ميزانا
أكرم بقوم بطون الطير قبرهم ... لم يخلطوا دينهم بغياً وعدوانا[٢]

وعندما علم عمران بطلب عبد الملك له هرب إلى الجزيرة، ثم لحق بعمان فأكرموه[٣] وقال شعراً في روح بن زنباع لما فارقه حيث قال:

يا روح كم من كريم قد نزلت به ... قد ظنّ ظنّك من لخم وغسان
حتى إذا خفته زايلت منزله ... من بعد ما قيل: عمران بن حطان
قد كنت ضيفَكَ حولاً ما تُروّعُني ... فيه طوارق من إنس ولا جان
حتى أردتَ بي العظمى فأوحشني ... ما يوحش الناس من خوف ابن مروان
لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية ... كنت المقدّم في سرٍّ وإعلان
لكن أبت لي آيات مُفصَّلةٌ ... عقد الولاية في «طه» و «عمران»[٤]

فهو في ثنائه على ابن زنباع لم يبح لنفسه أن يستغفر له، لأنه ليس في رأيه ممن يستحقون المغفرة، فهو طاغية وكافر، على طريقة أكثر الخوارج في تكفير مخالفيهم[٥]، وكان من فحول الشعراء، وقد شهد له بذلك الفرزدق، فقد وقف عمران بن حطان ذات يوم على الفرزدق وهو ينشد الناس فقال له:

أيها السائل ليُعطى ... إن للّه ما بأيدي العباد
فسل اللّه ما طلبت إليهم ... وارجُ فضل المقسّم العواد

---

(١) أدب السياسة في العصر الأموي، ص (٥٢٦)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٥).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٢١٦).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ٢١٥).
(٥) أدب السياسة في العصر الأموي، ص (٥٣٠).

لا تقل للئيم ما ليس فيه — وتسمّي البخيل باسم الجواد[1]

وجاء في رواية أن الفرزدق قال: الحمد لله الذي شغل عنا هذا ببدعته، ولولا ذلك للقينا منه عنتاً[2]، ومن شعر عمران في الزهد في الدنيا والتزود للآخرة، فعن قتادة قال: لقيني عمران بن حطان، فقال: يا أعمى، احفظ عني هذه الأبيات:

حتى متى تُسقى النُّفوس بكأسها — ريب المنون وأنت لاه ترتع
أفقد رضيت بأن تُعلل بالمُنى — وإلى المنيَّة كلّ يوم تُدْفَعُ
أحلامُ نوم أو كظل زائل — إن اللبيب بمثلها لا يُخْدَعُ
فتزوّدنَّ ليوم فقرك دائماً — واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع[3]

ومن شعره في الموت ورثاء مرداس قوله:

إن كنت كارهة للموت فارتحلي — ثم اطلبي أهل أرضٍ لا يموتونا
فلست واجدة أرضاً بها بشر — إلّا يروحون أفواجاً ويغدونا
إلى القبور فما تنفك أربعة — بذي سرير إلى لحد يمشونا
يا حمز قد مات مرداسٌ وإخوته — وقبل موتهم مات النبيونا[4]

وقد شهد له النقّاد في الشعر بأن شعره كان يتسم بانتقاء مفرداته في غير توعر وإغراب، وبجزالة عباراته في نسق لا تعقيد فيه، ولا التواء، ولا اعتساف بتقديم وتأخير، وكان يبتعد عن الخيال وما يجره من تهويل وتضخيم[5]، ومما يذكر في سيرة عمران بن حطان أن الحجّاج ظل يطارده ويطلبه طويلاً حتى ظفر به، فقال للحرس: اضرب عنق ابن الفاعلة، فقال عمران: بئس ما أدبك به أهلك يا حجّاج، أبعد الموت منزلة أمانعك عليها على ما كان منك أن ألقاك بمثل ما لقيتني به؟ فقال الحجّاج: صدق، أطلقوا عنه، فلما انطلق إلى الخوارج قالوا له: ارجع إلى قتال الحجاج، فوالله ما هو أطلقك، الله الذي أطلقك، فقال: هيهات، غلَّ يداً مطلقها واسترق رقبة معتقها ثم قال:

أأقاتل الحجّاج عن سلطانه — بيد تقر بأنها مولاته
ماذا أقول إذا وقفت حياله — في الصف واحتجت له فعلاته
وتحدث الأقوام أن صنيعه — غرست لدي فحنظلت نخلاته

---

(١)، (٢) تاريخ دمشق (٤٦/ ٣٣٦).
(٣) المصدر نفسه (٤٦/ ٣٣٩).
(٤) المصدر نفسه (٤٦/ ٣٤٠).
(٥) أدب السياسة في العصر الأموي، ص (٥٢٨، ٥٢٩).

تالله لو جئت الأمير بآلة وجوارحي وسلاحي آلاته[١]

هذا وقد توفي عمران بن حطان سنة ٨٤هـ[٢].

٢ ـ أسباب فشل الخوارج في عهد عبد الملك:

فشلت ثورات الخوارج في تحقيق الهدف الذي كانت تسعى إليه لأسباب منها:

أ ـ أن الخوارج كانوا يخرجون في أعداد قليلة وفي أوقات متباعدة مما سهل على ولاة الدولة الأموية القضاء عليهم.

ب ـ طغيان مذهب التشيع على أهل الكوفة ومناقضة ذلك المذهب لمبدأ الخوارج، وكره أهل الكوفة والشيعة عامة للخوارج لخروجهم على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وتكفيرهم إياه فساعد هؤلاء ولاة الدولة في غالب الأحيان على قتال الخوارج.

جـ ـ موقف أهل البصرة واندفاعهم إلى مقاومة الخوارج والقضاء عليهم ليحافظوا على تجارتهم واستمرارها.

د ـ تفرق الخوارج إلى فرق متعددة مما أدى إلى إضعافهم وتفتيت وحدتهم، فسهّل على ولاة الدولة القضاء عليهم.

هـ ـ الأعمال التخريبية التي كانوا يحدثونها من قتل النساء والأطفال وقتل مخالفيهم وإحراق القرى وكسر الخراج وقطع طرق التجارة مما أدى إلى كرههم من جانب الناس عامة، فاندفعوا إلى مساعدة ولاة الدولة في القضاء عليهم.

هذه هي أهم الأسباب التي جعلت الخوارج يفشلون في التخلص من الحكم الأموي، وتطبيق أفكارهم ومعتقداتهم التي يؤمنون بها[٣].

---

(١) الحجّاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه ص (٣٧٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٢١٦).

(٣) العراق في العصر الأموي، ثابت الراوي، ص (٢٤٣، ٢٤٤).

المبحث الثاني

ثورة عبد الرحمن بن الأشعث

هذه واحدة من الثورات العديدة التي قام بها أهل العراق ضد الدولة الأموية، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبي، كما هو الحال بالنسبة لثورات الخوارج والشيعة، بل دفعت إليها الكراهية المتبادلة بين قائدها وبين والي العراق الحجّاج بن يوسف.

وقائد هذه الثورة هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي[١]، وقد بدأت هذه الثورة العارمة من إقليم سجستان، ذلك الإقليم الذي أتعب الأمويين، وكان كثير الانتقاض والتمرد عليهم[٢]، فلما كانت ولاية الحجّاج بن يوسف على العراق (٧٥هـ - ٩٥هـ) صبر على مضض على تجاوزات رتبيل ملك سجستان ضد الدولة، واستغلاله الظروف الصعبة التي كانت تمر بها، ومنعه الجزية.

فلما انتهت مشاكل العراق الخطيرة، وكسرت شوكة الخوارج سنة ٧٨هـ قرر أن يؤدب رتبيل[٣]، فأرسل الحجّاج إليه جيشاً بقيادة عبيد اللّه بن أبي بكرة سنة ٧٩هـ، وأمره الحجّاج أن يتوغل في بلاد رتبيل وأن يدك حصونهم وقلاعهم، ففعل ما أمر به الحجّاج، وتمكن من هزيمة رتبيل، واجتياح بلاده، وغنم غنائم كثيرة، ولكن رتبيل أخذ في التقهقر فأطمع المسلمين في اللحاق به حتى وصلوا قريباً من مدينته العظمى، عند ذلك بدأ الترك يغلقون على المسلمين الطرق والشعاب وحصروهم وقتل عامة جيش المسلمين[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٣).
(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٥٠٧).
(٣) تاريخ الطبري (٧/ ٢١٨).
(٤) المصدر نفسه (٧/ ٢١٩)، تاريخ خليفة، ص (٢٧٧).

أولاً

إعداد وإرسال جيش الطواويس
إلى سجستان بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث

أراد الحجّاج تأديب رتبيل وعقابه، فاستأذن عبد الملك بن مروان في أن يبعث جيشاً كبيراً بلغ عدده أربعين ألف مقاتل من أهل الكوفة وأهل البصرة، وأنفق عليه، ألفي ألف (مليونين) سوى أعطيات المقاتلين، وبالغ في تجهيزه بالخيول الروائع والسلاح الكامل[١]، وبلغ من فخامة الجيش أن سماه الناس جيش الطواويس[٢]، وأسند قيادته إلى عبد الرحمن بن الأشعث.

والحجّاج بإسناده قيادة هذا الجيش الكبير عدة وعدداً لابن الأشعث وهو يعلم موقفه منه، يهيئ للثورة عليه وعلى الدولة الأموية، وقد نبه الحجّاج إلى هذا الخطأ الفادح، عم ابن الأشعث ـ إسماعيل بن الأشعث ـ حيث قال له: لا تبعثه فإني أخاف خلافه، واللّه ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطان[٣]، ولكن يبدو أن الحجّاج قد خانه ذكاؤه هذه المرة، أو كان مفرطاً في ثقته بنفسه، فلم يسمع نصيحة إسماعيل ورد مستخفاً بعبد الرحمن، فقال: هو لي أهيب، وفيَّ أرغب من أن يخالف أمري، أو يخرج عن طاعتي[٤].

ومضى عبد لرحمن بهذا الجيش العظيم إلى سجستان لتأديب رتبيل، وكان ذلك في سنة ٨٠هـ، فلما بلغته الأخبار، كتب إلى عبد الرحمن يعتذر إليه مما حل بالمسلمين في بلاده، ويطلب منه الصلح ولكن عبد الرحمن لم يقبل[٥]، وأخذ يتوغل في بلاده، وهنا حاول رتبيل أن يكرر مع عبد الرحمن ما صنعه مع عبيد اللّه بن أبي بكرة، فأخذ يخلي البلاد والحصون أمامه ليوقعه في شرك، ولكن ابن الأشعث فطن ألى ذلك، وكان كما يقول الطبري: كلما حوى بلداً بعث إليه عاملاً وبعث معه أعواناً، ووضع البريد فيما بين كل بلد وبلد، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب، ووضع المسالح بكل مكان مخوف، حتى إذا جاز من أرضه أرضاً عظيمة، وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة، حبس الناس عن الدخول في أرض رتبيل، وقال: نكتفي بم أصبناه العام في بلادهم، حتى نجبيها ونعرفها،

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٢٢٤).

(٢) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٥٠٨).

(٣)، (٤) تاريخ الطبري (٧/ ٢٢٤).

(٥) المصدر نفسه (٧/ ٢٢٥).

ويجترئ المسلمون على طرقها، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها، ثم لم نزل ننتقصهم في كل طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم، وفي أقصى بلادهم وممتنع حصونهم، ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم اللّه[١].

وهذه خطة سديدة وعملية، وتدل على ذكاء وحنكة وتجربة، وقد كتب إلى الحجّاج بما حققه من فتوحات وبخطته التي اعتزم تنفيذها[٢]، ولكن الحجاج ـ ودون أن يستشير أحداً من أهل الحرب ـ رفض هذا الرأي واستهجنه، وكتب إلى ابن الأشعث ثلاثة كتب على التوالي سفه فيها رأي ابن الأشعث، وهدده فيها العزل إن لم يفعل ما يأمره به، ورماه فيها ببعض الأوصاف المقذعة[٣].

ثانياً

تمرد عبد الرحمن بن الأشعث بجيشه على الحجاج

وبرفض الحجّاج رأى ابن الأشعث، وبأسلوبه القاسي، وتعامله السيء، أذكى نار الفتنة وعجل بأسباب الثورة عليه، وقد أعماه فرط ثقته بنفسه، واحتقاره لغيره عما ستؤدي إليه تلك التصرفات الهوجاء من عواقب خطيرة، وأثارت مكاتبات الحجّاج حفيظة عبد الرحمن بن الأشعث وحركت ما في نفسه من كره للحجّاج.

فجمع الناس وخطبهم مبيناً لهم نصحه لهم ومعرضاً برأي الحجّاج، وطلب منهم الرأي، فثار إليه الناس فقالوا: بل نأبى على عدو اللّه، ولا نسمع له، ولا نطيع[٤] وانفتح الباب لكل من أراد أن يتكلم، فتكلم عامر بن واثلة الكناني ـ وكان شاعراً خطيباً ـ فكان مما قال: فإن الحجاج واللّه ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه: احمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. وبعد كلامه دعا الناس إلى خلع الحجّاج ومبايعة عبد الرحمن بن الأشعث، فبايعهم ابن الأشعث على خلع الحجّاج والقتال معه حتى ينفي اللّه الحجّاج من العراق، ولم يذكر خلع عبد الملك[٥]، ومن هنا بدأت ثورة ابن الأشعث.

وهذه الثورة وإن لم تكن لها جذور بعيدة وإن لم تسبقها خطوات إعداد كبيرة إلا أنها كانت من أخطر الثورات التي قامت على الدولة الأموية أو أخطرها، حيث هددت

(١) المصدر نفسه (٧/ ٢٢٥).
(٢) تاريخ الطبري (٧/ ٢٢٥).
(٣) المصدر نفسه (٧/ ٢٣١).
(٤)، (٥) المصدر نفسه (٧/ ٢٣٢).

كيان الخلافة بالزوال، واضطرت الخليفة إلى مساومة أصحابها بما لم يساوم به غيرهم من أصحاب الثورات السابقة[1]، وانحدر ابن الأشعث بجيشه وانضم إليه خلق كبير في طريقه إلى العراق قاصداً الحجّاج، فلما جاء الخبر الحجّاج أصيب بالهلع والذعر، فكتب إلى عبد الملك يخبره بالأمر ويطلب منه المدد، فتوالت الكتب بينه وبين عبد الملك وتوالى إرسال الجيوش من عبد الملك في كل يوم إلى الحجّاج[2].

١ ـ موقف المهلب بن أبي صفرة من الأحداث:

كان المهلب بن أبي صفرة قد نهى ابن الأشعث عن فعلته قائلاً: إنك وضعت رجلك يا ابن محمد في غرز طويل الغي على أمة محمد ﷺ، اللّه اللّه فانظر لنفسك لا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها. فإن قلت: أخاف الناس على نفسي فاللّه أحق أن تخافه عليها من الناس، فلا تعرضها للّه في سفك دم، ولا استحلال محرم.

وكتب المهلب كذلك إلى الحجّاج بما يجب عليه أن يفعله في مواجهة ابن الأشعث حيث قال: فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علٍ، وليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره، وإن لأهل العراق شرة في أول مخرجهم، وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم، ويشموا أولادهم، ثم وافقهم عندها، فإن اللّه ناصرك عليهم إن شاء اللّه[3].

ولكن لم يعر ابن الأشعث نصح المهلب أدنى اهتمام، فتقدم نحو العراق، وفي وسط الطريق أقدم ابن الأشعث ومن معه على خطوة خطيرة وهي خلع الخليفة عبد الملك بن مروان والسعي إلى تنحيته[4]، كما أن الحجّاج نظر إلى نصح المهلب من منظوره المتشكك فيمن حوله، فعده غشاً من المهلب، فقد قال عندما قرأ كتابه: فعل اللّه به وفعل، واللّه ما لي نظر، ولكن لابن عمه نصح[5].

٢ ـ معركة الزاوية[6]:

قرر الحجاج مواجهة ابن الأشعث، ومن معه قبل دخولهم العراق، فأرسل

---

(١) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (٥٤٧).
(٢) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (٥٤٧).
(٣) تاريخ الطبري (٧/ ٢٣٥). (٤) المصدر نفسه (٧/ ٢٣٤).
(٥) المصدر نفسه (٧/ ٢٣٥).
(٦) الزاوية: لفظ يطلق على عدة أماكن، والمراد به هنا موضع قرب البصرة، معجم البلدان (٣/ ١٢٨).

الكتائب تلو الكتائب، ولكن لم تستطع إيقاف زحف ابن الأشعث فهزمها، وتقدم حتى دخل البصرة بعد أن خرج منها الحجّاج فاراً بنفسه، ومن معه من أهل الشام، ونزل بالزاوية، عند ذلك أيقن الحجّاج بصدق المهلب في نصحه له فقال: لله أبوه، أي صاحب حرب هو! أشار علينا بالرأي فلم نقبل[١].

وانضم إلى ابن الأشعث جموع كثيرة من أهل البصرة، والتقى ابن الأشعث بالحجّاج في الزاوية، وتوالت الهزائم بجيش الحجّاج، إلا أنه سنحت فرصة لفرقة من فرق الحجّاج حيث تمكنت من إلحاق الهزيمة بإحدى فرق ابن الأشعث، فاستغل الحجّاج الفرصة وكثف الهجوم على خصمه، فاضطر ابن الأشعث إلى التراجع وسار نحو الكوفة تاركاً البصرة، فبايعه أهل الكوفة ولحق به أهل البصرة، وانضم إليه أهل المسالح والثغور[٢]، وبلغ عدد من معه مائة ألف ممن يأخذ العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم[٣]، وقد دفعت المواليَ أسباب كثيرة للاشتراك في ثورة ابن الأشعث، منها:

أ ـ السياسة المالية التي اتبعها الحجّاج نحوهم وإجبارهم على دفع الجزية بعد إسلامهم.

ب ـ حرمانهم من الأعطيات والأرزاق عند اشتراكهم في الفتوح.

جـ ـ حرمانهم من المساواة وشعورهم بالظلم من ممارسة بعض ولاة الدولة الأموية[٤]، وغير ذلك من الأسباب.

اغتم عبد الملك لما حدث، ولما وصله الخبر نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية، ودعاه فأقرأه الكتاب، ورأى ما به من الجزع، فقال: يا أمير المؤمنين، إن كان هذا الحدث من قبل سجستان، فلا تخفه، وإن كان من قبل خراسان تخوفته، وخرج عبد الملك إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن أهل العراق طال عليهم عمري فاستعجلوا قدري، اللّهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك[٥]. ثم نزل.

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٢٣٧).
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي، ص (٩).
(٣) تاريخ الطبري، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٤٩).
(٤) العراق في العصر الأموي، ثابت الراوي، ص (٢٤٥).
(٥) تاريخ الطبري (٧/ ٢٣٦).

٣ ـ استعداد عبد الملك أن يضحي بالحجّاج ومعركة دير الجماجم:

لما رأى أهل الشام وبنو أمية قوة ابن الأشعث أشاروا على عبد الملك بعزل الحجّاج، وقالوا: إن كان إنما يرضي أهل العراق أن تنزع عنهم الحجّاج فانزعه عنهم، تخلص لك طاعتهم، فإن عزلك له أيسر من حربهم، فبعث عبد الملك ابنه عبد اللّه وأخاه محمد بن مروان بالجيش إلى العراق، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجّاج عنهم، وأن يجري عليهم العطاء، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد شاء من العراق ويكون والياً، فإن قبلوا ذلك نزعنا عنهم الحجّاج ويكون محمد بن مروان مكانه على العراق، وإن أبوا فالحجّاج أمير الجميع وولي القتال[١].

ولم يكن أمر أشق على الحجّاج ولا أغيظ له ولا أوجع لقلبه من هذا الأمر، وكان من الطبيعي أن يستاء الحجّاج من هذا، وعزّ عليه أن يضحي به عبد الملك بن مروان، بعد كل ما قدمه له من خدمات[٢]، وكتب إليه يذكره بما حدث من أهل العراق مع عثمان بن عفان رضي اللّه عنه، قال له: يا أمير المؤمنين، واللّه لئن أعطيت أهل العراق نزعي لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على عثمان بن عفان، فلما سألهم ما يريدون قالوا: نزع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه، إن الحديد بالحديد يفل، خار اللّه لك فيما رأيت والسلام عليك[٣].

غير أن عبد الملك كان مقتنعاً بالفكرة، وأن مصلحة الدولة عنده فوق كل اعتبار ورأى في ذلك منع الحرب[٤]. ولكن من حسن حظ الحجّاج أنه لما عرضت الفكرة على أهل العراق رفضوها بقوة، مع أن ابن الأشعث قبلها، وحثهم على قبولها، لكنهم لم يوافقوه، بل جددوا خلع عبد الملك، وظنوا الفرصة قد واتتهم للتخلص من الحكم الأموي[٥]، وكان الأولى بابن الأشعث أن لا ينساق لما تطلبه الجماهير، فقد ضاعت فرصة كبيرة في التخلص من الحجّاج، وكان يمكنهم رفع سقف المطالب والضغط على عبد الملك حتى يستجيب لرفع المظالم، وإقامة العدل، والتقيد بالكتاب والسنة، وإن انحرف عن شروطهم أمكنهم بعد ذلك عزله.

---

(١) المصدر نفسه (٧/ ٢٤٥).
(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٥١٥).
(٣) تاريخ الطبري (٧/ ٢٤٥).
(٤) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٥١٥).
(٥) تاريخ الطبري (٧/ ٢٤٦).

ولكن يبدو أن الحس السياسي لدى زعماء ثورة ابن الأشعث كان غائباً، كما أن مبايعة أهل العراق لابن الأشعث جاءت في لحظات عاطفية ثورية ولم تكن نتيجة لمعرفة تامة به، وهل يستحق عن جدارة أن يكون أميرهم[(١)]؟. رفض ابن الأشعث تنازل عبد الملك في خلع الحجّاج وغيرها، فعندها سلم محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك قيادة الجيوش الأموية للحجّاج وقالا: شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك، فإنا قد أمرنا أن نسمع ونطيع لك[(٢)].

وبدأ الفريقان يستعدان للقتال، فاشتبكا في أشهر وقائعهم ـ التي زادت عن ثمانين موقعة ـ في دير الجماجم[(٣)]، والتي استمرت مائة يوم حتى حلت الهزيمة بابن الأشعث في الرابع من جمادى الآخرة سنة ٨٣هـ[(٤)]، ثم دارت معركة أخرى بعدها في مسكن في شعبان من نفس السنة، فهزم ابن الأشعث أيضاً، ثم ولى هارباً إلى سجستان[(٥)]، حيث كان تصالح مع رتبيل على أن يسقط عنه الخراج إن ظفر، وإن هزم يأوي إليه ويحميه[(٦)].

ولكن الحجّاج هدد رتبيل إن لم يسلم إليه ابن الأشعث ليغزون بلاده بألف ألف مقاتل[(٧)]، فرضخ للتهديد وعزم على تسليمه إليه، فلما أحسّ ابن الأشعث بغدر رتبيل ألقى بنفسه من فوق القصر الذي كان فيه، فمات، فأخذ رأسه وأرسله إلى الحجّاج وكان ذلك سنة ٨٥هـ[(٨)].

وهكذا انتهت حياة ابن الأشعث الذي قاد أخطر ثورة ضد عبد الملك بن مروان، أريقت فيها دماء عشرات الألوف من المسلمين، وهي ثورة دفعت إليها الأحقاد الشخصية المتأصلة في نفس ابن الأشعث والحجّاج كل منهما للآخر من ناحية، وبغض أهل العراق للحكم الأموي من ناحية ثانية[(٩)]، ومظالم الحجّاج العظيمة التي دفعت بجمهور كبير من العلماء للانضمام للثورة والتخلص من الطاغية الحجّاج.

---

(١) حركة النفس الزكية، ص (٣٨).
(٢) تاريخ الطبري (٧/ ٢٤٦).
(٣) تقع دير الجماجم على سبعة فراسخ من الكوفة من طريق البصرة.
(٤) تاريخ الطبري (٧/ ٢٥٤).
(٥) المصدر نفسه (٧/ ٢٨٧).
(٦) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٥١)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٤).
(٧) تاريخ الطبري (٧/ ٢٨٧). (٨) المصدر نفسه (٧/ ٢٨٩).
(٩) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٥١٦).

ثالثاً

موقف العلماء من ثورة ابن الأشعث

يختلف موقف العلماء من حركة ابن الأشعث اختلافاً كثيراً عن موقفهم تجاه الحركات الأخرى ضد الدولة الأموية، إذ شارك جمهور غفير من العلماء في حركة ابن الأشعث هذه، سواء بتحريض الناس على المشاركة فيها، أو بمشاركتهم المباشرة في القتال مع ابن الأشعث ضد الحجّاج، وقد استفاضت المصادر المتقدمة في ذكر تأييد العلماء ومشاركتهم في هذه الحركة، كما اجتمعت على كثرة عدد العلماء المشاركين، ولكن على اختلاف بينهم في تقدير هذا العدد.

فيذكر خليفة بن خياط، أن عددهم بلغ خمسمائة عالم، وعد منهم خمسة وعشرين عالماً[١]، ولعل من أسباب كثرة تلك الأعداد المذكورة إدخال غير العلماء فيها من أهل العبادة والصلاح، وإن لم يشتهر عنهم العلم، حيث تردد إطلاق اسم القراء على هؤلاء المشاركين، ولعله يشمل العلماء وأهل الصلاح والزهادة والمشهورين بكثرة التعبد[٢].

١ ـ من أشهر العلماء المشاركين في حركة ابن الأشعث:

وبتتبع كثير من المصادر أمكن حصر العديد من أسماء العلماء المشاركين في تلك الحركة منهم:

أ ـ **أنس بن مالك، رضي الله عنه**: العالم الجليل والصحابي الكريم، فقد كان ممن يؤلب على الحجّاج، ويدعو إلى الانضمام إلى ابن الأشعث، ولكنه لم يشارك مشاركة فعالة في القتال لكبر سنه[٣].

ب ـ **وأبو الشعثاء سليم بن أسود المحاربي**: فقد شارك مع ابن الأشعث، وقيل: قُتل يوم الزاوية[٤].

جـ ـ **وعبد الرحمن بن أبي ليلى**، كان من كبار المشاركين في تلك الحركة المحرضين على القتال فيها، وتوفي بوقعة الجماجم حيث اقتحم به فرسه الفرات فغرق ـ رحمه الله ـ[٥].

---

(١) تاريخ خليفة، ص (٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (٥٥٢).

(٣) أنس بن مالك، طهماز، ص (١٦٠ ـ ١٦١).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٧٩).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٤، ٢٦٧)، الطبقات (٦/ ١١٣).

د ـ الإمام الشعبي: ولكن في مشاركته شيء من الإكراه إذ لم يكن في بداية الأمر على قناعة بالمشاركة، حيث روي عنه أنه قال: فلم أزل عنده ـ أي الحجّاج ـ بأحسن منزلة حتى كان شأن ابن الأشعث، فأتاني أهل الكوفة، فقالوا: يا أبا عمرو، إنك زعيم القراء، فلم يزالوا حتى خرجت معهم[١].

هـ ـ سعيد بن جبير، ممن شارك مع ابن الأشعث، وكان يحضض على القتال، ونجا من القتل وتوارى عن الحجّاج مدة، ولكن تمكن منه عندما قبض عليه والي مكة وأرسله إليه فقتله الحجّاج سنة أربع وتسعين[٢].

وغير ذلك من العلماء وهذا يدل على أن حركة ابن الأشعث لقيت من الدعم والمشاركة من العلماء ما لم تلقه أي حركة قامت ضد الدولة الأموية.

وقد كان لمشاركة العلماء في هذه الحركة ـ بهذا الحجم ـ أثر كبير على الحركة، فقد كانت مشاركتهم وراء انضمام كثير من الناس لتلك الحركة، ولا سيما أن بعض الفقهاء والقراء كانوا يسعون لإقناع أكبر عدد للانضمام إلى القتال خاصة من فئة العلماء[٣]، كما كان للعلماء المشاركين أثر كبير في ميدان القتال، فكانت لهم كتيبة خاصة بهم تسمى كتيبة القراء[٤]، وكان بعض العلماء يبعثون الحماس في أتباع ابن الأشعث بما يلقونه من خطب وما يصدرونه من نداءات أثناء القتال، كان لها أثر في غرس الثقة في النفوس والثبات في مواطن اللقاء[٥]، وقد لقي الحجّاج وجيشه عنتاً ومشقة من كتيبة القراء، فقد كان أصحابها يحملون حملة صادقة على جيش الحجّاج فما يصمد لها، ويضربون الكتائب حتى يفرقوها[٦]، لذا عبأ الحجّاج لهذه الكتيبة ثلاث كتائب توقف زحفها والتقليل من خطرها عليه[٧].

٢ ـ أسباب مشاركة العلماء في ثورة ابن الأشعث:

انضم إلى حركة ابن الأشعث فئات وطوائف شتى، كل فئة مدفوعة بدافع تسعى لتحقيقه من خلال المشاركة في هذه الحركة، فهناك دوافع إقليمية، ودوافع

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٧، ٣٣٦)، الطبقات (٦/ ٢٦٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٧، ٣٣٦).
(٣) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (٥٥٧).
(٤) تاريخ الطبري نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٥٨).
(٥) الكامل في التاريخ (٢/ ١٥٤)، تاريخ الطبري (٧/ ٢٥٤، ٢٥٥).
(٦) الكامل في التاريخ (٤/ ١٥٠).
(٧) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٥٨)، الكامل في التاريخ (٣/ ١٥٤).

عرقية، وأخرى اجتماعية، ولم يكن شيء من هذه حرّك العلماء للمشاركة في هذه الفتنة، وإنما انطلقوا من دوافع دينية وشرعية بحسب ما وصل إليه اجتهادهم، وقد كان القاسم المشترك لكل هذه الدوافع شخصية الحجّاج[١] الظالمة، المتعسفة، الجائرة، والمتعطشة لسفك الدماء، ولذلك كان العلماء ينقمون على الحجّاج تعديه لبعض حدود الإسلام، وانتهاكه لبعض حرماته، وكانوا ينقمون عليه سوء معاملته وسوء نظرته للعلماء.

أ ـ **تعدي الحجّج لبعض حدود الدين وانتهاكه لحرماته**: كان الحجّاج يملك جرأة عجيبة تعدى بها إلى غير مواضعها، مما أدى إلى إحداث شرخ كبير في جانب من حياته المتعددة الجوانب؛ فأسهم بذلك في تشويه صورته وصورة الحكم الأموي، وقد حرص بعض المولعين بشخصية الحجّاج إخفاء هذا الجانب المشوه من حياته، والدراسة الواعية المنصفة تأبى هذا المنهج.

وما من شك في أنه ورد الكثير من المبالغات عن انتهاكات الحجاج لحرمات الدين، وكثير منها لا يصح، ودخل الدس من أعداء الحجّاج وبني أمية في صياغة كثير من هذه المبالغات، لذا فقد استبعدت[٢] النقل والاعتماد في هذا الأمر على الكتب التي اشتهر عن أصحابها التهاون في إيراد الروايات دون تمحيص، ولا سيما كتب الأدب، كالعقد الفريد لابن عبد ربه، والأغاني للأصفهاني، أو كتب الفرق المغالية في عداوتها لبني أمية كالشيعة، وحاولت[٣] النقل والاعتماد على كتب السنة المشهورة بحفظ الأحاديث النبوية الشريفة، وما يخدمها من روايات، وكذلك على الكتب المعتبرة التي اشتهر عن أصحابها التحري والدقة كالذهبي في سيره وتاريخه[٤].

ويأتي في مقدمة تجاوزات الحجّاج الشرعية إسرافه في القتل وأمره به بأدنى شبهة، حيث كان الحجّاج يرى وجوب الطاعة العمياء من الرعية له، وأن مخالفة أمره ـ في أي شأن كان، صغر أم كبر ـ تبرر له القتل.

فقد روى أبو داود بسند صحيح عن عاصم قال: سمعت الحجّاج يقول: اتقوا الله ما استطعتم ليس فيها مثنوية، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا

---

(١) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٦٢).
(٢) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٦٥).
(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (٥٦٥).

من باب آخر لحلت لي دماؤهم وأموالهم، واللّه لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من اللّه حلالاً(١).

وقال ابن كثير معلقاً على بعض تجاوزات الحجّاج مما يبين سبب استهانته بالقتل: . . فإن الحجّاج كان عثمانياً أموياً، يميل إليهم ميلاً عظيماً، ويرى خلافهم كفراً، ويستحل بذلك الدماء ولا تأخذه في ذلك لومة لائم، وقال في موضع آخر: أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند اللّه عز وجل(٢)، بسبب هذا المعتقد الذي استقر في نفس الحجّاج استهان بالقتل واشتهر إسرافه فيه لمخالفة أوامره صغرت أم كبرت.

ومع ما ورد من مبالغات في الإحصاءات التي ذكرت عدد قتلى الحجّاج، فما من شك في تعديه الحدود المشروعة في القتل، ويؤيد ذلك ما صح عن المصطفى ﷺ بروايات متعددة تصف الحجّاج بأنه مبير، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي اللّه عنهما قالت للحجّاج بعد قتله لابنها عبد اللّه بن الزبير رضي اللّه عنه: أما إن رسول اللّه ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأما الكذاب فرأيناه وأما المبير فلا أخالك إلا إياه(٣).

وقد أنكر العلماء على الحجّاج هذا الإسراف في القتل، فروي عن الإمام عبد الرحمن بن أبي أنعم أنه قال للحجّاج: لا تسرف في القتل إنه كان منصوراً، فقال الحجّاج: واللّه لقد هممت أن أروي الأرض من دمك. فقال: إن من في بطنها أكثر ممن في ظهرها(٤)، وكان جواب سعيد بن جبير للحجّاج عندما سأله عن رأيه فيه فقال: نعم ظهر منك جور في حد اللّه، وجرأة على معاصيه بقتلك أولياء اللّه(٥).

ـ ومن التجاوزات التي كان العلماء ينكرونها على الحجّاج تأخيره للصلاة عن وقتها:
وتأخير الصلاة عن وقتها ليس خاصاً بالحجّاج بل كانت عادة بعض خلفاء بني أمية وسار ولاتهم على نهجهم ولكن الذي يؤخذ على الحجّاج مع تأخيره الصلاة عدم قبوله تنبيه أحد من العلماء أو إبداء النصح منهم له في ذلك، وهذا مأخذ آخر أخذه

---

(١) سنن أبي داود (٤/ ٢١٠) صحيح الإسناد.
(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٥٠٧ ـ ٥٥٤).
(٣) مسلم، كتاب فضائل الصحابة (٤/ ١٩٧١).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٣)، المعرفة والتاريخ للفسوي (٢/ ٥٧٤).
(٥) صفة الصفوة (٣/ ٤٥).

العلماء على الحجّاج وهو عدم قبوله لقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١].

ومن ذلك أن الحجّاج أنكر يوماً أن يكون الحسين بن علي رضي اللّٰه عنه من ذرية رسول اللّٰه ﷺ لأنه ابن ابنته، فقال له العالم الجليل يحيى بن يعمر: كذبت. فقال الحجّاج: لتأتيني على ما قلت ببينة من كتاب اللّٰه أو لأضربن عنقك فقال: قال اللّٰه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥]. فعيسى من ذرية إبراهيم، وهو إنما ينسب إلى أمه مريم، والحسين ابن بنت رسول اللّٰه ﷺ، فقال الحجّاج: صدقت، فما حملك على تكذيبي في مجلسي، قال: ما أخذ اللّٰه على الأنبياء ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فنفاه إلى خراسان[٢].

- **ومن تجاوزات الحجّاج الشرعية تطاوله على أصحاب رسول اللّٰه ﷺ وسوء تعامله مع العلماء**: ومنها معاملته القبيحة لابن عمر، وابن الزبير والسيدة أسماء بنت الصديق رضي اللّٰه عنهم جميعاً، ومن ذلك تطاوله على عبد اللّٰه بن مسعود وهو متوفي رضي اللّٰه عنه فقد قال: واللّٰه لو أدركت عبد هذيل لضربت عنقه[٣]، وفي أخرى أنه قال: ابن مسعود رأس المنافقين، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه[٤]، وقد علق الذهبي على أقوال الحجّاج في عبد اللّٰه بن مسعود رضي اللّٰه عنه بقوله: قاتل اللّٰه الحجّاج، ما أجرأه على اللّٰه؟! كيف يقول هذا في العبد الصالح عبد اللّٰه بن مسعود[٥].

ومن تطاوله على أصحاب رسول اللّٰه ﷺ وسوء أدبه معهم ما حدث منه لكل من أنس بن مالك ـ خادم رسول اللّٰه ﷺ ـ وجابر بن عبد اللّٰه وسهل بن سعد الساعدي رضي اللّٰه عنهم، فقد ورد أنه ختم على كل واحد منهم بختمه المشهور «عتيق الحجّاج» أنس وسهل في عنقيهما وجابر في يده[٦].

أما فعله ذلك بأنس فلأنه بايع ابن الزبير وتولى له البصرة، ولأنه كان يحرص على المشاركة مع ابن الأشعث، لذا ناله ما ناله من أذى الحجّاج، ولم ينقذه من

(١) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (٥٦٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٢).
(٣) المستدرك على الصحيحين (٣/ ٦٤١)، تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٧٢).
(٤) تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٧٢).
(٥)، (٦) تهذيب الكمال (١٢/ ١٨٨)، أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٧٥).

إهانة الحجّاج إلا تدخل الخليفة عبد الملك حيث كتب كتاباً وبخ فيه الحجّاج على فعله بأنس، وأمره بعدم التعرض له[١]، وأما سهل فقد ورد أن الحجّاج أرسل إليه يقول: ما منعك من نصر أمير المؤمنين عثمان؟ قال: قد فعلت. قال: كذبت ثم أمر به فختم في عنقه[٢].

وهذه عقدة عند الحجّاج حيث كان متعصباً للأمويين أكثر من تعصبهم لأنفسهم، ففي الحين الذي نجد معاوية وعبد الملك توددوا لكثير من الرجال الذين وقفوا ضدهم مع علي أو مع ابن الزبير وعفوا عما سلف منهم واستلوا بذلك ضغائن نفوسهم، نجد الحجاج يخالف هذا المنهج السديد فيصر على محاسبة الرجال على ما سلف منهم أيام الفتن، فأوغر صدور الكثير عليه وعلى بني أمية بهذا المسلك[٣].

وأذكر مثالاً يوضح الفرق بين نظرة عبد الملك ونظرة الحجّاج للرجال وطريقة التعامل معهم، فقد كان محمد بن الحنفية ممن امتنع عن مبايعة عبد الملك أو ابن الزبير حتى يجتمع المسلمون على واحد منهما، فلما تم قتل عبد اللّه بن الزبير بعث الحجّاج على الفور لابن الحنفية يسأله البيعة ويقول: قد قتل عدو اللّه، فقال ابن الحنفية: إذا بايع الناس بايعت. قال: واللّه لأقتلنك.

ومع أن ابن الحنفية بايع لعبد الملك لما رأى اجتماع كلمة المسلمين عليه، إلا أن الحجاج استمر في مضايقة ابن الحنفية، فلما قدم على عبد الملك أكرمه عبد الملك وقضى كل حوائجه، ثم اشتكى إليه سوء معاملة الحجّاج له، وكان حاضراً عند عبد الملك فقال: إن هذا ـ يعني الحجّاج ـ قد آذاني واستخف بحقي، ولو كانت خمسة دراهم أرسل إليّ فيها. فقال عبد الملك: لا إمرة لك عليه، وطلب منه أن يستل سخيمة ابن الحنفية ويترضاه[٤].

ب ـ **سوء معاملة الحجّاج ونظرته للعلماء:** وقد كان لتجاوزات الحجّاج وسوء تعامله مع أهل العلم والفضل في مكة والمدينة أثر في عزله عن الحجاز بعدما كثرت الشكوى منه عند عبد الملك، فلما تولى العراق استمر في سوء تعامله، فوجد كثير من العلماء المضايقة والشدة منه، فضرب بعض العلماء في ولايته وسجن بعضهم، ونُفي بعض آخر، وقد يظن بعض الكتاب أن هذا الضرب

---

(١) المستدرك على الصحيحين (٣/ ٦٦٤)، أثر العلماء، ص (٥٧٦).
(٢) تهذيب الكمال (١٢/ ١٨٨).
(٣) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (٥٧٧).
(٤) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٩/ ١٤٨).

والسجن بل والقتل للعلماء إنما حدث بعد فتنة ابن الأشعث فحسب فيكون تعامل الحجّاج هذا جاء ردة فعل على مشاركة العلماء في هذه الحركة، ولكن الأمر على غير هذا الظن، فقد حدثت بعض تلك المضايقات والمعاملة السيئة قبل حركة ابن الأشعث، فمعاملته لابن عمر وجابر رضي اللّه عنهما كانت قبل ذلك حيث توفيا قبل حركة ابن الأشعث[١].

وقد تعدت مضايقة الحجّاج للعلماء الذين لم يشاركوا في هذه الحركة، ومن عُرف عنهم النهي عن الخروج على الولاة ولا يرون استخدام السيف لتغيير المنكر، ومن هؤلاء الحسن البصري، فقد اشتهر عنه النهي عن حمل السيف ومقاومة ظلم الولاة به، وعندما أكره على المشاركة في القتال تخلص وهرب من الصف، ومع ذلك فقد كان الحجّاج يطلبه وحاول قتله مراراً، ولكن اللّه عصمه منه[٢]، حتى اضطر الحسن أن يتخفى عن الحجّاج في منزل بعض أصحابه وهو أبو خليفة الحجّاج بن عتاب[٣]، فكان أصحابه وطلابه يغشونه لمدارسته العلم والتلقي عنه في مكان تواريه[٤].

ومن الذين لم يشاركوا في فتنة ابن الأشعث: إبراهيم النخعي، ومع ذلك فقد عاش مدة مختفياً عن الحجّاج، والحجّاج يطلبه، حتى كان لا يصلي جماعة مدة اختفائه مخافة من الحجّاج[٥]، وكذلك شأن الإمام مجاهد بن جبر، فإنه كان ممن يطارده الخوف من ظلم الحجّاج حتى اضطر إلى التواري عنه[٦].

ومن هذا العرض السابق يتضح مدى ما وصلت إليه تجاوزات الحجّاج الشرعية وطبيعة علاقته مع العلماء وعلاقة العلماء به، والجدير بالذكر أنه لم تصل علاقة العلماء بأي والٍ من ولاة الدولة الأموية في سوئها كما وصلت إليه علاقتهم مع الحجّاج، بل كانت علاقتهم مع ولاة الدولة في عمومها حسنة يعينونهم على الحق، ويجاهدون معهم ويأمرونهم بالمعروف ويبدون لهم النصح فيسمع منهم في كثير من الأحيان[٧]. ومن كل ما سبق يتضح أنه كان للحجّاج الأثر الكبير في

---

(١) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٧٨، ٥٧٩).
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي نقلاً عن أثر العلماء، ص (٥٨٠).
(٣) كتاب المتوارين للأزدي، ص (٤٥).
(٤) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٨١).
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٢١)، أثر العلماء، ص (٥٨١).
(٦) كتاب المتوارين للأزدي، ص (٥٣).
(٧) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٨٣).

مشاركة العلماء في حركة ابن الأشعث، بل وفي قيام تلك الحركة من وجهين:

الأول: أنه بأسلوب الشدة والقسوة أضرم نيران الحقد والكراهية في قلوب مختلف الفئات من الناس في العراق ـ بمن فيهم العلماء ـ عليه وعلى بني أمية.

والوجه الآخر: أنه كان سبباً مباشراً لإعطاء ابن الأشعث الفرصة في القيام بتلك الثورة، حيث جنده بكل ما يملك من جنود وسلاح ومال، وهو يعلم ما بينهما من كره متبادل، وقد حذر من ذلك بأسلوبه المتعنت في التعامل مع ابن الأشعث وجنوده في رسائله التي تفوح بالحمق حيث ملأها بالشتائم لابن الأشعث ولم يراع مصلحة الجنود كما لم يشعرهم بأهميتهم لديه، بل العكس في ذلك كأنما أراد بتصرفه معهم التخلص من حياتهم، وهذا يمثل ما وصل إليه غرور الحجّاج بنفسه[١].

٣ ـ معارضة بعض العلماء لثورة ابن الأشعث:

كان هناك عدد من العلماء عارضوها أو اعتزلوها، ولم يروا المشاركة فيها، ومن أبرز هؤلاء أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي[٢]، فهو من الذين لم يشاركوا في هذه الثورة، وأبو قلابة الجرمي، فلم يشارك وكان يعتب على غيره ممن شارك[٣]، ومنهم إبراهيم النخعي، فلم يشارك وكان يعيب على سعيد بن جبير مشاركته فيها[٤]، وقد قيل له: أين كنت يوم الزاوية؟ قال: في بيتي. قالوا: فأين كنت يوم الجماجم؟ قال: في بيتي. قالوا: فإن علقمة شهد صفين مع علي، فقال: بخ بخ من لنا مثل علي بن أبي طالب ورجاله[٥].

وممن لم يشارك في حركة ابن الأشعث أيوب السختياني، فروي عنه أنه يقول في العلماء الذين خرجوا مع ابن الأشعث: لا أعلم أحداً منهم قُتل إلا رغب له عن مصرعه، أو نجا إلا ندم على ما كان منه[٦]، ومنهم طلق بن حبيب، فكان معتزلاً الفتنة وكان يقول: اتقوها بالتقوى[٧]، ومنهم مطرف بن عبد الله الشخير فقد امتنع

---

(١) المصدر نفسه، ص (٥٨٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٨٢).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٥١٣).
(٤) الطبقات (٦/ ٢٦٦)، أثر العلماء، ص (٥٥٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٢٦).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥١٣).
(٧) المصدر نفسه (٤/ ٦٠١)، الحلية (٣/ ٦٤).

عن المشاركة في هذه الفتنة، وحين جاءه ناس يدعونه للمشاركة امتنع، فلما أكثروا عليه قال: أرأيتم هذا الذي تدعوني إليه، هل يزيد على أن يكون جهاداً في سبيل الله؟ قالوا: لا. قال: فإني لا أخاطر بين هلكة أقع فيها وبين فضل أصيبه[١]، ومنهم مجاهد بن جبر، فإنه لم يشارك وحين دعي للمشاركة. قال لمن دعاه: عده باباً من أبواب الخير تخلفت عنه[٢]، ومنهم خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي ومحمد بن سيرين، فقد ورد ذكرهما مع الذين لم يشاركوا في فتنة ابن الأشعث[٣].

٤ ـ موقف الحسن البصري من ثورة ابن الأشعث:

يعد الحسن البصري واحداً من أولئك العلماء الذين اعتزلوا القرب من الولاة والأمراء، وابتعدوا عن المناصب ورغبوا عن وجاهتها، فقد كان ينهى العلماء عن طرق أبواب الأمراء والتزلف لهم، لأن في ذلك إهانة للعلم وحطّاً من قدر العلماء ومكانتهم[٤]، وبقي الحسن معتزلاً القرب من الولاة بعيداً عن تولي مناصبهم حتى توفي ـ رحمه الله ـ.

إلا أن ذلك لم يكن سبباً في انزوائه عما يجري في عصره من أحداث سياسية، بل كان علماً بارزاً يهتدي كثير من الناس بتوجيهاته المفيدة وآرائه السديدة، لا سيما في أوقات الفتن وفترات الخلاف، لذا قال في الثقات: كان ـ والله ـ الحسن من رؤوس العلماء في الفتن والدماء والفروج[٥]، وكان ينحى في نصحه للعامة إلى جمع الكلمة وتوحيد الصف، وينهى عن الإثارة والفرقة، ويدعو إلى السمع والطاعة للولاة، وكان يرى وجوب الموازنة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووحدة الجماعة.

ولقد عاصر الحسن البصري معظم فترات الحكم الأموي، وتأثر بالواقع السياسي في هذه الفترة، فأصبح يمثل مدرسة سياسية في عصره، فهو يرى أن حكم بني أمية فيه ظلم وجور، ولكنهم في نفس الوقت يملكون القوة العسكرية، وموازين القوى في صالحهم، كما أن الفئة الراغبة في التغيير والشاكية من الظلم، ينقصها التنظيم والإعداد والقوة والصبر، ويرى أن الذين يحملون راية الخروج على حكم

---

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي (١/ ٧١١)، أثر العلماء، ص (٥٦٠).

(٢) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٦١).

(٣) المصدر نفسه، ص (٥٦١).

(٤) المصدر نفسه، ص (٣٣٨).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٥) وفيه زيادة لفظة الفروج، والمقصود بها الثغور.

بني أمية إما مخلص لدينه، ولكنه لا يصلح للحكم ولا يقدر على إحداث التغيير، وإما رجال يستخدمون الدين والدعوة للتغيير لأغراض دنيوية، منها حبهم للسلطة والحكم، فليسوا بأحسن حالاً من الأمويين[١]، وعلى ذلك أصبح موقفه من الحكم الأموي يقوم على أمور منها:

أ ـ عدم الخروج على حكم بني أمية: لما في ذلك من سفك الدماء، وتقويض لقوة المسلمين، وازدياد الجور والظلم[٢]، فقد دخل عليه رجل فقال: يا أبا سعيد إني أريد أن أسألك عن الولاة، فقال الحسن: سل عمّا بدا لك. فقال: ما تقول في أئمتنا هؤلاء؟ فسكت الحسن ملياً ثم قال: وما عسى أن أقول فيهم وهم يلونا من أمورنا خمساً: الجمعة والجماعة، والفيء والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وإن ظلموا، والله ما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، والله إن طاعتهم لغبطة، وإن فرقتهم لكفر.

فقال الرجل: يا أبا سعيد والله إني لذو مال كثير، وما يسرني أن يكون لي أمثاله وإني لم أسمع منك الذي سمعت، فجزاك الله عن الدين وأهله خيراً.

وحين سئل عن الحجّاج قال: يتلو كتاب الله، ويعظ وعظ الأبرار، ويطعم الطعام، ويؤثر الصدق، ويبطش بطش الجبارين. قالوا: فما ترى في القيام عليه؟ فقال: اتقوا الله، وتوبوا إليه يكفكم جوره[٣].

وكان إذا قيل له: لا تخرج فتغير؟ قال: إن الله إنما يغير بالتوبة ولا يغير بالسيف[٤]. وكان يرى أن جور الحكام بسبب ما يحدثه الناس من ذنوب ومعاصٍ، وأن من أهم أسباب دفع الجور والظلم هو الرجوع إلى الله، وكان يحث الناس على تجنب الفتن والبعد عن أسباب إشعالها، وحين بلغ السخط على الحجّاج أوجه وثار عليه الناس مع ابن الأشعث، وكان في جملتهم عدد من العلماء لزم الحسن موقفه من الفتن، فلم يخرج مع من خرج بل كان يكره ذلك وينهى الناس عنه.

وكان أخوه سعيد ممن يرى الخروج على الحجّاج ويدعو له، فعن حماد بن زيد بن أبي التياح قال: شهدت الحسن وسعيد بن أبي الحسن[٥] حين أقبل ابن

---

(١) موسوعة فقه الحسن البصري، قلعجي (١/ ١١).
(٢) الفقهاء والخلفاء، ص (٧٨، ٧٩).
(٣) آداب الشيخ الحسن البصري لابن الجوزي، ص (١٢٠، ١٢١).
(٤) الطبقات الكبرى (٧/ ١٧٢).
(٥) هو أخو الحسن البصري.

الأشعث، فكان الحسن ينهى عن الخروج على الحجّاج ويأمر بالكف، وكان سعيد بن أبي الحسن يحضض، فقال سعيد فيما يقول: ما ظنك بأهل الشام إذا لقيناهم غداً فقلنا: واللّه ما خلعنا أمير المؤمنين ولا نريد خلعه، ولكنا نقمنا عليه استعمال الحجّاج فاعزله عنا؟

فلما فرغ سعيد من كلامه تكلم الحسن فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنه ـ واللّه ـ ما سلط اللّه عليكم الحجّاج إلا عقوبة، فلا تعارضوا عقوبة اللّه بالسيف ولكن عليكم السكينة والتضرع، وأما ما ذكرت من ظني بأهل الشام فإن ظني بهم أن لو جاءوا فألقمهم الحجّاج دنياه لم يحملهم على أمر إلا ركبوه، هذا ظني بهم[(١)].

وقدم عليه جماعة من العلماء يناقشونه في الخروج مع ابن الأشعث على الحجّاج، ويحاولون إقناعه بالخروج، ولكنه رفض الخروج وقال: أرى أن لا تقاتلوه، فإنها إن تكن عقوبة من اللّه فما أنتم برادي عقوبة اللّه بأسيافكم، ولكنهم لم يسمعوا كلامه ولم يأخذوا برأيه، فخرجوا مع ابن الأشعث فقتلوا جميعاً[(٢)].

وعندما أفتى رجلاً بعدم جواز الخروج على الحجّاج قال له الرجل: لقد كنت أعرفك سيئ القول في الحجّاج غير راضٍ عن سيرته، فقال الحسن: وأيم اللّه إني اليوم لأسوأ فيه رأياً، وأكثر عتباً، وأشد ذماً ولكن لتعلم ـ عفاك اللّه ـ أن جور الملوك نقمة من نقم اللّه تعالى، ونقم اللّه لا تلاقى بالسيوف، وإنما تتقى وتستدفع بالدعاء والتوبة والإنابة والإقلاع عن الذنوب[(٣)].

ولما تُوفي الحجّاج وجاء خبر وفاته سجد الحسن وقال: اللّهم عقيرك وأنت قتلته فاقطع عنا سنته وأرحنا من سنته وأعماله الخبيثة[(٤)]، وكان يوضح للناس حقيقة ما يعيشه بعض الولاة من تقلبه في عيش الفتنة بزخرف الحياة الفانية حتى لا يغتر بهم الناس، فكان يقول: هؤلاء ـ يعني الملوك ـ وإن رقصت بهم الهماليج[(٥)]، ووطئ الناس أعقابهم، فإن ذل المعصية في قلوبهم، إلا أن الحق ألزمنا طاعتهم، ومنعنا

(١) الطبقات الكبرى (٧/ ١٦٤).
(٢) المصدر نفسه (٧/ ١٦٤).
(٣) آداب الحسن البصري لابن الحوزي، ص (١١٨).
(٤) حلية الأولياء (٢/ ١٥٩).
(٥) الهماليج: من البراذين. الكلمة فارسية معربة.

الخروج عليهم، وأمرنا أن نستدفع بالتوبة والدعاء مضرتهم، فمن أراد به خيراً لزم ذلك وعمل به، ولم يخالفه[(١)].

وكان ينهى العامة عن القتال وحمل السلاح حين تقبل الفتن، فعن سلم بن أبي الذيال قال: سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام فقال: يا أبا سعيد ما تقول في الفتن مثل: يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ فغضب ثم قال بيده فخطر بها، ثم قال: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد، نعم ولا مع أمير المؤمنين[(٢)]، فكان يرى أنه يجب على المسلم الاعتزال وعدم المشاركة في سفك دماء المسلمين، فلا يقاتل في صفوف الخارجين على السلطة، ولا مع جيش الخليفة، إذا كان ظالماً[(٣)].

ب ـ **وبالرغم من قوله بعدم الخروج على حكم بني أمية،** إلا أنه كان يرى وجوب الإنكار عليهم لظلمهم، واستئثارهم بالأموال، وتوليتهم الولاة الظلمة، كأمثال الحجّاج، وكان شديد الانتقاد للحكم الأموي، وخاصة سياسات الحجّاج في العراق، وكان يواجه الحجّاج بانتقاداته غير خائف من بطشه[(٤)].

وعن ميمون بن مهران قال: بعث الحجّاج إلى الحسن وقد همّ به، فلما قام بين يديه قال: يا حجّاج، كم بينك وبين آدم من أب؟ قال: كثير، قال: فأين هم؟ قال: ماتوا. قال: فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن، وقال أيوب السختياني: إن الحجّاج أراد قتل الحسن مراراً فعصمه الله منه[(٥)].

وكان يحذِّر العلماء من مخالطة السلاطين والحكام لكي لا يوهموا المسملين برضاهم عن حكمهم، ولكي يشعروا الحكام بعدم رضاهم عن سياساتهم الجائرة، وكان يرى أن في مخالطة العالم والمفتي للحاكم إذلالاً لمكانته العلمية، والاجتماعية، وكان يقول لبعض لفقهاء ممن كانوا يخالطون الأمراء: والله لو أنكم زهدتم فيما عنده لرغبوا فيما عندكم وهابوكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيكم[(٦)]، ومع حرصه الشديد على عدم مخالطة الأمراء والحكام إلا أنه تولى القضاء

---

(١) آداب الحسن البصري، ص (١٢١).
(٢) الطبقات (٧/ ١٦٤).
(٣) الفقهاء والخلفاء، ص (٧٩).
(٤) موسوعة فقه الحسن البصري (١/ ١٣).
(٥) البداية والنهاية (١٢/ ٥٤٣، ٥٤٤).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٦).

في البصرة في عهد عمر بن عبد العزيز[١]، نظراً لعدل وحسن سيرة عمر بن عبد العزيز[٢].

إن منهج الحسن في التعامل مع الحكام منهج وسط معتدل، فهو مع نهيه عن الخروج على الولاة وكرهه للمواجهة معهم لما يترتب على ذلك من مفاسد عظيمة من سفك الدماء، وتفريق الأمة، وتعطيل الجهاد.. إلخ. إلا أن ذلك لا يفهم منه تبريره لأخطاء الولاة أو عدم إنكارها، بل كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

٥ ـ أسباب فشل ثورة ابن الأشعث:

أ ـ **عدم تمكن العلماء من السيطرة على مسار تلك الحركة:** وذلك حين تطور الأمر وخلع الثائرون الخليفة عبد الملك بن مروان، فلم يتمكن العلماء من إقناع الناس بالحفاظ على الهدف الذي قامت الثورة لأجله، وهو خلع الحجّاج، بل ربما جر بعض العلماء إلى القناعة بهذا المسار الجديد، وتأكد فشل العلماء في عدم محافظتهم على الهدف الرئيس للحركة، وذلك حينما عرض عبد الملك على الثائرين عزل الحجّاج، ولكن الزهو والعجب بما تحقق من انتصارات أدى إلى رفض ذلك العرض من الخليفة، ولم يتمكن العلماء من إقناع الثائرين بقبوله.

ب ـ **تحكّم أصحاب الدوافع الإقليمية والمذهبية في مسارها:** استطاع أصحاب الدوافع الإقليمية والميول المذهبية أن يسيروا بالحركة نحو التخلص من بني أمية.

جـ ـ **عدم امتلاك الثورة لرؤية كاملة:** فقد أصبح العلماء يسيرون في طريق غير واضح المعالم، سوى تحقيق الانتصار على جيوش الأمويين، ولكن ماذا بعد؟ هل بالإمكان تغيير الخليفة بالانتصار على جيوش الأمويين في العراق، وهل يستسلم الشام بهذه السهولة، أو تقر الأقطار الإسلامية ذلك؟ وهل يكون ابن الأشعث هو الخليفة للمسلمين في حالة القضاء على عبد الملك، لقد دخلت الثورة في طريق شائك معقد بمجرد رفضها عرض الخليفة بعزل الحجّاج، واضطربت أهدافها مما أدى إلى وأدها وفشلها، وانتصار جيوش الخليفة عليها[٣].

---

(١) الفقهاء والخلفاء، ص (٨٠)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٢).

(٢) الفقهاء والخلفاء، ص (٨٠).

(٣) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٨٧).

د ـ **ذكاء الخليفة عبد الملك ودعمه المستمر بالجيوش للحجّاج**: فقد مال للصفح والمسالمة والمسامحة، ولبى طلب أهل العراق في عزل الحجّاج من أجل حقن الدماء وتوفير الجهود والحفاظ على الجبهة الداخلية الواحدة المتراصة، وكان عرضه على ابن الأشعث في عزل الحجّاج كسباً سياسياً له حيث تبلبل صف ثورة ابن الأشعث واختلفت الآراء، وكان عبد الملك في نفس الوقت قد أعدّ جيشين من أهل الشام، وسلم القيادة لأقرب الناس إليه، إلى أخيه وولده وأمرهما بالتقيد بأوامر والي العراق(١).

إن إعداد العساكر المقاتلة والقادة وتزويدهم بكل ما يحتاجون ثم تكليفهم بالمفاوضة مع ابن الأشعث، منحت الثقة لابنه وأخيه، وهزت قرارة نفوس العراقيين، وهذا من رباطة جأش الخليفة، فكأنما قد قدّم جرعة كبيرة من الحرب النفسية، الأمر الذي أدخل الرهبة في نفس المفاوض الأول حتى مالت نفس ابن الأشعث للرضوخ لولا أصحابه، كما أكسبت الثقة للجنود الشاميين فكانوا يقاتلون ببسالة، ومن هنا يظهر دور الخليفة في كبح الحجّاج حيناً، وفي إعداد الجيش حيناً آخر، فلولاه لما كان بالإمكان القضاء على هذه الانتفاضة، وبهذا القدر من الجهد، ويعود ذلك إلى السياسة المتجددة، القائمة على أصول من الفهم الكامل لخطط الخليفة البعيدة المدى، فقد كان رجل دولة من الطراز الأول يملك خطة مستقبلية لدولة قادرة على وضع أهدافها التكتيكية والاستراتيجية من أجل بناء دولة القوة والمنعة(٢) على أسس راسخة من الملك العضوض.

هـ ـ **القيادة لم تكن بيد العلماء وإنما بيد ابن الأشعث.**

و ـ **عدم وجود تنظيم قوي يتحكم في توجيه الثوار وفق الأهداف المرسومة من القادة.**

ز ـ **شخصية ابن الأشعث وطبيعة جيشه**: لم تكن شخصية ابن الأشعث تملك الصفات القيادية من بعد نظر، وثاقب فكر، وتقدير للأمور، وثبات في المواقف، فقد وقع في شباك رتبيل، وباعه للحجّاج مقابل مصالحه وتحالف مع الكفّار ضد المسلمين، ولم يستطع أن يقود جيشه كما يريد بل انقاد لعواطف ومشاعر الجنود، فأودت به إلى حتفه، كما أن جيشه لم يكن ينقصه عدد أو عدة، ولكن حماسهم خفّ بسبب طول انتظارهم، ولم تكن لهم طاعة قوية

---

(١) تجديد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك، ص (١٣٢).

(٢) تجديد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك، ص (١٣٣).

لرؤسائهم، بعكس أهل الشام الذين كانوا جنداً نظاميين بكل ما لهذه الكلمة من معان[١].

وهذه أبيات من الشعر تصوّر حزنهم واعترافهم بأنهم لم يصبروا ويدافعوا حق المدافعة عن دنياهم التي أضاعوها بتفريطهم:

أيا لهفاً ويا حزناً جميعاً ويا حر الفؤاد لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعاً وأسلمنا الحلائل والبنينا
فما كنا أناساً أهل دين فنصبر في البلاء إذا ابتلينا
وما كنا أناساً أهل دنيا فنمنعها ولو لم نرجُ دينا
تركنا دورنا لطغام عَكٍ وأنباط القرى والأشعَرينا[٢]

٦ ـ من نتائج فشل ثورة ابن الأشعث:

أ ـ ازدياد تسلط الحجّاج: ترتب على فشل نتائج ثورة ابن الأشعث نتائج خطيرة وسيئة، فقد زاد انتصار الحجّاج في النهاية على الثوار من تسلطه وتجبره، واشتد أكثر في تضييقه على العلماء، فقتل من قتل منهم، وسجن من سجن منهم، وهرب من وجهه من استطاع[٣].

ب ـ ندم الكثير من العلماء: وندم الكثير من العلماء المشاركين في ثورة ابن الأشعث، فهذا طلحة بن مصرف يقول: شهدت الجماجم، فما رميت، ولا طعنت، ولا ضربت، ولوددت أن هذه سقطت هنا ولم أكن شهدتها[٤]، وعن محمد بن طلحة قال: رآني زيد اليامي مع العلاء بن عبد الكريم ونحن نضحك فقال: لو شهدت الجماجم ما ضحكت، ولوددت أن يدي ـ أو قال: يميني ـ قطعت من العضد وأني لم أكن شهدت[٥]، كما ندم عقبة بن عبد الغافر على مشاركته في القتال كذلك، وغيرهم من العلماء.

جـ ـ انتصار رأي العلماء القائلين بعدم الخروج: علت منزلة العلماء الذين اعتزلوا تلك الفتنة ولم يشاركوا فيها، فعن ابن عون قال: كان مسلم بن يسار أرفع عند أهل البصرة من الحسن حتى خف مع ابن الأشعث وكف الحسن، فلم يزل أبو

---

(١) تاريخ خلافة بني أمية، ص (١٧٧).
(٢) تاريخ الطبري (٧/ ٢٦٦).
(٣) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٨٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٩٢).
(٥) تاريخ خليفة، ص (٢٨٧).

سعيد ـ يعني الحسن ـ في علو منها[١]، وقد أسهمت حركة ابن الأشعث ـ بنهايتها بتلك الصورة ـ في إقناع كثير ممن كان يرى استخدام القوة وحمل السيف لتغيير الجور والظلم الواقع من الولاة بعدم جدواها.

ولذلك قال ابن تيمية عقب الحديث عما حدث من فتن وقعت باجتهاد من بعض أهل العلم والصلاح، كخروج الحسين بن علي رضي الله عنه، وفتنة خروج أهل المدينة، ووقعة الحرّة، وفتنة ابن الأشعث قال: ولهذا استقر مذهب أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم[٢].

وقال ابن حجر في ترجمة أحد هؤلاء الذين كانوا يرون السّيف: كان يرى الخروج بالسّيف على أئمة الجور، وهذا مذهب للسّلف قديم، لكن استقر الأمر على ترك ذلك؛ لما رأوه أفضى إلى أشدّ منه، ففي وقعة الحرّة ووقعة ابن الأشعث ـ يعني: دير الجماجم ـ وغيرهما عظة لمن تدبر[٣].

د ـ **ظهور بدعة الإرجاء**: أو نوع منه وهو ما يسمى «إرجاء الفقهاء» نسبة إلى بعض الفقهاء الذين يقولون بأن الإيمان قول بلا عمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص، فالإيمان عندهم واحد يستوي فيه كل من اعتقده بقلبه وقاله بلسانه، حيث يخرجون الأعمال ـ التي يتفاضل فيها المؤمنون ـ عن الإيمان، فيستوي عندهم إيمان الصادقين الأولين كأبي بكر وعمر، وإيمان أفجر الناس كالحجّاج، وأبي مسلم الخراساني وغيرهما[٤].

والذي دعا إلى الربط بين ظهور ذلك النوع من الإرجاء وحركة ابن الأشعث ما يشير إليه كثير من الذين كتبوا عن تاريخ الفرق، حيث اشتهر عندهم قول قتادة: إنما أحدث الإرجاء بعد هزيمة ابن الأشعث[٥]، وذكروا أن الكوفة كانت موطن الإرجاء الأول ثم انتشر منها إلى سائر الأقطار[٦].

ويقول الدكتور ناصر العقل: أول ما ظهرت بدعة الإرجاء بعد فتنة ابن

---

(١) الطبقات الكبرى (٧/ ١٦٥).
(٢) منهاج السنة (٤/ ٥٢٩، ٥٣٠)، الإمامة العظمى، ص (٥١٢).
(٣) تهذيب التهذيب (٢/ ٢٥٠).
(٤) الفتاوى (٧/ ١٩٥).
(٥) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٨٨٩).
(٦) الفتاوى (٧/ ٣١١)، القدرة والمرجئة للعقل، ص (٨٦، ١١٦).

الأشعث سنة (٨٣هـ)[١]، وهو إرجاء العمل عن الإيمان ويسمى «إرجاء الفقهاء»، وأول من قال به هو: ذر بن عبد اللّه المرهبي الهمداني، مات قبل المائة[٢]، ثم ظهور القول بأن الإيمان قول، وأول من قال ذلك حماد بن أبي سليمان[٣]، ت ١٢٠هـ، واستقر إرجاء الفقهاء على ثلاثة أسس كلها مخالفة لقول السلف وهي:

ـ زعمهم أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان، وأن الإيمان هو التصديق.

ـ زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

ـ زعمهم أنه لا يجوز الاستثناء في الإيمان[٤].

ويقال إن ذرَّ بن عبد اللّه المرهبي ـ وكان ممن شارك في فتنة ابن الأشعث ـ بعد الهزيمة أصيب بردة فعل جعلته يتحول من تكفير الحجّاج وقتاله إلى اتجاه معاكس، وهو الإرجاء الذي يسوي فيه أصحابه بين إيمان الحجّاج وإيمان غيره، ولو كان من أعبد الناس وأتقاهم للّه[٥].

ويقول طاووس بن كسيان ـ منتقداً ذرَّ المرهبي ومن سلك مسلكه من الفقهاء ـ: عجبت لإخواننا من أهل العراق يسمون الحجّاج مؤمناً. قال الذهبي معلقاً على قول الطاووس: قلت: يشير إلى المرجئة منهم، الذين يقولون: هو مؤمن كامل الإيمان مع عسفه وسفكه الدماء وسبه الصحابة[٦]، وهكذا دأب الفتن فإنها غالباً ما تفرز بعدها بعض التوجهات المنحرفة أو المواقف المتضاربة تجاه أمر معين، حيث لا يسلم من ذلك إلا من عصمه اللّه بنور الإيمان ورسوخ العلم، جعلنا اللّه منهم[٧].

٧ ـ ممن عفا الحجاج عنهم الشعبي وأسيران:

أمر الحجّاج بعد انتهاء دير الجماجم مناديه أن يقول: من لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن، فكان الشعبي من الذين توجهوا إلى الري فذكره الحجّاج يوماً وسأل عنه فعلم بلحوقه بالري، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يأمره بإرسال الشعبي إليه،

---

(١) السنة لعبد اللّه بن حنبل (١/ ٣٠٩).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ٣٢٩).
(٣) الفتاوى (٧/ ٢٩٧، ٣١١).
(٤) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص (٢٤٨).
(٥) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٩٢).
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٤).
(٧) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٥٩٣).

فأرسله إليه، فلما قدم على الحجّاج لقيه يزيد بن أبي مسلم ـ حاجب الحجّاج ـ وكان صديقاً للشعبي ـ فقال للشعبي: أشر عليَّ. فقال يزيد: اعتذر ما استطعت، وقال الشعبي: وأشار بمثل ذلك إخواني ونصحائي.

فلما دخلت على الحجّاج رأيت غير ما ذكروا لي، فسلمت عليه بالإمرة وقلت: أيها الأمير، إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم اللّه أنه الحق، وأيم اللّه لا أقول في هذا المقام إلا الحق، قد واللّه مردنا عليك، وحرّضنا وجهدنا، فما كنّا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك اللّه علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرّت إليه أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد، فالحجة لك علينا(١).

فقال الحجاج: أنت واللّه أحبّ إليّ قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت، وقد أمنت يا شعبي، كيف وجدت الناس بعدَنا؟ فقلت: أصلح اللّهُ الأمير، اكتحلت بعدك السحر، واستوعرت الخباب، واستحلست الخوف، وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفاً. قال: انصرف يا شعبي، فانصرفت(٢).

ولم يقتصر العفو على الشعبي لأنه فقيه أهل العراق فقد عفا عن أشخاص من عامة الناس لصدقهم، فيروى أنه أتي بأسيرين، فأمر بقتلهما فقال أحدهما، إن لي عندك يداً، قال: ما هي؟ قال: ذكر ابن الأشعث يوماً أمك بسوء فنهيته، فقال الحجّاج: ومن يعلم ذلك: قال: هذا الأسير الآخر، فسأله الحجّاج فصدقه، فقال له الحجّاج: لم لم تفعل كما فعل؟ قال: ينفعني الصدق عندك؟ قال: نعم، قال: منعني البغض لك ولقومك. فقال الحجّاج: خلوا عن هذا لفعله، وعن هذا لصدقه(٣).

٨ ـ توحيد الدولة والقضاء على الثورات الداخلية:

استطاع عبد الملك أن يقضي على كل الحركات الداخلية، وقد ذكرت أهم هذه الثورات، كثورة الأزارقة، والصفرية، وابن الأشعث، وهناك حركات أخرى ذكرتها كتب التاريخ كحركة مطرف بن المغيرة بن شعبة، وعبد اللّه بن الجارود، وحركة الأزد في عمان، وفي نهاية المطاف تغلب عبد الملك عليها واحدة تلو

(١) الكامل في التاريخ (٣/ ١٦٥).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٦٦).

(٣) عيون الأخبار (١/ ٩٨)، الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص (٢٩٢).

الأخرى ووضع الأساليب المناسبة لتحقيق الأهداف المخططة لذلك.

وقد أثبتت الأحداث قدرة الخليفة عبد الملك بن مروان على معرفة الأحداث معرفة جيدة، ثم السيطرة على هذه الأحداث والقدرة على احتوائها، باستئصال خصومه حيناً، والتسامح معهم حيناً آخر، ضمن خطة سياسية ومنهج قائم على أهداف واضحة، أدت إلى النتائج المتوخاة، وهي إعادة الوحدة السياسية مرّة أخرى، مما أدى إلى إيجاد علاقات جديدة مع الدولة البيزنطية، والقيام بفتوحات جديدة في الشرق والغرب، ثم القيام بالعديد من الإصلاحات الجديدة، منحت سياسته الداخلية والخارجية قدرة على التخطيط الشامل الذي يؤدي إلى تحقيق الأهداف المنشودة[١].

(١) تجديد الدولة الأموية، ص (١٣٤).

الفصل الثالث

الفتوحات الإسلامية في عهد عبد الملك والوليد وسليمان

وتجدر الإشارة في هذا الفصل إلى أننا سوف نجمع الفتوحات في عهد عبد الملك والوليد وسليمان لكي نعطي صورة متكاملة عنها بسبب ترابطها ببعضها .

المبحث الأول

الفتوحات في بلاد الروم

في أواخر عام ٧٣هـ شعر عبد الملك أن الدولة استعادت قوتها، وأنها تستطيع أن تستأنف جهادها وتعلي إرادتها، وكانت العلاقات قد ساءت بين دولة الروم والدولة الإسلامية في هذه الفترة، وأخذ الروم يتأهبون للانقضاض، فكان عبد الملك لهم بالمرصاد وقد أحكم إعداده، فعين أخاه محمد بن مروان والياً على الجزيرة وأرمينيا ليكون القائد في هذه الجبهة، ومنع عبد الملك إرسال النقود التي كان يدفعها وقت الضرورة، فأثار هذا حنق الإمبراطور الروماني البيزنطي، فأعلن الحرب، وقدم بجيش كبير ليغزو المسلمين من ناحية أرمينيا، فلاقاه محمد بن مروان بجيشه، ودارت موقعة عنيفة هزم فيها الروم على كثرة عددهم هزيمة شنيعة، وفر الإمبراطور بنفسه وانفض عنه أكثر جنوده.

وكان ذلك عام ٧٤هـ، فزعزعت هذه الموقعة الدولة البيزنطية[١]، واستغل عبد الملك هذا النصر وواصل ضغطه على الدولة البيزنطية عبر الحدود، وانتظمت غزوات الصوائف والشواتي وشرع في التوغل داخل الأراضي البيزنطية القريبة، فكانت الصوائف تخرج بانتظام للإغارة على هذه الأراض يقودها محمد بن مروان أو غيره من أمراء بني أمية.

وفي عام ٨١هـ بعث عبد الملك ابنه عبد الله بن عبد الملك ففتح «قاليقالا» وهي إحدى مدن الروم الكبيرة، وفي عام ٨٤هـ تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسية، داخل دولة الروم في آسيا الصغرى، وهي مدينة «المصيصة» فبنى حصنها، ووضع بها حامية من ثلاثمائة مقاتل من ذوي البأس، ولم يكن المسلمون يسكنونها من قبل، وبنى مسجدها، وهكذا اندفعت قوة المسلمين إلى الأمام، تفتح المعاقل وتستولي على الحصون داخل أرض العدو في دولة الروم، منذ تحققت الوحدة في عهد عبد الملك[٢].

---

(١) عبد الملك بن مروان، محمد ضياء الدين، ص (٢٠٨).

(٢) عبد الملك بن مروان، ص (٢٠٩).

ولقد أثبت عبد الملك بعد إعادة الوحدة السياسية أن قوة الدولة الموحدة قادرة على التفوّق وإحراز السيادة، وتحقيق النصر على البيزنطيين، وأن قوتها الموحدة قادرة على الاندفاع في الجبهات كافة[١]، واستمرت الجيوش الإسلامية في جهادها طوال مدة الوليد ثم سليمان، وقد برز مسلمة بن عبد الملك في تلك الحروب كقائد فذ، ومقاتل عظيم، فكان في كل سنة يفتح بلداً أو حصناً من الحصون العظيمة التي أقامها الروم لتأمين سلامة بلادهم والمحافظة عليها من غارات الأعداء، وكان يغزو معه هذه الغزوات ـ في عهد الوليد ـ وفتح هذه الفتوح العباس بن الوليد بن عبد الملك، ومن الحصون التي فتحها: حصن عمورية وهرقلية وقونية، وحصن طوانة وسمطية والمرزبانين وطروس، وكثير غير هذه الحصون[٢].

ففي جمادى الآخرة سنة ٨٨هـ ـ ٧٠٧م فتح مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد حصن طوانة وشتوا بها، وهزم المسلمون الأعداء حتى صاروا إلى كنيستهم ثم رجعوا فانهزم الناس، وبقي العباس ومعه نفر قليل، منهم ابن محيريز الجُمحي، فقال العباس لابن محيريز: أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة؟ فقال ابن محيريز: نادهم يأتوك. فنادى العباس: يا أهل القرآن، فأقبلوا جميعاً، فهزم اللّه العدو حتى دخلوا طوانة[٣].

وهكذا لا تمر سنة إلا ويغزو المسلمون أرض الروم ويستولون على بعض حصونهم ومعاقلهم، ومن الجدير بالذكر أن معظم الذين كانوا يقودون هذه الحملات هم من أبناء البيت الأموي، أولاد الخليفة الوليد، وأخوه مسلمة الذي لم يكد يتخلف سنة واحدة عن غزو أرض الروم، وهذا أمر له مغزاه، فقد كان مسلمة هو الذي قاد الجيش الذي حاصر القسطنطينية الحصار الأخير في عهد سليمان ـ كما سنذكر قريباً بإذن اللّه ـ، ومعنى هذا أن اشتراكه المستمر في غزو بلاد الروم كان مقصوداً ليزداد معرفة وخبرة بالطرق والمسالك إلى عاصمة البيزنطيين، التي كانت إحدى الأهداف الرئيسية من هذه الغزوات[٤].

---

(١) تجديد الدولة الأموية، ص (١٤٩).
(٢) الأمويين بين الشرق والغرب (١/ ٤٢٠).
(٣) تاريخ الطبري (٧/ ٣٣٤).
(٤) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٥٦).

أولاً

البيزنطيون يرصدون تحركات المسلمين العسكرية

من الطبيعي أن تكون عيون البيزنطيين دائماً مفتوحة على حدودهم مع المسلمين، فجبهة الحدود دائماً ملتهبة والغزو الإسلامي لا يكاد يتوقف، ولكي يتأكد البيزنطيون من نوايا المسلمين وأهدافهم من وراء هذا النشاط العسكري المستمر، أرسل الإمبراطور البيزنطي أنسطاس ٧١٣ ـ ٧١٦م سفارة إلى دمشق لتستطلع الأخبار عن كثب، وتعرض على الخليفة الوليد مشروع عقد هدنة بين الدولتين، ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق، شاهدت عظمة المسلمين في عاصمتهم، ونشاط الخليفة في إعداد الجيوش لتوجيهها إلى القسطنطينية.

وعاد السفير إلى الإمبراطور يؤكد صدق عزيمة المسلمين على الجهاد وينصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن العاصمة، فأخذ أنسطاس برأي سفيره، وأعلن في القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات، وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته، ثم ملأ خزائن الإمبراطورية بكميات كبيرة من القمح وغيره من الحاجيات التي يتطلبها المدافعون عن المدينة.

واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة لا سيما الجهات المطلة منها على المياه، حيث كان التداعي قد دب فيها، ووضع على الأسوار البرية كل الآلات الحربية من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع[١]، وبينما يمضي الخليفة الوليد في استعداداته للزحف على العاصمة البيزنطية إذ وافته منيته سنة ٩٦هـ، فخلفه أخوه سليمان ليواصل جهوده في هذا الميدان[٢].

ثانياً

سليمان بن عبد الملك وحصاره للقسطنطينية

يبدو أن اهتمام الخلفاء بفتح القسطنطينية، كان يرجع لرغبتهم الشديدة في أن

(١) الأمويون والبيزنطيون نقلاً عن العالم الإسلامي، ص (٢٥٦).

(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٥٦).

يكونوا المقصودين بقوله عليه الصلاة والسلام: **«لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»**(١)، ويضاف إلى ذلك رغبة سليمان الشديدة في وضع حد للهجمات البيزنطية المتكررة على الشواطئ الشامية والمصرية، والتي من شأنها بث حالة من عدم الاستقرار في تلك النواحي، وبالتالي المساس بسيادة الدولة الإسلامية، فقد هاجم البيزنطيون ساحل جند حمص، وسبوا «امرأة وجماعة»، وللمرأة فيهم ذكر إذ ذاك، فغضب سليمان وقال: ما هو إلا هذا، نغزوهم ويغزوننا والله لأغزونهم غزوة أفتح فيها القسطنطينية، أو أموت دون ذلك(٢).

١ ـ الاستعداد للحملة:

شملت الاستعدادات للحملة معظم العالم الإسلامي، فقد ضمت الحملة البرية نحو مائة وعشرين ألفاً من الشام والجزيرة والموصل، وضمت الحملة البحرية ألف مركب من أهل مصر وإفريقيا(٣)، ويبدو أن تقدير المسلمين لحصانة القسطنطينية، وطول أمد الحرب، تقدير سليم وقوي، حيث أنهم أدركوا أن حصارها يتطلب قوات كبيرة ووقتاً طويلاً وأسلحة متنوعة، لذلك جمعوا آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك(٤).

٢ ـ سير الحملة:

تجاذبت قادة المسلمين العسكريين خطتان حول سير الحملة.

الأولى: طرحها موسى بن نصير، فحواها أن على المسلمين احتلال المدن والحصون التي دون القسطنطينية، لتجريدها من المواقع الحصينة المحدقة بمسالكها، والتي قد تعيق حركة الجيش الإسلامي، ويستمر الأمر بهذه الخطة حتى تفتح القسطنطينية.

وأما الخطة الثانية: فطرحها مسلمة بن عبد الملك والذي ارتأى أن اتباع خطة موسى، يحتاج إلى أمد بعيد جداً حتى يتحقق حصار القسطنطينية، وفتحها، لذلك أشار بضرورة التوجه مباشرة إلى القسطنطينية دون التعرض للمدن والحصون المحدقة بجانبي الطريق إلا ما كان ضرورياً.

---

(١) مسند أحمد رقم (١٩٦٩).

(٢) الوافي بالوفيات (١٥/٤٠٣)، خلافة سليمان بن عبد الملك، ص (١٧٧).

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن خلافة سليمان بن عبد الملك، ص (١٨١).

(٤) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص (١٨١).

ويبدو أن رأي مسلمة لقي قبولاً لدى الخليفة ومستشاريه العسكريين، لذلك تقرر سير الحملة حسب خطته[١]، وسار سليمان من القدس إلى دمشق، ومضى حتى نزل دابق[٢]، وأقسم ألا ينتقل منها حتى يفتح القسطنطينية، فأقام بها[٣].

وفي سنة ٩٨هـ تحركت الحملة بقيادة مسلمة بن عبد الملك من سوريا براً، وبحراً باتجاه القسطنطينية، واستمر مسلمة في سيره ووصلت الحملة البرية القسطنطينية عام ٩٨هـ، ووصلها الأسطول في عام ٩٩هـ، وضرب المسلمون الحصار على المدينة، وقاتلوا الروم قتالاً شديداً واستبسلوا في جهادهم، ورغم المصابرة التي استمرت قرابة سنة، فإن المحاولة فشلت وخسر المسلمون خسارة كبيرة في العدد والعدة[٤].

وقد وصفت المصادر الإسلامية الحالة السيئة، التي آل إليها الجيش الإسلامي في الفترة الأخيرة من الحصار، فالفسوي يقول: وقد كان الناس لقوا جهداً من القسطنطينية من الجوع[٥]، ويقول الطبري: فلقي الجند ما لم يلق جيش، حتى أنه كان الرجل ليخاف أن يخرج من العسكر وحده، وأكل الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب[٦]، كما أن البيزنطيين داخل القسطنطينية كانوا في حالة سيئة أيضاً، ولعل من الشواهد التاريخية على ذلك ما يأتي:

أ ـ إن مخاطرة السفن البيزنطية في الخروج لجلب القمح من شواطئ البحر الأسود، وخروج المراكب الصغيرة لجلب الطعام، وصيد الأسماك، دليل قوي على الضنك الاقتصادي عند أهل القسطنطينية بالرغم من انكسار حدة القتال.

ب ـ سعي البيزنطيين إلى عقد صلح مع مسلمة، حيث عرض بطريقهم دفع دينار عن كل رجل محتلم في القسطنطينية دليل آخر على سوء الأوضاع الداخلية.

جـ ـ الصلح الذي تم إبرامه بين المسلمين والبيزنطيين، قبيل انسحاب الجيش الإسلامي، وتعهُّد البيزنطيين بموجبه المحافظة على المسجد الذي بناه مسلمة[٧].

---

(١)، (٢) البداية والنهاية (١٢/ ٦٣٢).

(٣) تاريخ الطبري (٧/ ٤٣٣).

(٤) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٢٦١).

(٥) المعرفة والتاريخ (١/ ٦١٨).

(٦) تاريخ الطبري (٧/ ٤٣٣).

(٧) عيون المعارف للقضاعي، ص (٣٥٨).

٣ ـ انسحاب الجيش الإسلامي:

لما مات سليمان بن عبد الملك تولى عمر بن عبد العزيز أمر الخلافة، فوجه إلى مسلمة ـ وهو محاصر للقسطنطينية ـ أمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، ووجه إليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً، وحث الناس على معونتهم، وكان عدد الخيل التي وجهها لمسلمة خمسمائة فرس(١)، لأنه كان قد أصاب المسلمين مجاعة فقواهم بذلك(٢)، وكان قرار عمر بن عبد العزيز بانسحاب مسلمة حصيفاً صائباً، لا لأنّ عمر غير ميالٍ إلى حروب الفتح والاستيلاء(٣)، بل لأنّ موقف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية كان ميئوساً منه، فأمر بانسحابهم حقناً لدمائهم، بعد أن بلغ بهم الجهد(٤)، إذ لم يغفل عمر أبداً عن غزو الروم دفاعاً عن حدود أرض الشام الشمالية الغربية(٥).

لقد أحسن عمر بن عبد العزيز في قراره بانسحاب المسلمين عن القسطنطينية، لأن الموقف العسكري كان يتطلب إصدار مثل هذا القرار، ولو كانت كفة المسلمين راجحة في حينه، لكان من المستحيل عليه الأمر بانسحاب المسلمين، ولكن هناك مسوِّغ للادعاء بأن عمر بن عبد العزيز غير ميال لحروب الفتح دون تمحيص للموقف العسكري الراهن(٦).

٤ ـ أسباب فشل الحملة:

أ ـ غدر وخينة: تناولت الأخبار غزوة القسطنطينية وذكرت أن ليون حاكم ـ بطريق ـ عمورية اتصل بسليمان بن عبد الملك وحرّضه على حرب تيودوسيوس ـ تيدوس ـ، ووعد ليون سليمان أن يقف إلى جانب المسلمين ويسلمهم أرض الروم، **وقيل**: إن الذي عرض التحالف على الآخر هو سليمان بن عبد الملك، **وقيل**: إن مسلمة بن عبد الملك عرض ذلك أثناء حصار القسطنطينية وليون يتظاهر أمام مسلمة أنه يحاول إقناعهم في النزول على رغبته، وكان مسلمة حسب هذه الأخبار طلب إليهم ليرحل عنهم أن يملِّكوا حليفه ليون عليهم، وأما ليون فكان في حقيقة الحال

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٤٥٧).
(٢)، (٣) قادة الفتح الإسلامي في أرمينيا ص (٢٥٦).
(٤) خطط الشام (١/ ٥٥٢).
(٥) قادة الفتح الإسلامي في أرمينيا، ص (٢٥٧).
(٦) المصدر نفسه، ص (٢٥٩).

يطلب الملك لنفسه، ويريد أن ينقذ البلد من خطر المسلمين.

ولما اطمأن الأساقفة والبطارقة إليه وحلف لهم انقادوا له واستوى له الأمر، فخرج إلى مسلمة وأشار عليه أن يحرق ما عنده من الطعام لييأسوا من المطاولة ويصح عندهم عزم مسلمة على المناجزة فيعطوا ما بأيديهم، وقيل: أشار عليه أيضاً أن يأذن لأهل القسطنطينية لليلة واحدة أن يحملوا مما عنده من الغلال ليروا حسن رأيه فيهم، وأن أمره وأمر ليون واحد.

وانطلت الخديعة على مسلمة وأطاع ليون، وعندئذٍ استولى ليون على الحكم وأعلن الحرب على مسلمة في الوقت الذي صار مسلمة في حال لا يحسد عليه من سوء الأحوال الجوية، وقلة الميرة لجنده حتى لقوا من الشدة ما لم يلق أحد قط، واضطروا إلى أكل الدواب والجلود والميتة وأصول الشجر وغير ذلك[١].

وخلاصة القول، إن هذه الأخبار تلقي مسؤولية الفشل على عاتق مسلمة بن عبد الملك الذي كان عندها شجاعاً فحسب، ولم يكن من ذوي الرأي والبصيرة في الحرب، ولم يكن له رأي فيها يرجع إليه[٢]، ولو صدقنا هذه الأخبار لكانت الدولة أي سليمان بن عبد الملك ابتداء، ومسلمة بن عبد الملك قائد الجيوش تالياً ربطا مصير فتح القسطنطينية ومصير الجند المسلمين هناك بوعود شخص هو ليون مظنة كذب وخديعة، وهو حال يتناقض واستعدادات الدولة في هذا الوجه[٣].

وقد علق الأستاذ محمود شيت خطاب على حصار القسطنطينية فقال: وإذا كان هناك ما يلام عليه مسلمة في معركة حصار القسطنطينية، فهو عدم استفادته كما ينبغي من الصفة الأولى من صفات حصار «القسطنطينية»، وهي صفة «المبادرة» في التركيز بالهجوم على المدينة المحاصرة، وإدامة زخم الهجوم عليها أولاً، وثقته غير المحدودة بحليفه «اليون»، لأن الذي يخون بلاده وقومه أولى به أن يخون غير بلاده وغير قومه، فكانت هذه الثقة العمياء في هذا العميل لا مسوِّغ لها ثانياً، فالحرب من القضايا المصيرية، ولا بدّ من إدخال أسوأ الاحتمالات في كلِّ ما يؤثر في نتائجها من قريب أو بعيد[٤].

ب ـ ضراوة الشتاء: بخصوص ضراوة الشتاء عام ٩٩هـ **قيل:** إن الثلج غطى وجه

(١) أخبار القضاة لوكيع (٣/ ٢١٣)، دراسة في تاريخ الأمويين (٢٦١).
(٢) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين (٢٦٢).
(٣) المصدر نفسه، ص (٢٦٢).
(٤) قادة الفتح الإسلامي في أرمينيا، ص (٢٦١).

الأرض، وهلك فيه كثير مما كان مع المسلمين من الجمال والخيل والبغال، ولا بدّ أن المسلمين في هذه الأحوال الجوية القاسية أتوا على أكثر ما كان معهم من الطعام، وأصبحوا في نقص من الميرة وعضّهم الجوع، ولذلك قيل: استطاع ليو أن يفخر بأن ديسمبر (كانون الأول) ويناير (كانون الثاني) وفبراير (شباط) كانوا أعظم قواده[١].

جـ ـ **مناعة أسوار المدينة وتحصيناتها الدفاعية:** أخذ حكام بيزنطة في تحصين أسوار القسطنطينية وتسليحها بالمجانيق، منذ علموا بعزم المسلمين على غزوها، وزادها ليو الذي تقلد الحكم فيها زمن الحصار تحصناً، وأمر حكام بيزنطة بتخزين الطعام بالقدر الذي يكفي أهلها لثلاث سنوات، ومنعهم من أن يغادروها[٢].

د ـ **استخدام سلاح جديد ضد المسلمين. . «النار الإغريقية»:** استخدم البيزنطيون النار اليونانية، فأثرت في جيش المسلمين وكبّدتهم خسائر في الأرواح والسفن والمعدات. وتاريخ الحرب في جميع العصور يقرر أن من أهم أسباب عوامل النصر هو استخدام سلاح فتاك جديد، لا يتوقعه الخصم، أو استخدام أسلوب قتالي جديد لا يتوقعهما الخصم، أو استعمالهما معاً في الزمان والمكان المناسبين بشكل لا يتوقعهما الخصم، وكل ذلك يباغت الخصم ويربك قيادته وخطته المرسومة، والمباغتة كما هو معروف هي أهم مبادئ الحرب على الإطلاق[٣] ومن الإنصاف أن نضيف إلى عوامل انتصار الروم في الدفاع عن القسطنطينية عاملاً آخر هو: كفاية (ليو الثالث) المتميزة في القيادة، وتشبعه بمزية إدارة القتال[٤].

هـ ـ **التيارات المائية:** واجه المسلمون في البحر صعوبات كثيرة، فقد جعلت التيارات المائية المنحدرة من البحر الأسود إلى بحر مرمرة حركة السفن الإسلامية بطيئة، وأدى تغير الريح إلى اضطرابها، ونالت النار الإغريقية منها وألحقت بها أضراراً كثيرة[٥].

و ـ **المصالحة بين البيزنطيين والبلغار والخزر:** صالح ليو الحاكم البيزنطي أعداءه

---

(١) الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان (٢/ ٨٥، ٩١).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٨٥، ٩١).

(٣) قادة الفتح الإسلامي في أرمينيا، ص (٢٦٠).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٦٠).

(٥) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٢٦٤).

الخارجين عليه من الخزر والبلغار، وبذلك ضمن الجبهة الشمالية مما جعله يصب جل اهتمامه على القوات الإسلامية بغرض تدميرها وإيقاف زحفها على المدينة(١).

ز ـ **الاستعجال وعدم التريث**: ويبدو أن المسلمين لو تريثوا حتى أتموا فتح البر الآسيوي البيزنطي، ثم تقدموا إلى القسطنطينية من مواقع مجاورة، وبأحوال جوية مماثلة ومألوفة للمقاتلة، وخطوط ومواصلات قصيرة وإمدادات قريبة، وأعداد بشرية كثيرة فربما وجدوا المهمة أيسر، ولكنهم عمدوا إلى صقع من البلاد في محيط من الأعداء حصين وبعيد، فاستعصى عليهم(٢).

حـ ـ **ضعف خبرة مسلمة العسكرية**: كان مسلمة بن عبد الملك القائد الأموي في حصار القسطنطينية صغيراً في السن، وأقل تجربة من عظماء الفتح الإسلامي في ذلك العهد مما ساهم في فشل الحصار.

٥ ـ نتائج الحملة:

ترتب على حملة القسطنطينية العديد من النتائج، ولعل من أبرزها ما يلي:

أ ـ تأكد للمسلمين أنهم لا يستطيعون فتح القسطنطينية دون فتح المناطق المجاورة لها، وتثبيت أقدامهم فيها حتى تكون عوناً لهم، لا عليهم في حالة حصار القسطنطينية، وبالرغم من ذلك فقد كانت للمسلمين سيطرة واضحة على العديد من موانئ البحر الأبيض المتوسط خاصة في حوضه الغربي.

ب ـ تخلى أباطرة البيزنطيين عن فكرة استعادة شمال إفريقيا، وعدوا الدفاع عن هذه المنطقة في المرتبة الثانية، بعد الدفاع عن عاصمتهم، وبالتالي أصبحت منطقة شمال إفريقيا ركناً مهماً من أركان الدولة الإسلامية قوية الأوتاد(٣).

جـ ـ ولعل من أهم النتائج المباشرة لغزو القسنطينية، ازدياد نشاط الأسطول البيزنطي في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، فقد قام البيزنطيون بالإغارة على تِنِّيس(٤) في خلافة يزيد بن عبد الملك(٥).

---

(١) العلاقات العربية ـ البيزنطية في العصر الأموي، ص (٦٤).

(٢) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٢٦٤).

(٣) خلافة سليمان بن عبد الملك، علي إبراهيم، ص (٢٠٠)..

(٤) تِنِّيس: جزيرة في بحر مصر، قريبة من البر.

(٥) ولاة مصر للكندي، ص (٩١)، خلافة سليمان بن عبد الملك، ص (٢٠٠).

٦ ـ من خطب عبد الملك في التحريض على قتال الروم:

وفي عهد عبد الملك عندما علم بتحرك الروم بأرض القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم لغزو المسلمين ومفاجأتهم، نادى بالنفير العام، وحين اجتمع لديه جند المسلمين قام فيهم محرضاً فقال لهم ـ بعد أن حمد اللَّه عز وجل وأثنى عليه ـ:

أيها الناس إنكم قد علمتم ما ذكر اللَّه عز وجل في كتابه من فضل الجهاد، وما وعد اللَّه عليه من الثواب، ألا وإني قد عزمت أن أغزو بكم غزوة شريفة على «ليون» صاحب الروم، فإنه طغى، وبغى، وقد بلغني أنه قد جمع للمسلمين جموعاً كثيرة وعزم على غزوكم ومفاجأتكم في دياركم، وقد علمت أن اللَّه تعالى مهلكه ومبدد شمله وجاعل دائرة السوء عليه وعلى أصحابه، وقد جمعتكم من كل بلد وأنتم أهل البأس والنجدة، والشجاعة والشدة، وأنتم من قام للَّه بحقه ولدينه بنصرته، وهذا ابني مسلمة قد أمرته عليكم، فاستمعوا له وأطيعوا يوفقكم اللَّه ويرشدكم لصالح الأمور.

فقال الناس جميعاً: سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين[١]، وعندما سير عبد الملك بن مروان ابنه مسلمة لمحاربة الروم أوصاه بالعسكر بقوله: فكن يا بنيَّ بالمسلمين باراً رحيماً، وأميراً حليماً، ولا تكن عنيداً كفوراً ولا مختالاً فخوراً[٢]، كما أوصى عبد الملك قائداً آخر سيره إلى أرض الروم: أنت تاجر اللَّه لعباده، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً تاجر، وإلا احتفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك[٣].

٧ ـ من أشهر قادة المسلمين ضد الروم:

ـ مسلمة بن عبد الملك:

مسلمة بن عبد الملك الأمير الضرغام، قائد الجيوش، أبو سعيد الأموي الدمشقي، ويلقب بالجرادة الصفراء[٤]، له مواقف مشهودة مع الروم، وهو الذي غزا القسطنطينية وكان ميمون النقيبة، وقد ولي العراق لأخيه يزيد ثم أرمينيا[٥]، قال عنه الذهبي: كان أولى بالخلافة من سائر إخوته[٦]، وقد ظهرت مزايا مسلمة وألمعيته

---

(١) الفتوح لابن أعثم (٤/ ١٢٣).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ١٢٣).
(٣) نهاية الأرب (٦/ ١٧٠).
(٤)، (٥)، (٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٤١).

مبكراً وهو صغير السن، فركز أبوه عبد الملك عليه، وبخاصة في وصيته أبناءه وبنيه وهو على فراش الموت فقال فيه: . .وانظروا إلى مسلمة فاصدروا عن رأيه، فإنه نابكم الذي عنه تفترون، ومِجنّكم الذي عنه ترمون(١). فهو قائد من قواد الفكر وقائد من قادة الجهاد بالنسبة لبني أمية، لا يخالفون له رأياً، ولا يعصون له أمراً، ويلجأون إليه في أيام المحن والحروب(٢).

ومسلمة هذا عُرف في التاريخ مع قصة صاحب النقب، حيث حاصر مسلمة حصناً، فندب الناس إلى نَقْب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عُرض الجيش، فدخله ففتحه اللّه عليهم، فنادى مسلمة: «أين صاحب النقب؟» فما جاء أحد. فنادى: إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء، فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير. فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه، فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألا تسودوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو؟ قال مسلمة: فذاك له، قال: «أنا هو». فكان مسلمة لا يصلي بعدها إلا قال: اللّهم اجعلني مع صاحب النقب(٣).

وكان مسلمة في جهاده يحرص على سلامة جنده، وفي قتاله للخزر، تكالب عليه الأعداء مما اضطره إلى خداعهم بإشعال النيران ليوهمهم بمكوثه وأبقى خيامه مضروبة بعد العشاء الآخرة وجعل مسلمة يطوي المراحل طياً في العودة، فقد جعل كل مرحلتين في مرحلة غير أنه قدم الضعفاء بين يديه واهتم بهم وجعل الأقوياء أهل الجند والشجاعة على الساقة، فلم يزل كذلك حتى جاوز الخطر(٤).

وكان يمقت العجز ويمدح الحزم، فقد قال: ما حمدت نفسي على ظفر ابتدأته بعجز، ولا ذممتها على مكروه ابتدأته بحزم(٥)، ومن أقواله في الزهد: إن أقل الناس هماً في الدنيا أقلهم هماً في الآخرة(٦).

وكانت تجربته العملية غنية إلى أبعد الحدود، فقد شهد كيف تدار الدولة على أعلى المستويات مع أبيه عبد الملك بن مروان، ومع إخوته من بعده، وكان الخلفاء

---

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي في أرمينيا، ص (٢٨٩).
(٢) قادة الفتح الإسلامي في أرمينيا، ص (٢٨٩).
(٣) عيون الأخبار (١/ ١٧٢).
(٤) الفتوح لابن أعثم (٤/ ٢٨٣).
(٥) الشهب اللامعة، ص (٤٧٦).
(٦) المعرفة والتاريخ (٢/ ٢٢٦).

من إخوته يحرصون على أن يبقى إلى جانبهم مستشاراً يتعلمون منه أكثر مما يتعلم منهم، إلا إذا حزبهم أمر يهدد أمن الدولة ومصيرها تهديداً خطيراً، فيبعثونه ليقضي على الثورات، وليقمع الاضطرابات، وليعيد الأمن والاستقرار[١].

وكان مسلمة مخلصاً غاية الإخلاص لبني أمية ويدين بالولاء المطلق للخلفاء، ولم يكن يطمح لتولي الخلافة لأن بني أمية لم يكونوا يبايعون لبني أمهات الأولاد، ولم يكن لعبد الملك بن مروان ابن أسدّ رأياً ولا أذكى عقلاً، ولا أشجع قلباً، ولا أسمح نفساً، ولا أسخى كفاً من مسلمة، وإنما تركوه لهذا المعنى[٢]. وكانت بنو أمية لا تستخلف بني الإماء، وقالوا: لا تصلح لهم العرب[٣]. ولم يكن لمسلمة أمل في تولي الخلافة مع أنه ـ كما قال الذهبي ـ كان أحق بالملك من سائر إخوته[٤].

وكان ذا عقل راجح ورأي سديد يحولان بينه وبين مغامرة تشق صفوف المسلمين، وكان بحق من أكثر الناس حرصاً على رصّ الصفوف والوحدة، كما أنه كان يعتبر الخلافة (وسيلة) من أجل خدمة الأمة، لا (غاية) من أجل أطماع شخصية، وأمجاد أنانية، وهو ـ بحق ـ خدم الأمة أجلّ الخدمات، وبذلك حقق (الوسيلة) واستغنى عن (الغاية)[٥]، وكان ـ رحمه الله ـ جميل الصورة، حسن الوجه صبيحاً، من أجمل الناس، وهو معدود من الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشام[٦]، توفي ١٢٠هـ[٧].

ـ أبو محمد البطال:

كان من أبطال المسلمين وأمرائهم الشاميين، وكان مع جيش مسلمة بن عبد الملك، وكان مقره بإنطاكية، أوطأ الروم خوفاً وذلاً. ولكن كذب عليه أشياء مستحيلة في سيرته الموضوعة، وعن عبد الملك بن مروان أنه أوصى مسلمة: أن صيِّر على طلائعك البطال ومره فليعس بالليل، فإنه أمير شجاع

(١) قادة الفتح الإسلامي في أرمينيا، ص (٣٠٥).
(٢) العقد الفريد (٦/ ١٣١)، قادة الفتح الإسلامي في أرمينيا، ص (٣١٠).
(٣) قادة الفتح الإسلامي في أرمينيا، ص (٣١٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٤١).
(٥) قادة الفتح الإسلامي في أرمينيا، ص (٣١١).
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٤١).
(٧) المصدر نفسه (٥/ ٢٤١).

مقدام[١]، وعقد مسلمة للبطال على عشرة آلاف وجعلهم طلائع للجيش[٢].

ومن نوادر ما يحكى عن البطال أنه قال: اتفق لي أننا أتينا قرية لنغير، فإذا بيت فيه سراج وطفل صغير يبكي، فقالت أمه: اسكت، أو لأدفعنك إلى البطال فبكى، وقالت: خذه يا بطال فقلت: هاتيه، وجرت له أعاجيب، وفي الآخر أصبح في معركة مثخوناً وبه رمق فجاء الملك ليون، فقال: أبا يحيى، كيف رأيت؟ قال: وما رأيت؟ كذلك الأبطال تقتل ولا تُقتل، فقال: عليّ بالأطباء، فأتوا فوجدوه قد أنفذت مقاتله، فقال: هل لك حاجة؟ قال: تأمر من يثبت معي بولايتي وكفني والصلاة عليّ، ثم تطلقهم، ففعل، قتل ١١٢هـ وقيل: ١١٣هـ[٣]. قال عنه ابن العماد: ..وله حروب ومواقف ولكن كذبوا عليه، فأفرطوا، ووضعوا له سيرة كبيرة، تقرأ كل وقت، يزيد فيها من لا يستحي من الكذب[٤].

ـ عامر الشعبي سفير عبد الملك لعظيم الروم:

وجّه عبد الملك بن مروان الشعبي إلى ملك الروم ـ يعني رسولاً ـ فلما انصرف من عنده قال: يا شعبي، أتدري ما كتب به إليّ ملك الروم؟ قال: وما كتب به يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت أتعجب لأهل ديانتك، كيف لم يستخلفوا عليهم رسولك؟ قلت: يا أمير المؤمنين لأنه رآني ولم يرك، وفي رواية: يا شعبي، إنما أراد أن يغريني بقتلك. وبلغ ذلك ملك الروم فقال: للّه أبوه، واللّه ما أردت إلا ذاك[٥]. وفي هذا ما يدل على أن الروم لم تكن نياتهم سليمة مع المسلمين، حتى في زمن السلم والمراسلات وعقود الصلح، وأنهم يستخدمون الكيد والمكر لشق الصفوف، والتخلص من الأفذاذ.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٤١).
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٢٦٩).
(٣) المصدر نفسه (٥/ ٢٦٩).
(٤) شذرات الذهب (٢/ ٩٣).
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٠٤).

المبحث الثاني

الفتوحات في الشمال الإفريقي والأندلس

أولاً

فتوحات حسان بن النعمان الغساني

استشهد زهير البلوي وأصحابه في معركة مع البيزنطيين في مدينة درنة بشرق ليبيا ودفن مع أصحابه، وقبورهم هناك معروفة إلى اليوم تسمى مقبرة الشهداء، وكان ذلك ٧١هـ[١]، وكان وقع استشهاد زهير بن قيس البلوي ورفاقه عظيماً على الخليفة عبد الملك بن مروان، لذلك ما إن انتهى من حربه مع ابن الزبير حتى أولى اهتماماً خاصاً للوضع في شمال إفريقيا، لذلك نراه يجهز جيشاً كبيراً قوامه نحو أربعين ألف مقاتل غالبيتهم من أهل الشام، وعهد بقيادته إلى حسان بن النعمان الغساني، الذي كان رجلاً ورعاً تقياً يدل على ذلك تسميته بـ «الشيخ الأمين»[٢]، وقد أقر الخليفة حسان بن النعمان على أن يقيم بمصر استعداداً لإنجاز مهمته وكتب إليه: إني قد أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك من الناس، واخرج إلى جهاد إفريقيا على بركة الله[٣].

وقد وصف ابن الأثير عظمة هذا الجيش من حيث تعداده وعدته بقوله: لم يدخل إفريقيا جيش مثله[٤]، وكان بداية الغزو في عام ٧٤هـ[٥]، وقد تمكن هذا الجيش من فتح المناطق التي مر بها، وكان على مقدمته كل من محمد بن بكير وهلال بن شروان اللواتي[٦]، ووجود هذا الأخير كقائد على مقدمة جيش حسان يشير إلى مشاركة البربر بشكل كبير في هذه الحملة[٧].

---

(١) مصر في العصر الأموي، ص (١٤٠).
(٢) تاريخ إفريقيا والمغرب، ص (٦٧).
(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب (٢٤/ ٣٤).
(٤) مصر في العصر الأموي، ص (١٤٣).
(٥) الكامل في التاريخ (٣/ ٨٢).
(٦) فتوح مصر والمغرب، ص (٢٧٠).
(٧) مصر في العصر الأموي، ص (١٤٣).

١ ـ فتح قرطاجنة:

وصل حسان القيروان ودخلها دون أن يواجه أي مقاومة، ثم توجه بعد ذلك إلى الشمال حيث قرطاجنة القاعدة البيزنطية على الساحل[١]، وسار حسان إلى قرطاجنة، وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقيا، فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة[٢]، ولم تطل المعركة مع البيزنطيين، ودخل حسان قرطاجنة عنوة، ولم يكد حسان ينصرف منها عائداً إلى القيروان حتى عاد أهلها للاعتصام بها مرة أخرى، مما اضطر حسان لفتحها مرة ثانية[٣]، فهدم المسلمون ما أمكنهم منها[٤]، لكي لا يعود إليها من يطمع بالتحصن بها.

ثم أعقب حسان حملته هذه بحملة على طفورة وبنزرت فافتتحهما ولم يتبع المنهزمين من الروم، الذين تحصنوا في مدينة باجة، ولا البربر الذين تحصنوا في مدينة بونة[٥]. وعاد حسان إلى القيروان، لأن الجراح قد كثرت في أصحابه، فأقام بها حتى صحوا[٦].

٢ ـ هزيمة حسان أمام الكاهنة:

وبعد ضرب الروم التفت حسان إلى زعامة البربر، فقال: دلوني على أعظم من بقي من ملوك إفريقيا؟ فدلوه على امرأة تملك البربر وتعرف بالكاهنة[٧]، والتقى حسان بن النعمان بالكاهنة عند نهر يدعى نينى أو مسكيانة على مرحلة من باغاي ومجانة، فانتصرت الكاهنة وقتل من المسلمين خلق كثير وانسحب حسان إلى قابس[٨].

وقامت الكاهنة بالهيمنة على المغرب كله بعد حسان خمس سنين، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت: إن العرب إنما يطلبون من إفريقيا المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقيا كلها، حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر[٩]،

---

(١) نهاية الأرب (٢٢/ ١٩).
(٢) الكامل في التاريخ (٣/ ٨٢).
(٣) رياض النفوس (١/ ٣٢).
(٤) نهاية الأرب (٢٢/ ١٩).
(٥) الكامل في التاريخ (٣/ ٨٢).
(٦)، (٧) المصدر نفسه (٣/ ٨٢).
(٨) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (١/ ١٥١).
(٩) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (١/ ١٥٣).

واستجاب لها قومها من جراوة الذين كان يغلب عليهم الطابع البدوي فذهبوا إلى كل ناحية يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون[١].. فكانت إفريقيا من طرابلس إلى طنجة ظلاً وقرى متصلة فأحرقت جميع ذلك[٢].

وقد أضر هذا التخريب بالبرانس والأفارقة حتى ألجأهم إلى الفرار وطلب المساعدة، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية[٣]، وملكت الكاهنة إفريقيا وأساءت السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم[٤].

٣ ـ استعادة البيزنطيين قرطاجنة وانسحاب حسان إلى سرت بليبيا:

كان لسقوط قرطاجنة بيد المسلمين أثر بالغ على البيزنطيين، ووجدوا في خروج حسان من إفريقيا والفوضى التي عمّت البلاد مجالاً لإعادة نفوذهم في الشمال الإفريقي، فجهز الامبراطور ليونتوس ـ الذي خلف جستنيان الثاني ـ سنة ٦٩٥م حملة كبيرة بقيادة البطريق يوحنا إلى إفريقيا، وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إليها، فتمكنت القوة البيزنطية من استعادة قرطاجنة سنة ٧٨هـ، دون مقاومة تذكر، واضطر أبو صالح نائب حسان عليها أن ينسحب منها مع من كان معه من المسلمين، ودخلها البطريق يوحنا[٥].

ويتضح من دراسة حركة الفتح أن مصير المغرب كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأوضاع في المشرق، وأقام حسان في منطقة طرابلس قرب سرت في المكان المسمى قصور حسان خمس سنين، وحين استقرت الأوضاع في المشرق سارع عبد الملك بإرسال المدد إلى حسان، وأمره بالمسير إلى إفريقيا في أواخر سنة ٨١هـ[٦].

٤ ـ مقتل الكاهنة (٨٢هـ):

كان خالد بن يزيد العبسي أسيراً عند الكاهنة، فأرسل إلى حسان: إن البربر متفرقون لا نظام لهم، ولا رأي عندهم، فاطْوِ المراحل، وجد في السير[٧]. ودارت

(١) الكامل في التاريخ (٣/ ٨٣). (٢) نهاية الأرب (٢٢/ ٢١).
(٣) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (١/ ١٥٤).
(٤) الكامل في التاريخ (٣/ ٨٣).
(٥) فتح العرب للمغرب، حسين مؤنس، ص (٣٧٠).
(٦) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (١/ ١٥٥).
(٧) الكامل في التاريخ (٣/ ٨٣).

المعركة بين الكاهنة وحسان على مقربة من قابس وانتهت بنصر كبير للمسلمين، وبمقتل الكاهنة عند بئر سمي بئر الكاهنة[١]، وبعد هذا الانتصار عاد حسان إلى القيروان في سنة ٨٢هـ، ومنها زحف إلى قرطاجنة وأعاد فتحها[٢]. وبهذا النصر المزدوج خلصت أرض أفريقيا للمسلمين، تلت ذلك فترة استقرار ثم انطلاق لفتح ما تبقى من المغرب[٣].

٥ ـ سياسة حسان مع البربر:

أ ـ إدخالهم في قيادة الجيوش: نهج حسان السياسة نفسها التي سار عليها أبو المهاجر، وهي تأليف البربر وإشراكهم في الفتوح، ولعله توسع في ذلك بإدخالهم في الجيش على نطاق واسع[٤]، فكانت سياسته خطوة كبيرة في اكتساب ولاء البربر وإخلاصهم، ففي حملته الأولى عين هلال بن شروان اللواتي قائداً على مقدمته مع اثنين من العرب هما محمد بن بكير وزهير بن قيس[٥]، كما استعان بالبربر كعيون، فقد أرسل أحد رجالهم الذي أسلم طوعاً ليأتيه بالأخبار عما يجري في معسكر الكاهنة[٦]، ورحب بولدي الكاهنة وولى أكبرهما قيادة الجيش في منطقة الأوراس واثقاً بإخلاصه وحسن إسلامه، مما أدى إلى إسلام نفر كبير من البتر[٧]. ويبدو نجاح سياسته من استغاثة أهل قابس وقفصة وأهل نقراوة به فسرَّه ذلك[٨].

ب ـ المساواة بين البربر والعرب والمسلمين: حين جند حسان البربر ساوى بينهم وبين العرب المسلمين، وذلك وفقاً لمبادئ المساواة في الإسلام، ففرض لهم ومنحهم نصيبهم من الغنائم[٩]. ثم خطا خطوة كبرى بأن قسم المغرب خططاً للبربر[١٠]. ويبدو أن حساناً اعتبر أرض المغرب أرضاً أسلم عليها أهلها[١١].

جـ ـ الاهتمام بالتنظيم الإداري: كان حسان قد اعتنى بالتنظيم الإداري في المغرب

---

(١) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريي (١/ ١٥٧).
(٢) رياض النفوس (١/ ٣٧)، الإسلام والتعريب (١/ ١٥٨).
(٣) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (١/ ١٥٨).
(٤) فتوح مصر وأخبارها، ص (٢٠١).
(٥) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي(١/ ١٥٨).
(٦) تاريخ إفريقيا والمغرب، ص (٥٩، ٦٠).
(٧) فتوح مصر وأخبارها، ص (٢٠١).
(٨) رياض النفوس (١/ ٣٥). (٩)، (١٠) المصدر نفسه (١/ ٣٦).
(١١) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (١/ ١٦٠).

خلال مدة إقامته (٨٢ ـ ٨٦هـ). فقد أنشأ الديوان أو ديوان الجند، وهو سجل يحفظ فيه أسماء المقاتلين وأنسابهم وصفاتهم ومقدار أعطياتهم، ونظم ديوان الخراج بأن عنى بتحديد الجزية والخراج. يقول ابن عذارى: فدون الدواوين، وصالح على الخراج، وكتبه على عجم إفريقيا، وعلى من أقام معهم على دين النصرانية[١]، وكان عامتهم من البرانس إلا قليلاً من البتر[٢].

وقام حسان ببناء دار لصناعة السفن، وأنشأ مدينة إسلامية ثانية وهي تونس، أصبحت رباطاً يحمي القيروان، ومحرساً للبحر، وميناء جديداً للبلاد. وصارت تونس ثانية العواصم الإفريقية حيث أولاها حسان اهتمامه[٣]، واهتم بالقيروان فجدد بناء مسجدها أحسن مما كان عليه أيام عقبة[٤]، واهتم بتعليم البربر مبادئ الإسلام، وترك معهم ثلاثة عشر رجلاً من علماء التابعين يعلمونهم القرآن وشرائع دينهم[٥]، وبث الدعاة في مختلف القبائل لنشر الإسلام بين البربر، فبنوا المساجد، واستلموا المنابر، ومن ذلك بناؤهم لمسجد أغمات سنة ٨٥هـ[٦]، وانتشرت الكتاتيب لتعليم أولاد المسلمين مبادئ القراءة والكتابة[٧].

٦ ـ عزل حسان عن ولاية إفريقيا:

في سنة ٨٥هـ عُزل حسان بن النعمان من قبل والي مصر عبد العزيز بن مروان، ويذكر أن خلافاً نشب بين حسان وعبد العزيز على ولايتي برقة وطرابلس إثر تعيين عبد العزيز والياً منفصلاً عليها، فلم يوافق حسان على هذا الأمر[٨]، ويبدو أن المشكلة هي أن حسان رأى أنه تابع للخليفة مباشرة وأن إفريقيا ولاية[٩]، بينما رأى أمير مصر أنها تابعة له، وأن حسان يجب أن يراجعه، ولذلك أخذ أغلب الغنائم والهدايا الثمينة التي كان حسان ينوي أن يحملها إلى الخليفة في دمشق، فحين وصل حسان إلى دمشق شكاه للخليفة وأعطاه ما تبقى من الغنائم[١٠].

---

(١) البيان المغرب (١/ ٣٨).

(٢) فتوح مصر وأخبارها، ص (٢٠١)، البرانس والبتر من قبائل البربر.

(٣) الإسلام والتعريب (١/ ١٦٤).

(٤) رياض النفوس (١/ ٣٧)، الإسلام والتعريب (١/ ١٦٢).

(٥) البيان المغرب (١/ ٤٣)، الإسلام والتعريب (١/ ١٦٢).

(٦) البيان المغرب (١/ ٤٣).

(٧) الإسلام والتعريب (٢/ ٣١١).

(٨) فتوح مصر وأخبارها، ص (٢٠٣).

(٩) الإسلام والتعريب (١/ ١٦٥).

(١٠) المصدر نفسه (١/ ١٦٥).

وواضح من شكوى حسان أنه يرى أن عبد العزيز يتهمه بالخيانة المالية ظلماً، فحين أراد الخليفة مكافأته برده إلى ولاية إفريقيا رفض حسان وأقسم أنه لا يولى لبني أمية أبداً[١]، ولا يستبعد أن عبد العزيز كان يرغب أن تدار إفريقيا من قبل أحد رجاله، وإصرار عبد العزيز لتولية موسى بن نصير دليل على ذلك[٢].

قال الذهبي عن حسان بن النعمان الغسّاني: من ملوك العرب، ولي المغرب فهذَّبه وعَمَره، وكان بطلاً شجاعاً، مجاهداً لبيباً، ميمون النقيبة كبير القدر، وجهه معاوية في سنة ٥٧هـ فصالح البربر، ورتب عليهم الخراج وانعمرت البلاد، وله غزوات مشهودة بعد قتل الكاهنة، وكان يدعى الشيخ الأمين[٣].

ثانياً

فتوحات موسى بن نصير (٨٥هـ)

لا يتفق المؤرخون على تاريخ محدد لتولية موسى بن نصير على المغرب وعزل حسان بن النعمان عنه، ولكن الأقرب إلى تسلسل الأحداث أن يكون عزل حسان وتولية موسى بن نصير في سنة ٨٥هـ، قبيل وفاة عبد العزيز بن مروان والذي ينسب إليه المؤرخون عزل حسان وتولية موسى[٤]، وبعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان والي إفريقيا ولّى مكانه موسى بن نصير، وكان في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية.

وعندما توافرت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيباً، فكان مما قاله: وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد اللّه، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه اللّه لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة إن شاء اللّه، ولا حول ولا قوة إلا باللّه[٥].

(١) المصدر نفسه (١/ ١٦٥).
(٢) المصدر نفسه (١/ ١٦٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٤٠).
(٤) الولاة والقضاة، ص (٥٢، ٥٣)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٩٦).
(٥) مصر في العصر الأموي، ص (١٥٥، ١٥٦).

وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقيا حشد جيشه، وأكمل استحضاراته الإدارية وساوى نفسه برجاله، وسار موسى متوجهاً إلى المغرب، وكان الأمن غير مستتب، فلما وصل إفريقيا برز موسى بن نصير قائداً منتصراً في فتح المغرب ويرجع ذلك إلى السياسة التي اتبعها مع الأهالي، وهي سياسة التعاون والاندماج الكلي مع البربر[١]، فحين كان يقدم على موسى وفود القبائل ليعلنوا ولاءهم كان يولي عليهم رجلاً منهم، ويأخذ رهائن من خيارهم لضمان هذا الولاء، كما فعل مع وفد كتامة[٢]، ومع وفد مصمودة وغيرهم[٣]، ولكن ما أن يعتنق البربر الإسلام، كان موسى يقر زعماءهم في الرئاسة مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد كافٍ من المقاتلين للانضمام لمقاتلة العرب.

وأعطت سياسة التفاهم هذه ثمارها، فقد استطاع موسى أن يجند أعداداً كبيرة من قبائل البربر مثل كتامة وهوارة وزناتة ومصمودة[٤]، وألحق موسى بن نصير هؤلاء المقاتلة من البربر مع جراوة الذين كانوا قد جندوا في عهد حسان، ووضعهم جميعاً في حامية طنجة تحت قيادة طارق بن زياد الذي وليها سنة ٩٠هـ من قبل موسى بن نصير[٥].

ومن الوسائل التي استخدمها موسى في تأليف القلوب وضبط الأمور، وتقوية الدولة الإسلامية:

١ ـ عتق بعض السبايا:

كان موسى بن نصير يعتق بعض سباياهم ويتولاهم في نطاق خطته لتشجيع البربر على الدخول في الإسلام، فكان يشتري من السبايا من كان في ظنه أن يقبل الإسلام.

٢ ـ تطبيق مبدأ المساواة:

ساوى موسى في النفل بين البربر المسلمين والعرب الذين أبلوا بلاء حسناً، وذلك تشجيعاً وتقديراً لبلائهم، وبهذا التصرف تمكن موسى من جلب أعداد كبيرة إلى الإسلام وإشراكهم في الجيش الإسلامي[٦].

---

(١) البيان المغرب (١/ ٤٢).

(٢) الإسلام والتعريب (١/ ١٧٢).

(٣) البيان المغرب (١/ ٤٢).

(٤)، (٥) البيان المغرب (١/ ٤٢).

(٦) الإسلام والتعريب (١/ ١٧٤).

٣ ـ التنظيم الإداري:

ويبدو أن موسى بن نصير حين دخل إفريقيا وجدها في حاجة ماسة إلى إدارة مستقرة، فقد انفردت كل قبيلة بربرية بناحيتها واستبدت بها دون أن تخضع لولاة أو عمال، فأخذ موسى يعمل على إخضاع كل المغرب إلى الحكم الإسلامي، فبدأ ينقل البيزنطيين من المدن الساحلية والنواحي الداخلية، وأسكنهم قرب مراكز الحكم الإسلامي مما يتيح للمسلمين مراقبتهم ودعوتهم وتعليمهم.

٤ ـ تكوين القوة البحرية:

أنشأ حسان بن النعمان دار صناعة السفن بتونس، ثم استكملها بعده موسى بن نصير وعبيد اللّه بن الحباب، ويذكر أنه صنع بها مراكب مما مكنه من غزو صقلية.

٥ ـ سك النقود:

ويبدو أنه بادر بسك النقود بإفريقيا، إذ يرى حسن حسني عبد الوهاب أن أول أمير سك النقود بإفريقيا، هو موسى بن نصير سنة ٩٥هـ(١).

وتتلخص أعمال موسى بن نصير في حرصه على نشر الإسلام بين البربر، ولهذا كان يختار عمالاً يحسنون السيرة في أهالي المناطق المفتوحة(٢)، واختار فئة من أصحابه لتعليم البربر حديثي الإسلام القرآن ومبادئ الإسلام. فقد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين(٣)، وذكر ابن عذارى أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب في طنجة يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهذه السياسة هي استمرار لسياسة عقبة بن نافع وحسان بن النعمان(٤). وهذا أدى إلى انتشار الإسلام في المغرب الأقصى(٥).

واستطاع موسى بن نصير بعد حملات جهادية منظمة السيطرة على جميع شمال إفريقيا من برقة إلى المحيط الأطلسي، وأصبح سيد إفريقيا بدون منازع، وكان أولاده من ضمن قادته في فتوحاته الكبرى، وكانت له حملات بحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط، ومن أشهر تلك الحملات ما سمي بحملة الأشراف، بسبب

---

(١) الإسلام والتعريب (١/ ١٧٦).
(٢) فتوح مصر وأخبارها، ص (٢٠٥).
(٣)، (٤) البيان المغرب (١/ ٤٢).
(٥) الإسلام والتعريب (١/ ١٧٧).

اشتراك أشراف الناس فيها، وكانت وجهتها جزيرة صقلية حيث بلغ عدد مقاتليها بين التسعمائة والألف، وكانت بقيادة ابنه عبد الله الذي حقق نصراً حاسماً حتى غنم المسلمون غنائم كثيرة بلغ فيها سهم المقاتل مائة دينار ذهباً[١].

هذا ولم تقتصر حملات موسى بن نصير البحرية على مقاتلة إفريقيا بل شملت دعم الحملات البحرية في ولاية مصر[٢]، هذا وقد تُوّجت هذه الانتصارات البحرية الرائعة التي حققها الأسطول الإسلامي بفتح بلاد الأندلس الذي خطط له موسى بن نصير ونفذه طارق بن زياد، وتم بشكل نهائي بتوفيق الله ثم جهود هذين القائدين العظيمين[٣].

• فتح الأندلس وجهود طارق بن زياد:

كان الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيريَّة (أسبانيا والبرتغال) أمراً طبيعياً حسب الخطة التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم، وهي تأمين حدودهم ونشر دعوتهم وذلك بالمضي في جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود، لنشر العقيدة الإسلامية التي تقتضي أن يستمر المدُّ الإسلامي ما دامت فيه القوة على الاستمرار، وبعد أن أرسى موسى بن نصير، ومن معه، كلمة الإسلام بجهودهم في المغرب الكبير، كانت الخطوة التالية الطبيعية هي فتح الأندلس.

وقد عمل موسى على إكمال جهود من سبقه من الجند الدعاة ـ قادة وجيشاً ـ في ترسيخ قدم الإسلام في الشمال الإفريقي، فقد عمل على تثبيت الإسلام في قلوب الناس، ونشط في تعليمهم وتربيتهم على مبادئ الدين الحنيف، وآتت جهوده الدعوية ثمارها الزكية، فقد أصبح البربر في تلك الديار من أخلص الناس للإسلام والدعوة إليه والجهاد في سبيل نشر تعاليمه، ولقد كانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الإيبيريَّة من المسلمين البربر، الذين تحمسوا لدعوة الإسلام، حباً لها وتضحية من أجلها، لا طمعاً في مغنم، أو حرصاً على جاه، فهذا هو هدف جميع الفتوحات الإسلامية التي يكفي الاطّلاع عليها ومعرفة طبيعتها، لرفض الادعاءات وإسقاط المفتريات المزوّرة، التي تشير ـ تلميحاً أو تصريحاً ـ إلى اعتبار الغنائم سبب هذا الفتح، وهو أمر عارٍ من الحجج والبراهين والأدلة،

---

(١) مصر في العصر الأموي، ص (١٦١).
(٢) مصر في العصر الأموي، ص (١٦١).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٦٢).

وإنما هي أوهام لا تحمل أي رائحة من الطابع العلمي أو السند التاريخي[١].

١ ـ فكرة الفتح:

يمكن القول بأن فكرة فتح الجزيرة الإيبيريَّة هي فكرة إسلامية تماماً. بل يُروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فقد كان عقبة بن نافع الفهري يفكر في اجتياز المضيق إلى إسبانيا لو استطاع، وسبق للمسلمين نشاط على شواطئ إسبانيا الشرقية وبعض الجزر القريبة منها، وهي مَيُورْقة ومَنورقة، واليابسة، يذكر الذهبي أنه في سنة ٨٩هـ جهز موسى بن نصير ولده عبد اللّه، فافتتح جزيرتي مَيورْقة ومَنورقة[٢]، أما الاتصال بيُليان حاكم مدينة سبتة أو بغيره من الإسبان فإنه جاء مواتياً على ما يبدو، وفي الوقت الذي كان موسى بن نصير يفكر في تنفيذ فكرة الفتح، ولكن كيف تم الاتصال بالجانب الإسباني ـ يُلْيان وأنصار الملك المخلوع وغيرهم ـ؟

اختلفت الأقوال فيما إذا تم الأمر بالمراسلة أو باللقاء الشخصي، وأين؟ إذا كان هذا الاتصال أصلاً قد تمّ، وبهذا المستوى على كل حال فإن اتصالات الجانب الإسباني بموسى ومساعداتهم ـ أثناء عمليات الفتح ـ ربما كانت عاملاً مساعداً سهّل سير الفتح أو عجّل به. لكن المبادأة ومردّ العمليات وإنجازها كانت من الجانب الإسلامي الذي اندفع مع الفتح بقوة فائقة معتمداً على اللّه في تحقيق ما يصبو إليه من هداية الناس.

وقد استشار موسى الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) قبل اتصالاته بيُليان، أو اتصال هذا الأخير بموسى. وقد ترددت الخلافة ـ بادئ الأمر ـ بالقيام بمثل هذا العمل الكبير، خوفاً على المسلمين من المخاطرة في مفاوز، أو إيقاعهم في مهالك، ولكن موسى أقنع الخليفة بالأمر، ثم تمّ الاتفاق على أن يَسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية[٣].

٢ ـ الحملة الاستطلاعية، أو حملة طريف:

نفذ موسى أوامر الوليد بأن جهز حملة استطلاعية مؤلفة من خمسمائة جندي، منهم مائة فارس بقيادة طريف بن مالك الملقب بأبي زُرعة، وهو مسلم من البربر،

---

(١) التاريخ الأندلسي، ص (٤٣، ٤٤).

(٢) العبر في خبر من غبر (١/ ٣٠٤) نقلاً عن التاريخ الأندلسي، ص (٤٥).

(٣) التاريخ الأندلسي، ص (٤٥).

وجاز هذا الجيش الزُّقاق ـ اسم يطلق أحياناً على المضيق[١] ـ من سبتة بسفن يُلْيان أو غيره، ونزل قرب ـ أو في ـ جزيرة بالوما في الجانب الإسباني، وعرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد: جزيرة طريف[٢]، وكان إبحار هذه الحملة من سبتة في رمضان عام ٩١هـ (تموز ٧١٠م)، وقد جال طريف في المدينة والنواحي المحيطة بها، واستطلع أخبار العدو في تلك الجهات[٣]، وعادت حملة طريف بالأخبار المطمئنة والمشجعة على الاستمرار في عملية الفتح[٤]، فقد درس أحوال المنطقة وتعرّف على مواقعها، وأرسل جماعات إلى عدة أماكن ـ منها جبل طارق ـ لهذا الغرض، فكانت هذه المعلومات عوناً في وضع خُطة الفتح ونزول طارق بجيشه على الجبل[٥].

٣ ـ العبور:

لما رأى موسى بن نصير ما حققته حملة طريف، وصحّ عنده ما نقل إليه من أحوال الأندلس، بعث طارق بن زياد في سبعة آلاف من المسلمين. أكثرهم من البربر والموالي، وأقلهم من العرب. ولما احتاج طارق إلى أعداد في فترة تالية أمدّه موسى بخمسة آلاف، فتمّ جيش طارق من السفن لنقل الجنود إلى بر الأندلس. وقد حرص القائمون على الحملة لاستكمال عملية نزول الجند على أن يُعموا أخبار الحملة على الناس، لذلك أحضر يُليان السفن إلى سبتة ليلاً، وأخذت تنقل الجنود تباعاً، ويبدو أن عملية إبحار الجند اقتضت أكثر من ليلة، فقيل إن الجند الذين نزلوا بر الأندلس كانوا يكمنون في النهار حتى لا يشعر بهم أحد.

وكانت السفن تختلف بين سبتة والأندلس، وأهل الأندلس لا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت السفن تختلف به من المنافع والمتاجر، ولما علم أهل الأندلس بالحملة، كانت عملية الإبحار قد تمت بسلام في رجب من عام اثنين وتسعين للهجرة، ونزل طارق بالجند عند جبل كالبي، وهو الجبل الذي أخذ اسم طارق، وصار يعرف بجبل طارق، وقيل: لما ملك رئيس الموحدين عبد المؤمن الأندلس وعبر جبل طارق أمر ببناء مدينة على الجبل وسماه جبل

---

(١) التاريخ الأندلسي، ص (٤٥) نقلاً عن ابن خلدون.
(٢) التاريخ الأندلسي، ص (٤٦).
(٣) الفن العسكري الإسلامي، د. ياسين سويد، ص (٣٣٤، ٣٣٥).
(٤) التاريخ الأندلسي، ص (٤٦).
(٥) المصدر نفسه، ص (٤٦).

الفتح، ولكن الاسم لم يثبت له، وظل اسم جبل طارق جارياً على الألسنة[١].

وسار طارق بالجيش نحو الجزيرة الخضراء ففتحها، وكان لذريق في شمال الأندلس مشغولاً في محاربة البشكنس، وقيل في محاربة الفرنسيين، فأرسل خليفته «تدمير» يُعْلِمُه بالهجوم الإسلامي، فعاد لذريق مسرعاً لصده، وفي طريقه لقتال المسلمين عرّج على العاصمة طليطلة دون أن يدخلها، وصالح أسرة غيطشة ودعاهم والقوط المخالفين له إلى الانضمام إليه في حرب العدو المشترك، فساروا معه، وقيل إن لذريق عهد بقيادة ميمنة جيشه وميسرته إلى ابني غيطشة[٢].

وعلم طارق بالحشود التي حشدها لذريق لمجابهته، فكتب إلى موسى ينبئه بضخامتها ويطلب منه مدداً، فأمدّه موسى بخمسة آلاف مقاتل[٣]، ويصف المقري، نقلاً عن بعض المؤرخين، جند طارق بقوله: لقد أقبلوا وعليهم «الزرد»، وفوق رؤوسهم «العمائم البيض» وبأيديهم «القسي العربية»، وقد تقلدوا السيوف، وحملوا الرماح فلما رآهم لذريق دخله منهم الرعب[٤]، وذكر ابن الأثير: أن طارقاً لما ركب البحر غلبته عينه فرأى النبي ﷺ ـ في نومه ـ ومعه المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف، وتنكّبوا القسي، فقال له النبي ﷺ: يا طارق تقدم لشأنك، وأمره بالرفق بالمسلمين، والوفاء بالعهد، فنظر طارق فرأى النبي ﷺ وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه، فاستيقظ من نومه مستبشراً وبشر أصحابه، وقويت نفسه ولم يشك في الظفر[٥].

٤ ـ معركة وادي لكّة والعبور إلى الأندلس:

لم يعد بين طارق وخصمه لذريق سوى عاملي الزمن، والأرض، وأصبح من الواضح أن طارقاً أكثر حرية من خصمه بعد سقوط ولاية «الجزيرة الخضراء» بيده، وهزيمة قائد القوط «بنج» وهلاك فرقته بكاملها على يد جيش طارق، وأصبح قادراً على اختيار المكان المناسب للقتال، فقد كان اختيار ميدان القتال من قبله من أهم عناصر نجاحه في هذه المعركة[٦]، إذ كان قد أسند ميمنة جيشه إلى بحيرة خانداً شرقاً، الممتدة عدة كيلومترات، والتي يصب فيها نهر البرباط الذي يمر بوادي

---

(١) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص(٢٩٩).
(٢)، (٣) المصدر نفسه، ص(٣٠٠).
(٤) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (١/٢٢٦، ٢٢٧).
(٥) الكامل في التاريخ (٣/٢٠٩).
(٦) الفن العسكري الإسلامي، ص(٣٣٩).

البرباط، وأسند ميسرته إلى الوادي المذكور غرباً، كما أسند مؤخرة هذا الجيش إلى جبال «رتينا» العالية جنوباً، منتظراً أن يأتيه العدو من الشمال بعد أن وضعه في موضع الاضطرار لا الاختيار[١].

وما أن استكمل لذريق عدة الجيش وعديده حتى تحرك جنوباً لمواجهة طارق وجيشه في المكان الذي اختاره هذا الأخير، فوصله في الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام ٩٢هـ، وعسكر بجيشه على الجهة الشمالية للوادي[٢]، والتقى الجيشان على نهر لكة من أعمال شذونة لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢هـ، واستمرت الحرب بين الجانبين ثمانية أيام، استشهد فيها ثلاثة آلاف من المسلمين ولكن الهزيمة دارت على لذريق وجيشه، وقيل إن لذريق غرق وقتل كثير من جيشه.

ومما يروى عن أبناء غيطشة أنهم خذلوا لذريق وتركوه هم وأنصارهم أمام المسلمين ظناً منهم أن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنائم عادوا إلى بلادهم، فبقي الملك لهم[٣]، ولعل خذلان آل غيطشة وأنصارهم لذريق كان بدافع الانتقام منه[٤]، ولا شك أن هذا الفتح مثل غيره يعود إلى قوة المسلمين بتمكن العقيدة، وتغلغل معانيها في نفوسهم، وحرصهم على الشهادة في سبيلها[٥].

وبعد هذا النصر العظيم تعقب طارق فلول الجيش القوطي التي لاذت بالفرار، وسار الجيش الإسلامي فاتحاً لبقية مناطق الجزيرة الإيبيريّة[٦].

٥ ـ الدروس المستخلصة من معركة وادي لكّة:

أ ـ **أسلوب «الحذر واليقظة» تجاه الحلفاء**: لم يكتف موسى بن نصير بقول يُليان ووعده بالعون والمساعدة في فتح الأندلس، بل كلفه بمهمة استطلاعية في تلك البلاد، ليختبر صدقه ووفاءه بعهده، وقد كان يليان صادقاً بما قال، ووفياً لما تعهد به، كما كان موسى حذراً ويقظاً ونبهاً.

ب ـ **أسلوب الاستطلاع قبل الإنزال**: أراد موسى أن يستطلع البيئة التي سوف يقتحمها، والعدو الذي سوف يقاتله، والبقعة التي سوف يتم النزول فيها، وذلك

---

(١) الفن العسكري الإسلامي، ص (٣٣٩).
(٢) المصدر نفسه، ص (٣٤١).
(٣) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٠٠).
(٤) المصدر نفسه، ص (٣٠١).
(٥) التاريخ الأندلسي، ص (٥٥).
(٦) المصدر نفسه، ص (٥٧).

قبل أن يدفع بجيشه في مغامرة مجهولة النتائج، فأرسل حملة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك، وما أن عادت تلك الحملة بالمعلومات الوافية عن البيئة والعدو وبقعة النزول حتى اطمأن إلى سلامة قراره، فكتب إلى الخليفة يستأذنه بالفتح[١].

جـ ـ **الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة**: رغم ما سبق من اختبار سواء بواسطة الحملة التي قام بها يليان أو حملة طريف، فقد أبى الخليفة إلا أن يكرر الاختبار، فقال لموسى: خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال[٢]. ولما لفت موسى نظر الخليفة إلى سهولة عملية الإبحار والإنزال أصر الخليفة قائلاً: وإن كان، فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه[٣]. وذلك يدل على مدى حرص الخليفة على التأكد من نجاح العملية وسلامتها، وتأمين الفوز للمسلمين بدل أن يغرر بهم في بحر شديد الأهوال. وهذا الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة قبل الإنزال والاقتحام سهّل عملية الفتح إلى حد كبير، وأعان المسلمين في مواجهتهم الحاسمة للعدو، إذ أمّن لهم عملية «المباغتة» لعدو لم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة أبداً[٤].

د ـ **أسلوب المباغتة**: إن الأسلوب الذي اتبعه طارق في إيصال المسلمين إلى ساحل الأندلس منفذاً تعليمات الخليفة، كان أسلوباً بارعاً إلى حد كبير، فهو لم يبحر بالمسلمين دفعة واحدة، بل أبحر على دفعات متتالية، وفي مراكب تجارية، وما أن التأم شمل المسلمين، في تلك البلاد، حتى فوجئوا بالهزيمة الساحقة التي لحقت بهم على يد هؤلاء المسلمين، ومقتل أحد أهم قادتهم «بنج» ابن أخت مليكهم لذريق، فانتزع المسلمون ـ بهذه المباغتة وهذا الانتصار ـ المبادرة من يد أعدائهم، وأسقط في يد القوط، وأصبحت هزيمتهم على يد المسلمين قدراً محتوماً[٥].

هـ ـ **تنفيذ أسلوب «رأس الجسر»**: نفذ طارق ـ فور وصول جيشه إلى الساحل الأندلسي ـ أسلوب «رأس الجسر»، وهو أسلوب يعمل به في الحروب الحديثة، فأقام على الساحل قاعدة حصينة سوّرها وحماها، وانطلق منها في

---

(١) الفن العسكري الإسلامي، ص (٣٤٩).
(٢) نفح الطيب (١/ ٢٥٣).
(٣) البيان المغرب (٢/ ٥)، التاريخ الأندلسي، ص (٤٦).
(٤)، (٥) الفن العسكري الإسلامي، ص (٣٥٠).

فتوحاته، تماماً كما يفعل أي جيش في أيامنا هذه[١].

و ـ اختيار ميدان القتال: لقد أحسن طارق اختيار ميدان القتال، وفرض على العدو أن يجابهه من جهة واحدة هي جبهة الشمال، ووضعه في موضع الاضطرار لا الاختيار.

ز ـ المبادرة بالقتال: كان طارق في هذه المعركة هو البادئ بالقتال، بل بادر إلى اجتياز النهر لملاقاة عدوه، فناوشه ثلاثة أيام، ثم شن عليه بعد ذلك هجوماً عاماً انتهى بهزيمته.

حـ ـ صدق المسلمين ووفاؤهم بالعهود: كان المسلمون صادقين ووفوا بعهودهم تجاه يُليان وأبناء غيطشة، فأعادوا لهؤلاء ضياع أبيهم واحترموا تعهداتهم ليُليان وأنصاره، وكانت نتيجة ذلك أن اعتنقت سلالة كل من يليان وأبناء غيطشة الإسلام، فكان فيها من حسن إسلامه مثل أيوب (توفي سنة ٢٢٦هـ) وسليمان (توفي سنة ٣٧٩هـ) وأحمد «توفي سنة ٣٨٨هـ» من سلالة يليان، ومثل أبي بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس، وهو من سلالة سارة بنت المنذر بن غيطشة آخر ملوك القوط[٢].

ط ـ استثمار النصر: طبق طارق بالبداهة، مبدأ من أهم المبادئ العسكرية الحديثة وهو استثمار النصر، إذ أنه ما أن هزم لذريق في وادي لكّة، حتى لاحق فلول جيشه دون أن يترك لهذا الجيش مجالاً للتجمع وإعادة التنظيم من جديد، وكان طارق قد وضع لنفسه هدفاً أساسياً هو احتلال طليطلة عاصمة العدو، إذ أنه يعرف، ولا شك، أنه باحتلاله لعاصمة المملكة، تفقد هذه المملكة مركزيّتها، ويفقد الملك قاعدة ملكه وحكمه، ولكن طارقاً مع ذلك، لم ينس أن يرسل جيشه في حملات إلى مختلف أنحاء البلاد لكي يحتل المواقع الاستراتيجية فيها، فيفقد القوط كل أمل بمتابعة القتال والنصر، فأرسل إحداها إلى داخل البلاد شمالاً نحو قرطبة، وكانت قصبة هامة في الأندلس، وأرسل أخرى شرقاً، على الساحل الجنوبي للبلاد، نحو ملقة، وأرسل ثالثة إلى داخل البلاد شمالاً بنحو غرناطة، وكانت تشكل موقعاً استراتيجياً هاماً في البلاد، ثم توجه بنفسه شمالاً إلى العاصمة طليطلة واستولى عليها، فظل الحكم القوطي، من جراء ذلك، شريداً طريداً في أنحاء الأندلس إلى أن سقط[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص (٣٥٠).

(٢) الفن العسكري الإسلامي، ص (٣٥٢).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٥٣).

٦ ـ الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرق السفن:

يعتقد كثير من المؤرخين أن طارقاً أحرق سفنه، بعد أن أنزل جيشه على الساحل الأندلسي، ثم خطب بجنده الخطبة الشهيرة: أيها الناس، أين المفر؟ البحر وراءكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب من رُعْبها...

وجاء في الخطبة: وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات بالدرّ والمرجان، والحُلل المنسوجة بالعقبان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمُجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله إلى إعلاء كلمته،.. إلخ الخطبة[١]، وبالإمكان إيراد الملاحظات التالية حول الخطبة:

أ ـ لم تكن الخطبة وما فيها من السجع من أسلوب ذلك العصر ـ القرن الأول الهجري ـ، وغير متوقع لقائد جيش أن يعتني بهذا النوع من الصياغة.

ب ـ إن المعاني التي تناولتها الخطبة لا تتلاءم وروح الإسلام العالية، التي توافرت لدى الفاتحين، ومقدار حبهم للإسلام وإعلاء كلمته، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك، فهي لا تشيد بدوافع الفتح وأهدافه ـ وهي معروفة مألوفة ـ التي أنبتتها ورعتها العقيدة الإسلامية، عاملة على ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده، لتعلو راية الإسلام وتسود شريعته، ويكون الدين كله لله، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

جـ ـ يلاحظ في الخطبة عديد من الأخطاء، ويلاحظ فيها التناقض في المعاني، وبعض ما فيها مخالف لحقائق تاريخية، كاستعمال «اليونان» التي ربما جاء ذكرها للسجع، فالمؤرخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا في هذه المناسبة كلمة القوط أو الروم[٢]، وكذلك العلوج والعجم أو

---

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٣٢١، ٣٢٢).

(٢) نفح الطيب (١/ ٢٦٤)، التاريخ الأندلسي، ص (٦٠).

المشركين والكفار[١]، وليس لدينا نص يحتوي مثل هذا الاستعمال، غير أن ابن خلكان ـ وهو مشرقي ـ أورد هذا الاستعمال في غير الخطبة[٢] ثم قوله: «وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين..» فالذي انتخبهم موسى بن نصير وليس الوليد[٣].

د ـ كان المتوقع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأمين ﷺ، أو وصايا وأحداث ومعانٍ إسلامية أخرى تناسب المقام كالمعهود[٤]. وغير ذلك من الملاحظات.

وكل ما تقدم لا يمنع أن يكون طارق جيد الكلام، وأنه خطب جنده يحثهم على الجهاد[٥]، ويروي المَقري أبياتاً قالها طارق بهذه المناسبة:

ركبنا سَفيناً بالمجاز مُقَيَّرا   عسى أن يكون اللّه منا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنَّة   إذا ما اشتهينا الشيء منها تيسَّرا
ولسنا نُبالي كيف سالت نفوسنا   إذا نحن أدركنا الذي كان أجْدرا[٦]

وقال ابن بشكوال: إن طارقاً كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه[٧]. ووجهة هذه الأبيات تغاير وجهة الخطبة، فهي منسجمة، والمعاني الإسلامية مستمدة من قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وأما موضوع حرق طارق للسفن التي عبر بها المضيق، كي يقطع على الجيش الإسلامي كل أمل في العودة، فيستميت في الدفاع، ذكر بعض المؤرخين ذلك؟ لكن لماذا يحرق طارق السفن، سواء امتلكها المسلمون أم يُلْيان؟ وكان طارق وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة، وإنهم في ساعة عبورهم جاءوا مجاهدين مستعدين للشهادة، وطارق متأكد من هذه المعاني، فإذا كانت السفن ليُلْيان فليس من حق طارق التصرف بها، وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليماً أو مناسباً، ما دام يحتاج إليها، وإلى النجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأي غرض،

---

(١) نفح الطيب (١/٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٠).
(٢) التاريخ الأندلسي، ص (٦٠)، وفيات الأعيان (٥/١٢٣).
(٣) التاريخ الأندلسي، ص (٦٠).
(٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (٦١).
(٧) نفح الطيب (١/٢٣١)، التاريخ الأندلسي، ص (٦١).

وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة واحتاجها فيما بعد[١]، كما أن طارقاً كان قادراً على إعادتها إلى الساحل الإفريقي.

إن الدوافع ازسلامية والهدف الذي جاء الجيش من أجله أقوى في الاندفاع من أي سبب آخر، وما كان المسلمون يتخلفون عن خوض معركة، أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله، بل لذلك أتوا، والمصادر الأندلسية ـ لا سيما الأولى ـ لا تشير إلى قصة حرق السفن التي لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة[٢].

٧ ـ عبور موسى بن نصير إلى الأندلس:

كان موسى بن نصير من التابعين ـ رحمهم الله تعالى ـ، وقد روى تميم الداري رضي الله عنه: وكان عالماً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً لله تعالى[٣]، وكان من رجال العلم حزماً ورأياً وهمّة ونبلاً وشجاعة وإقداماً[٤]، وكان حين وجّه طارقاً لفتح الأندلس كان يتلقى الأخبار ويراقب الأحداث، منذ بدايتها، ويُهيىء المتطلبات لإنجاز هذا الفتح الكبير، بهمة المؤمن وإخلاص التقي، ويدعو الله أن ينزل نصره على المسلمين[٥].

وكان موسى بن نصير يعتقد اعتقاداً كبيراً في أهمية الدعاء والتضرع لتحقيق النصر على الأعداء، ويعتبر الدعاء من أسباب النصر التي أرشد إليها القرآن الكريم ومارسها رسول الله ﷺ. يقول ابن الكردبوس: وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقاً مُكبّاً على الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالى، والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين، وما عُلم أنه هزم له جيش قط[٦]، وكان طارق بن زياد على صلة بقائده موسى بن نصير، يفتح الفتوحات باسمه وبتعليماته، ويخبره عن كل شيء أولاً بأول منذ بداية الفتح، ويستشيره فيما يحتاج إليه، وقد رأينا كيف طلب المدد قبل معركة وادي لكّة، وكان موسى على علم تام بأحوال الفتوح.

وبعد سنة تقريباً من عبور طارق ـ وتفرق جيشه وتوزيعه على المناطق والمدن التي فتحت ـ خاف طارق أن يُغلب وأن يَستغل القوط قلة جيشه، فأرسل إلى موسى يستنجده، واستخلف موسى على القيروان ولده عبد الله.. ونهض من القيروان سنة

---

(١) التاريخ الأندلسي، ص (٦٢).
(٢) المصدر نفسه، ص (٦٢).
(٣) وفيات الأعيان (٥/٣١٨، ٣١٩).
(٤) العبر في خبر من غبر، للذهبي، (١/١١٦).
(٥)، (٦) العبر في خبر من غبر، للذهبي، ص (٦٧).

ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم[١]، وتحرك موسى بجيشه نحو شذونة، فكانت أول فتوحاته، ثم توجه إلى مدينة قرمونة وليس بالأندلس أحصن منها، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال، فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يُلْيان، دخلوا إليهم كأنهم فُلال، وطرقهم موسى بخيله ليلاً ففتحوا لهم الباب، وأوقعوا بالأحراس، فملكت المدينة[٢] فافتتحها.

وتوجه بعد ذلك إلى أشبيلية جارتها فحاصرها وهي أعظم مدائن الأندلس.. فامتنعت شهراً على موسى ثم فتحها اللّه عليه.. ثم سار إلى مدينة ماردة، وفتح في طريقه إليها لَبْلَة وباجة ثم فتح ماردة صلحاً بعد قتال وجهاد عظيم[٣]، وأقام موسى في ماردة زيادة على شهر يرتب أحوالها وينظم أمورها، ويريح الجند من العناء، ويستعد لاستئناف السير[٤].

ووجه موسى ابنه عبد العزيز من ماردة إلى أشبيلية، وكانت فلول القوط من لبلة وباجة قد اجتمعت فيها، وقتلوا العديد من المسلمين، منتهزين فرصة انشغال موسى بحصار ماردة، وبلغه الخبر خلال الحصار، فأعاد عبد العزيز فتح أشبيلية ثم فتح لبلة وباجة[٥]، وأصبحت المدن والقرى تتساقط أمام جيوش الفاتحين كتساقط الأوراق من على الأشجار في فصل الخريف.

٨ ـ لقاء موسى وطارق:

في بداية ذي القعدة سنة ٩٤هـ ابتدأ موسى بالسير صوب طليطلة، وكتب إلى طارق بالتوجه إليه في مجموعة من جيشه ثم جاءه طارق. ذكر البعض أن لقاءهما كان عند طليطلة أو قرطبة، ورجح الدكتور الحجي العالم البارز في تاريخ الأندلس بأن اللقاء كان خارج مدينة طلبيرة التي تبعد ١٥٠كم غرب طيطلة[٦]، ووصل موسى وطارق إلى طليطلة في ذي القعدة ـ ذي الحجة أو آخر سنة ٩٤هـ وأقاما مع الجيش الإسلامي فصل الشتاء أو جله في طليطلة، يرتبون أحوالها وينظمون شؤونها، ويستريحون ويتهيأون، ويخططون لفتح شمال شبه الجزيرة الأيبيريَّة.

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص (٦٨).
(٢) نفح الطيب (١/ ٢٣١)، التاريخ الأندلسي، ص (٧٤).
(٣) التاريخ الأندلسي، ص (٧٤ ـ ٧٦).
(٤) المصدر نفسه، ص (٧٨).
(٥) التاريخ الأندلسي، ص (٧٨).
(٦) المصدر نفسه، ص (٨٣).

وكتب موسى والقادة الآخرون إلى الخليفة الوليد ـ وربما ليس لأول مرة ـ أخبار الفتح، وضربت العملة الإسلامية لأول مرة في الأندلس، وقام بالدعوة إلى الله وتعليم الناس حقائق الإسلام وشرحها لهم ودعوتهم إليه، بعد أن رآه أهل البلاد عملياً في خلق الفاتحين. ولعلهم أرسلوا فرقاً إلى بعض المناطق، فقد كان طارق خبر أحوال طليطلة لا سيما شمالها، إذ كان قد وصل إلى مدينة المائدة (في منطقة وادي الحجارة)[١].

وأما ما تحدثت عنه المصادر في قصة الخلاف الذي قيل إنه حدث بين القائدين الكبيرين موسى وطارق، وتبالغ هذه المصادر؛ فترجع أمر هذا الخلاف إلى حسد دب في نفس موسى على مولاه طارق وعلى ما حققه من نجاح، وتنسب إلى موسى أنه أهان طارقاً بأن وضع السوط على رأسه[٢]، فهذه روايات ناقشها عدد من الباحثين وأبانوا ضعفها وسقوطها وتفاهتها، كمحمود شيت خطاب[٣]، وعبد الله عنان[٤]، ود. عبد الرحمن الحجي[٥]، ود. محمد بطاينة[٦]، ود. عبد الشافي محمد عبد اللطيف[٧]، وغيرهم، وإن كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة القضايا أو استفهامه من طارق خطته وإبداء الملاحظات عنها، تخوفاً من الأذى، وعندما استفسر موسى من طارق عن سبب الإيغال والتقحم في بلاد العدو، اعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه، وقبل موسى عذره. وصارا بعدها أخوين مجاهدين، ينشران دين الله، ويُعليان كلمته، ويبلغان للناس شريعته[٨]، كما لا ننسى أن طارقاً جندي من جنود موسى، والانتصارات التي حققها طارق إنجازات تكتب في صفحة موسى القيادية[٩].

وعند انتهاء الشتاء وحلول الربيع سنة ٩٥هـ، تهيأ الجيش الإسلامي لترك طليطلة ثم أوغل شمالاً ففتح مدن لاردة ووشقة وطركونة وبرشلونة، كما فتح بلنسية

(١) المصدر نفسه، ص (٨٥).
(٢) البيان المغرب (٢/ ١٦)، العالم الإسلامي، ص (٣١٦).
(٣) قادة فتح المغرب (١/ ٢٥١ ـ ٢٥٥).
(٤) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص (٩١، ٩٢).
(٥) التاريخ الأندلسي، ص (٩٠).
(٦) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٠٣).
(٧) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣١٦).
(٨) التاريخ الأندلسي، ص (٩٠).
(٩) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٠٣).

وطرطوشة على الساحل الشرقي للأندلس، وفي هذا الوقت وصل مغيث الرومي مبعُوثاً من جانب الخليفة الوليد بن عبد الملك يحمل إلى موسى بن نصير أمر الخليفة بالقدوم إلى دمشق، ولكن فتح الأندلس، لم يكن قد اكتمل بعد، لذلك لاطف موسى مغيثاً، وسأله إنظاره إلى أن ينفذ عزمه في دخول بلاد جليقية واشتوريس، ويكمل فتح الأندلس، ويكون مغيث شريكه في الأجر والغنيمة ـ أي يصبح له سهم في الغنيمة ـ ففعل مغيث ومشى في ركاب موسى إلى جليقية والأشتوريس ففتحها، وتعقب موسى وطارق فلول القوط حتى اضطرّ هؤلاء إلى الفرار إلى جبال كنتبرية في أقصى الشمال الغربي من الأندلس(١).

ولما تأخرت أخبار موسى قلق الخليفة الوليد على مصير الجيش، الذي مضى على وجوده في البعوث ما يقارب أربع سنين، لذلك أرسل الوليد رسولاً ثانياً، فوصل الرسول الأندلس وموسى في مدينة لَكْ بجُليقية يُوجِّهُ السرايا والبعوث التي بلغت صخرة بلاك التي تقع في الشمال الغربي على البحر الأخضر ـ خليج بسكاي ـ من المحيط الأطلسي، فاستجاب موسى إلى الرسول، وعاد إلى طليطلة ثم غادرها إلى قرطبة ومنها إلى أشبيلية حيث استخلف فيها ولده عبد العزيز والياً واتخذ منها عاصمة للبلاد، ولكن أشبيلية لم تمكث طويلاً عاصمة للبلاد، وإنما استعيض عنها بقرطبة منذ عام ٩٧هـ، وظلت قرطبة مركز الديار الأندلسية حتى نهاية عهد الخلافة في الأندلس(٢)، ويبدو أن موسى اختار أشبيلية عاصمة في هذه المرحلة من تاريخ الأندلس لوقوع أشبيلية في منطقة تتساوى عندها احتمالات الخطر والسلامة، وواجبات الحفاظ على البلاد وحمايتها، فهي لم تخرج إلى الأطراف بعيداً عن الوسط، ولم تقترب من خطوط المواجهة مع الأعداء بعيداً عن بلاد المغرب وإمداداتها(٣).

٩ ـ رجوع موسى إلى عاصمة الخلافة دمشق:

غادر ركب موسى وطارق بن زياد الأندلس في ذي الحجة عام ٩٥هـ يحمل معه الأسرى والغنائم الوفيرة والهدايا الثمينة وغيرها من الكنوز، فلما بلغ طنجة ترك ابنه عبد الملك فيها حاكماً، ثم انصرف منها إلى القيروان، فأقرّ ابنه عبد اللّه الذي

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٧٥)، التاريخ الأندلسي، ص (٩٦ ـ ٩٨)، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٠٨).
(٢) نفح الطيب (٣/ ١٤).
(٣) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٠٨).

كان قد استخلفه في أثناء غيابه في الأندلس(١)، ثم سار من هناك يريد دمشق فوصلها في عام ٩٦هـ قبل وفاة الوليد.

وقيل: إن سليمان بن عبد الملك بعث إلى موسى بن نصير أن لا يدخل دمشق يريد أن ينتظر وفاة أخيه الوليد بن عبد الملك ثم يدخلها، فتكون علامات الفتح ودلائل النصر من الأسرى والغنائم والهدايا فاتحة عهده، فيعظم مقامه عند الناس، ولكن موسى خالف سليمان ودخل، فلما ولي سليمان الخلافة حقد على موسى وعزله وحبسه وأغرمه أموالاً كثيرة(٢).

ويبدو أن تدخل يزيد بن المهلب وعمر بن عبد العزيز لصالح موسى، لدى سليمان بن عبد الملك أثمر عن رضا سليمان عن موسى، وأصبح فيما بعد عظيم المنزلة، وكان سليمان يستشيره في بعض الأمور العسكرية، كما هو الحال في الخطة العسكرية الواجب اتباعها في سير الحملة المتجهة إلى القسطنطينية، كما أن سليمان كان يخرج إلى بعض أمواله متنزهاً وبرفقته موسى بن نصير(٣).

ويبدو أن سعة البلاد التي صارت إلى نظر موسى وتحت سلطانه ـ وكانت تمتد من غرب مصر إلى جنوب فرنسا ـ وقيام موسى بتوزيع الحكم فيها على أبنائه، كان مما يثير الشكوك في نفوس أولي الأمر، لذلك بادر سليمان حرصاً على وحدة الدولة وسلامتها من الانقسام إلى عزل موسى بن نصير عما كان تحت يده من الأعمال(٤).

ومن الأسباب التي ذكرت في سبب استدعاء موسى إلى دمشق تخوف الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرض منقطعة، ومحاطة بمناطق غير إسلامية، وعلى اتصال بها، هي أقرب إليها من العالم الإسلامي، أو مراكز ارتباطه واستمداده، وهو الذي رأيناه عارض فتح الأندلس خوفاً على المسلمين أن يخوضوا المخاطر ويركبوا المهالك، حتى بين له موسى أنه لا داعي للخوف(٥).

ويرى الكثير من المؤرخين أن موسى بن نصير لم يكن يعتزم التوقف في فتوحاته عند هذا الحد، وإنما كان يخطط لعبور جبال البرانس، واجتياح أوروبا كلها

---

(١) المصدر نفسه، ص (٣٠٨).
(٢) الكامل في التاريخ (٣/ ٢١٢).
(٣) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص (١٢٢).
(٤) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٠٩).
(٥) دولة الإسلام في الأندلس (١/ ٥٤)، التاريخ الأندلسي، ص (١١٣).

والوصول إلى القسطنطينية وفتحها من جهة الغرب، لولا أن استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق وأمره بالتوقف بالفتح عند هذا الحد.

ويؤكد المؤرخون أنه لو قدر لموسى بن نصير أن يمضي قدماً في مشروعه هذا لتغير شكل النظام الدولي تماماً، ولقضى على القوى غير الإسلامية، ذلك أنهم باستقرائهم النظام الدولي وقتئذ فإنهم يؤكدون أن احتمالات نجاح مشروعه هذا كانت عالية جداً، إذ لم تكن الظروف مواتية لنجاحه مثلما كانت مواتية وقتها، فمملكة الفرنجة كانت مشغولة وقتها بصراعاتها مع الممالك الأخرى، ولم يكن هناك كيان سياسي واحد في أوروبا كلها يعادل قوة الدولة الإسلامية أو حتى بدايتها، ويشير هؤلاء المؤرخون إلى أنه لما قدر للمسلمين في هذه المنطقة قائد كفء بعد عشرين عاماً من ضياع هذه الفرصة، كانت الظروف الدولية قد تغيرت لغير صالح المسلمين، فلما حاول هذا القائد إحياء مشروع موسى بن نصير هزم هزيمة ضخمة تدخل في تاريخ العلاقات الدولية بوصفها نقطة تحول، وهي معركة بلاط الشهداء[١].

وقد تكرست الآثار السلبية لعدم استكمال موسى بن نصير لمشروعه بفشل حصار المسلمين للقسطنطينية بعد ذلك بسنوات قليلة، وهو ما أغلق أوروبا أمام المسلمين من الشرق بعد أن كانت قد أُغلقت أمامهم من الغرب.

ولقد فشل المحللون في تفسير سبب استدعاء الخليفة الوليد لموسى بن نصير، فبعضهم قال: إنه أشفق على المسلمين من مخاطر هذا المشروع البحري، وبعضهم الآخر يؤكد أن الخليفة إنما خاف على سلطانه من تصاعد نفوذ وقوة موسى بن نصير.

وسواء صحت هذه التفسيرات أو أخطأت، فإن ما حدث بالفعل بعد استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق، هو تقويض هدف مصيري للأمة، أضاعت فيه فرصة ثمينة في فتح أوروبا وجعلها تحت نفوذ الدولة الإسلامية[٢].

١٠ ـ خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما اللّه تعالى:

تخبطت الروايات في الحديث عن نهاية موسى، وما لقيه من الخليفة سليمان من الأذى والغمط والنكران، وفي هذه الروايات غموض وتشويش وتناقض ومبالغات كبيرة[٣]، والصحيح أن سليمان كان عاتباً على موسى، لأمر لا نستطيع

(١)، (٢) الدولة الأموية دولة الفتوحات، ص (٤٤).

(٣) التاريخ الأندلسي، ص (١٢٦).

تحديده على وجه الدقة، ثم رضي عنه سليمان وقرّبه منه وأصبح من خاصته[١]، وكانت بينه وبين سليمان محاورات وتساؤلات، فقد قال له سليمان يوماً: ما كنت تفزع إليه عند الحرب؟ قال: الدعاء والصَّبْر، قال: فأي الخيل رأيت أصبر؟ قال: الشُقْر، قال: فأي الأمم أشدُّ قتالاً؟ قال: هم أكثر من أن أصف؟ قال: فأخبرني عن الرُوم، قال: أُسْدٌ في حصونهم، عِقبان على خيولهم، نساء في مَراكبهم، إن رأَوا فرصة انتهزوها، وإن رأَوا غلبة، فأوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً. قال: فالبربر؟ قال: هم أشبه العجم بالعرب؛ لقاء ونجدة وصبراً وفروسية، غير أنهم أغدر الناس، قال: فأهل الأندلس؟ قال: ملوك مترفون وفرسان لا يجبنون، قال: فالفرنج؟ قال: أمّا وهذا فوالله ما هُزمت لي راية قط، ولا بُدِّد لي جمع، ولا نُكب المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين، ولقد بعثت إلى الوليد بتور[٢] زبرجد كان يجعل فيه اللبن حتى ترى فيه الشعرة البيضاء ثم أخذ يُعدِّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد حتى تحير سليمان[٣].

وقد وصف الذهبي موسى بن نصير بقوله: الأمير الكبير، أبو عبد الرحمن اللخمي، متولي إقليم المغرب، وفاتح الأندلس، قيل: كان مولى امرأة من لخم، وقيل: ولاؤه لبني أمية. وكان أعرج مهيباً ذا رأي وحزم[٤]، وكان من أصحاب الهمم الكبيرة، فقد قال مرّة: والله لو انقاد الناس لي، لقدتهم حتى أُوقعهم على رُومية ثم ليفتحنها الله على يدي[٥].

وكان موسى بن نصير بوسعه أن يستقل عن الخلافة ويقيم ملكاً له ولأولاده في المغرب والأندلس، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك، حتى إن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة[٦].

وقد توفي موسى بن نصير رحمه الله تعالى، وهو متجه للحج برفقة الخليفة سليمان بن عبد الملك في المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ أو

---

(١) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص (١٢٣).

(٢) التور: الإناء.

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/٤٩٩).

(٤) المصدر نفسه (٤/٤٩٦، ٤٩٧).

(٥) المصدر نفسه (٤/٥٠٠).

(٦) المصدر نفسه (٤/٤٩٩)، الشرف والتسامي، ص (٢٧٩).

في وادي القرى «العُلا حالياً» أواخر سنة ٩٧هـ[١] وعمره ثمانٍ وسبعون سنة أو يزيد (في سنة ٩٧هـ)[٢]، وقال صاحب معالم الإيمان: توفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج، وكان قد سأل اللَّه عز وجل أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة، فأجاب اللَّه دعاءه[٣]، صلى عليه مسلمة بن عبد الملك[٤].

لقد كانت الدنيا وما فيها صغيرة، ولا قيمة لها عند موسى بن نصير، ويرجع الفضل في ذلك إلى اللَّه، ثم نصيحة العالم الجليل أبي عبد اللَّه علي بن رباح اللخمي لموسى بن نصير، فقد أورد صاحب كتاب رياض النفوس أن موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلى القيروان قعد يوماً في مجلسه، فجاءه العرب يسلمون عليه، فلما احتفل المجلس قال: إنه قد صحبتني ثلاث نعم: أما واحدة فإن أمير المؤمنين كتب إليَّ يهنئني في كتابه، وأمر بقراءة الكتاب، فهنئ بذلك، وأما الثانية فإن كتاب ابني قدم عليَّ بأنه فتح له بالأندلس فتح عظيم، وأمر بالكتاب فقرئ، فهنئ بذلك، وكان علي بن رباح ساكتاً فقال له موسى: ما لك يا علي لا تتكلم؟ فقال: أصلح اللَّه الأمير، قد قال القوم، فقال: وقل أنت أيضاً. فقال: أنا أقول ـ وأنا أنصح القائلين لك ـ إنه ما من دار امتلأت حبرة إلا امتلأت عبرة، وما انتهى شيء إلا رجع، فارجع قبل أن يُرجع بك، فانكسر موسى بن نصير وخشع وفرق جواري عدة..

وقال صاحب الرياض: ونفعه اللَّه عز وجل بموعظة أبي عبد اللَّه علي بن رباح، فصغرت عنده الدنيا وما فيها ونبذها، وانخلع مما كان فيه من الإمارة[٥]، فرضي اللَّه عن التابعي الجليل، والإداري الحازم، والبطل المغوار، والقوي الأمين، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمي الذي فتح المغرب الأقصى، واستعاد فتح المغرب الأوسط، وأنه دعم الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي، وأنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا، وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي[٦].

لقد مات موسى بن نصير بعد أن ملأ جهاده ـ بقيادة المد الإسلامي المبارك ـ وديان المغرب الإسلامي «الشمال الإفريقي والأندلسي» وجباله وسهوله وهضابه،

---

(١) تاريخ علماء الأندلس (٢/ ١٤٦) التاريخ الأندلسي ص (١٢٧).
(٢) نفح الطيب (١/ ٢٨٣).
(٣) معالم الإيمان (١/ ٢٠)، التاريخ الأندلسي، ص (١٢٨).
(٤) الشرف والتسامي للصَّلَّابي، ص (٢٨١)، قادة فتح المغرب (١/ ٢٢١ ـ ٣٠٩).
(٥) رياض النفوس (١/ ١١٩ ـ ١٢٠).
(٦) قادة فتح المغرب (١/ ٢٢١ ـ ٣٠٩).

ووجه دعاة الحق لإسماع ساكنيه دعوة الإسلام الخالدة، فكانت سبباً في إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، أما ترى معي موسى وهو يجوب الصحارى والوديان والسهول والجبال، وقد سلخ من سني عمره خمساً وسبعين سنة ممطتياً جواده؛ يتحرك في أعماقه إيمان بالله العلي القدير قد دفعه للجهاد والدعوة والعلم والتربية وإحكام أمور الدولة، رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور، منقاداً لإصرار العقيدة السمحة، وهمة الإيمان الفتي[١]، التي كانت سبباً في كل خير أصاب المسلمين.

أما عن البطل الكبير طارق بن زياد، فلا نكاد نعرف ما حدث له بعد وصوله دمشق، غير أن رواية تذكر رغبة سليمان في تولية طارق الأندلس[٢]، وبعد ذلك قضى آخر أيامه مغموراً[٣]، فهل عاد إلى المغرب والأندلس؟ أم بقي في دمشق؟ ولا يستبعد أن يكون عاد إلى الأندلس أو المغرب[٤]، كان طارق من البربر وعامّة جنوده كذلك، فيهم شجاعة وإقدام، فقد تربوا في أحضان الإسلام وعلى تعاليم القرآن الكريم، وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال، وقدموا في سبيل دينهم وعقيدتهم الغالي والنفيس، بل نجزم بأن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت بالإسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا من البربر الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل هذا الدين ونشره، إن العقيدة الإسلامية صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً في رحاب الإسلام العظيم[٥].

١١ ـ الأندلس بعد موسى بن نصير:

تولى الأندلس منذ عودة موسى بن نصير إلى دمشق وحتى قيام الإمارة الأموية سنة ١٣٨هـ حوالي عشرين أميراً، كان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي ألقى أبوه بزمام الأندلس بين يديه، وكان خير خلف لخير سلف، فقد ضبط الأمور وسد الثغور، وافتتح مدائن كثيرة، وكان من خيرة الولاة[٦]، ولكن لم تطل مدة عبد العزيز في حكم الأندلس، فقد قتله بعض جنده غيلة لأشياء

(١) التاريخ الأندلسي، ص (١٢٨).
(٢) نفح الطيب (٣/ ١٣).
(٣) نفح الطيب (٣/ ١٤)، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٠٩).
(٤) التاريخ الأندلسي، ص (١٢٨).
(٥) فاتح الأندلس طارق بن زياد، ص (٤٥، ٤٦).
(٦) البيان المغرب (٢/ ٢٤)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٢٠).

نقموها عليه، وكان ذلك في مستهل رجب سنة ٩٧هـ[١] .

وأعقب مقتل عبد العزيز بن موسى فترة من الاضطراب، ومكث أهل الأندلس شهوراً لا يجمعهم والٍ، حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير[٢]، وكان أيوب رجلاً صالحاً فاضلاً، ولكن مدة ولايته لم تطل، ويبدو أن الناس هناك هم الذين نصبوه ليدبر الأمور حتى تعين الخلافة والياً من قبلها.

وقد عينت الحر بن عبد الرحمن الثقفي الذي كان أهم أعماله نقل مقر إمارة الأندلس من أشبيلية ـ حيث كان يحكم عبد العزيز بن موسى ـ إلى قرطبة[٣] . كما كانت له غزوات تجاوز بها حدود بلاد الأندلس إلى بلاد الفرنجة ونواحي أربونة، فسبى وغنم وقفل بالأسارى والغنائم[٤]، وقد أدى انشغال الحر الثقفي بالغزو في الشمال الشرقي إلى انتعاش حركة المقاومة المسيحية في المنطقة التي لم يتمكن المسلمون من فتحها، وهي المنطقة الشمالية الغربية بزعامة بلاي[٥]، مما اضطره إلى العودة للقضاء على تلك المقاومة، وبينما هو مشغول بذلك عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز ٩٩ ـ ١٠١هـ، وعين مكانه السمح بن مالك الخولاني ١٠٠هـ ـ ١٠٢هـ[٦] .

---

(١) البيان المغرب (٢/ ٢٤) .

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٢٥) .

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٢٥) .

(٤) المسلمون في المغرب والأندلس، د. محمد زينون (١/ ١٩٣) .

(٥) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د. مختار العبادي، ص (٤٠، ٤١) .

(٦) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٢١) .

المبحث الثالث

فتوحات المشرق

أولاً

فتوحات المهلب بن أبي صفرة

كوفئ المهلب بن أبي صفرة على إخلاصه للدولة، وتفانيه في محاربة الخوارج بتوليه أميراً على خراسان عام ٧٨هـ بناء على توصية الخليفة عبد الملك، فنزل العاصمة مرو، ثم أخذ يعيد الهدوء والأمن والنظام إلى البلاد، ولأول مرة بعد أربع عشرة سنة، تمّ إرسال جحافل المسلمين من جديد نحو الشرق إلى بلاد تركمان ٨٠هـ[١]، فعبر المهلب بنفسه نهر بلخ «سيحون» ونزل كش[٢]، ثم جعل يغزو البلاد غزواً متواصلاً لا يفتر عن الجهاد، فخيلٌ له بسمرقند، وأخرى ببخارى، وثالثة بطخارستان، ورابعة ببست[٣]، وكان كلما فتح فتحاً أخرج الخمس لبيت المال وأرسله إلى الحجّاج، ويقسم الباقي بين أصحابه[٤].

وكان على مقدمته أبو الأدهم الزماني في ثلاثة آلاف وهو في خمسة آلاف، ووجه المهلب ابنه يزيد إلى بلاد الختل، وملكها الشبل بناء على ترغيب ابن عمر الملك. وفي بلاد الختل تمكن الملك الشبل، من ابن عمه فقتله، أما يزيد بن المهلب، فقد استطاع تحقيق أهداف الحملة، فقد اضطره إلى المصالحة ودفع الفدية، بعد أن هزمه عسكرياً، وقام بمضايقته في حصار قلعة الشبل، وأرسل ابنه الثاني حبيب إلى رابنجن، فوافى صاحب بخارى في أربعين ألفاً، فقام قسم من أهالي بخارى بالهروب والاختباء بإحدى القرى فاجتثهم، وعاد حبيب إلى أبيه منتصراً[٥].

---

(١) الكامل في التاريخ (٣/ ١٣٨).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٣٨).

(٣) بست: مدينة عظيمة من سجستان وهراة، تقويم البلدان (٣/ ٦٢٥).

(٤) الفتوح لابن أعثم (٧/ ٥٨).

(٥) الكامل في التاريخ (٣/ ١٣٨)، تجديد الدولة الأموية، ص (١٦٧).

١ ـ وفاة المهلب:

كان المهلب من التابعين، فقد ولد عام الفتح سنة ثمانٍ هجرية، ومات سنة ٨٢هـ في ولاية خراسان، وكان يقال: ساد الأحنف بحلمه، ومالك بن مسمع بمحبته للعشيرة، وقتيبة بدهائه، وساد المهلب بهذه الخلال جميعاً[١]. وكان سيداً جليلاً نبيلاً خطيباً شجاعاً فقيهاً، وكان على جانب عظيم من السخاء والكرم، ومما يدل على كرمه أنه أقبل يوماً في بعض غزواته فتلقته امرأة فقالت له: أيها الأمير إني نذرت إن أقبلت سالماً أن أصوم شهراً وتهب لي جارية وألف درهم، فضحك المهلب وقال: قد وفينا نذرك فلا تعودي لمثله، فليس كل أحد يفي لك به[٢]. ووقف رجل فقال: أريد منك حُويجة. فقال المهلب: أطلب لها رُجيْلاً، يعني أن مثلي لا يسأل إلا حاجة عظيمة[٣].

وكان حليماً، ومن أخبار حلمه، أنه مرّ يوماً بالبصرة، فسمع رجلاً يقول: هذا أعور قد ساد الناس، ولو خرج إلى السوق لا يساوي أكثر من مائة درهم، فبعث إليه المهلب بمائة درهم وقال: لو زدتنا في الثمن زدناك في العطية[٤]، وكان قد فقئت عينه بسمرقند[٥].

وكان بليغاً في كلامه حكيماً في آرائه، له كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبته في حسن السمعة والثناء الجميل، ومن ذلك قوله: الحياة خير من الموت، والثناء خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعط أحد لأحببت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال فيّ غداً إذا مت[٦]، وقيل يوماً للمهلّب: ما خير المجالس؟ فقال: ما بعد فيه مدى الطرف وكثر فيه فائدة الجليس. وقال يوماً: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلى أخلاقه نسيان ما أُسرّ إليه[٧].

٢ ـ وصيته لأبنائه حين حضرته الوفاة:

دعا ابنه حبيباً ومن حضره من ولده، ودعا بسهام فحزمت ثم قال: أفترونكم كاسريها مجتمعة؟ قالوا: لا. فقال: أفترونكم كاسريها متفرقة؟ قالوا: نعم. قال:

---

(١)، (٢) قادة فتح السند وأفغانستان، ص (١٩٢).

(٣) البخلاء للجاحظ ص ١٣٣، نقلاً عن قادة فتح السند، ص (١٩٢).

(٤) قادة فتح السند نقلاً عن سرح العيون، ص (١٠٧).

(٥) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٤)، قادة فتح السند، ص (١٩٣).

(٦) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٤).

(٧) قادة فتح السند وأفغانستان، ص (١٩٣).

فهكذا الجماعة، فأوصيكم بتقوى الله، وصلة الرحم، فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وتثري المال، وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة، فإن القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلّة، فتحابوا وتواصلوا واجمعوا أمركم، لا تختلفوا، وتبارّوا تجتمع أموركم. إن بني الأم يختلفون فكيف ببني العَلات؟ وعليكم بالطاعة والجماعة، وليكن فعالكم أفضل من قولكم، فإني أحبّ للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه، واتقوا الجواب وزلة اللّسان، فإن الرجل تزلّ قدمه فينتعش من زلّته، ويزلّ لسانه فيهلك.

اعرفوا لمن يغشاكم حقّه، فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له، وآثروا الجود على البخل، وأحبوا العرب واصطنعوا العرف، فإن الرجل من العرب تَعده العِدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده؟ عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخذ الرجل بالحزم فظهر على عدوه قيل: أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فحمد، وإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرّط ولا ضيّع، ولكن القضاء غالب، وعليكم بقراءة القرآن وتعلم السنن وأدب الصالحين، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم[١].

وبعد وفاة المهلب ولى الحجّاج ابنه يزيد خراسان، فقام يزيد عام ٨٤هـ بفتح قلعة باذغيس[٢]، التي كان ينزلها نيزك، بعد أن وضع عليها العيون، وتأكد من خلو القلعة بخروج نيزك منها فسار إليها وحاصرها، فتم له فتحها، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر، وكانت القلعة على جانب كبير من المنعة بحيث أن صاحبها نيزك كان يسجد لها[٣]، وعزل الحجّاج يزيد بن المهلب وعيّن أخاه المفضل على ولاية خراسان عام ٨٥هـ، فولي المفضل البلاد تسعة أشهر قام خلالها بغزو باذغيس، ففتحها وأصاب منها مغنماً، فقسم المغانم بين المقاتلين، فأصاب كل رجل منه ثمانمائة درهم، ثم غزا المفضل أخرون وشومان، فظفر وغنم، وكان يقسم الأموال مباشرة لعدم وجود بيت مال عنده[٤].

وفي عام ٨٦هـ عين الحجّاج قتيبة بن مسلم على خراسان[٥]، وقبل الحديث عن قتيبة وفتوحاته لا بد من الإشارة إلى فتوحات سجستان.

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٢٥١).

(٢) المصدر نفسه (٧/ ٢٥٢، ٢٨٤).

(٣) المصدر نفسه (٧/ ٢٨٥).

(٤) تجديد الدولة الأموية، ص (١٦٨)، تاريخ الطبري (٧/ ٢٩١).

(٥) تاريخ الطبري (٧/ ٣٢٣).

٣ ـ سجستان:

ولّى الخليفة عبد الملك أمية بن عبد الملك بن خالد بن أسيد بن أبي العيص، فوجه هذا ابنه عبد الله فصالحه رتبيل القائم على ثلاثمائة ألف درهم، ولما بلغ الخليفة ذلك عزله، ثم ولى الحجّاج عام ٧٨هـ عبيد الله بن أبي بكرة فلبث سنة بلا غزو، وفي السنة التالية تحرك لمناجزة رتبيل الذي كان مصالحاً، ولكنه يؤدي الخراج حيناً ويمنع حيناً آخر، فقام عبيد الله بن أبي بكرة عام ٧٩هـ، ومضى إليه غازياً حتى دخل بلاده، فأصاب منها الغنائم وهدم الحصون، وغلب على أرض من أراضيهم، وهرب أتباع رتبيل من الترك أمام جحافل المسلمين، حتى اقتربوا من عاصمتهم كابل، فأخذ الترك على المسلمين الشعاب والمسالك، فسقط المسلمون في أيديهم حتى شعر الجنود المسلمون بالضيق والهلاك، مما دفع عبيد الله بن أبي بكرة إلى مصالحة رتبيل ليمكن المسلمين الخروج من أرض الترك سالمين[١].

وكان بين المقاتلين أحد الزهاد ممن يعشق الجهاد، ويعرف باسم شريح بن هانئ، فقام شريح ودعا الجنود إلى الاستمرار في القتال لطلب الشهادة، ومما جاء في دعوته: يا أهل الإسلام، من أراد منك الشهادة فإليّ؛ فاتبعه أُناس من المتطوعة وفرسان الناس، وأهل الحفاظ، فقاتلوا الترك حتى أصيبوا إلا قليلاً، وعادوا من بلاد رتبيل فاستقبلهم الناس بالأطعمة، فكان أحدهم إذا أكل وشبع مات، وبذلك لم تحقق هذه الغزوة أهدافها العسكرية ما دفع الحجّاج إلى استئذان الخليفة عبد الملك بإرسال جيش جديد[٢]، يعيد للدولة هيبتها ومكانتها[٣].

فأعد الحجّاج في عام ٨٠هـ جيشاً قوياً من أهل الكوفة بلغ عدد عسكره أربعين ألفاً، عشرون ألفاً من الكوفة ومثلهم من البصرة، وتشجيعاً للجنود ورفعاً لروحهم المعنوية أعطاهم أعطياتهم مسبقة، وأنفق فيها الأموال، وأنجدهم بالخيل والسلاح، حتى سمى هذا الجيش «جيش الطواويس»؛ فقد بلغت الأموال التي أنفقها على تجهيزه سوى الأعطيات مليوني درهم[٤]، واختار لهذا الجيش الكبير عبد الرحمن بن الأشعث الذي سار بهم حتى وصل سجستان[٥]. وقد تحدثنا عن هذا الجيش وما قام به من حروب أهلية عند دراستنا لثورة عبد الرحمن بن الأشعث.

---

(١) المصدر نفسه (٧/ ٢١٩).

(٢) تاريخ الطبري (٧/ ٢٢٣).

(٣)، (٤) المصدر نفسه (٧/ ٢٢٤)، تجديد الدولة الأموية، ص (١٦٩).

(٥) تاريخ الطبري (٧/ ٢٢٤).

ثانياً

فتوحات قتيبة بن مسلم في بخارى وسمرقند وغيرهما

هو قتيبة بن مسلم الباهلي، الأمير أبو حفص، أحد الأبطال والشجعان، ومن ذوي الحزم والدهاء والرأي والغَنَاء، وهو الذي فتح خوارزم وبخارى وسمرقند، وكانوا قد نقضوا وارتدوا. ثم أنه افتتح فرغانة، وبلاد الترك في سنة ٩٥هـ[١]، ولي خراسان عشر سنين وله رواية عن عمران بن حصين، وأبي سعيد الخدري[٢]، ولم يَنَلْ قتيبة أعلى الرتب بالنسب، بل بكمال الحزم والعزم والإقدام، والسَّعد، وكثرة الفتوحات ووفور الهيبة[٣].

تولى قتيبة خراسان بعد المفضل بن المهلب، وكان من الأبطال الشجعان ذوي الحزم والدهاء والرأي والغناء، ويعتبر بحق من أعظم القادة الفاتحين، الذين عرفهم التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ الدولة الأموية خاصة[٤]، ففي عشر سنين فتح أقاليم شاسعة، وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلا الله، فأسلموا ودانوا لله عز وجل[٥]، وكانت بداية فتوحاته عندما وصل لخراسان، فقد جمع الناس وخطبهم قائلاً: إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقماً ـ أي ذلاً ـ، ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١]، ثم أخبر عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر، وأمضى ألم، وإياي والهوينى»[٦].

بهذه الخطبة الموجزة ذكر قتيبة المسلمين برسالتهم، ومسؤولياتهم تجاهها، وأهاب بهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المشقة في سبيل الله، وأن يسيروا في

---

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤١٠).

(٣) المصدر نفسه (٤/ ٤١١).

(٤) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٤١).

(٥) البداية والنهاية نقلاً عن العالم الإسلامي، ص (٣٤١).

(٦) تاريخ الطبري (٣/ ٣٢٣).

طريق إسلامهم طريق الجهاد، والعزة في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة[١]، وشرع قتيبة في الفتوحات وفتح منطقة ما وراء النهر، ثم عبر نهر سيحون وفتح أقاليم كبرى، حتى وصل كاشغر متاخماً بذلك حدود الصين. وأهم المراحل الكبرى في هذه الفتوحات:

المرحلة الأولى: استعادة الطالقان[٢] والصغانيان وطخارستان[٣]:

عرض قتيبة جنده وحثهم على الجهاد وسار غازياً، فلما كان بالطالقان أتاه دهاقين (بلخ) وساروا معه، فقطع نهر «جيحون» فتلقاه ملك (الصغانيان) بهدايا ومفاتيح من ذهب، ودعاه إلى بلاده وسلّمها إليه، لأنّ ملك شومان[٤] وأخْرون[٥]، كان يسيء جواره، وسار قتيبة منها إلى أخرون وشُومان، وهما من الصَغَانيان، فصالحه ملكها على فدية أداها إليه، فقبلها قتيبة ثم انصرف عائداً إلى (مرو)، واستخلف على جنده أخاه صالح بن مسلم، ففتح صالح بعد رجوع قتيبة (كاشان)[٦] وأورشت[٧]، وفتح أخسيكت[٨] وهي مدينة (فرغانة)[٩] القديمة[١٠]، وبهذا الفتح الكبير استهل قتيبة ولايته لخراسان سنة ٨٦هـ[١١].

المرحلة الثانية: فتح إقليم بخارى (٨٧ ـ ٩٠هـ):

كانت أول مدينة غزاها في هذا الإقليم، وهي مدينة بيكند، يقول الطبري: إن قتيبة لما صالح نيزك، أقام إلى وقت الغزو، ثم غزا في تلك السنة ٨٧هـ، فقطع النهر وسار إلى بيكند، وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر، فلما نزل قريباً منها استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم، فأتوهم في جمع كثير، وأخذوا بالطريق فلم

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٤٣).

(٢) بلد في خراسان بين مرو الروذ وبلخ.

(٣) طخارستان: ولاية واسعة تشمل عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان.

(٤) شومان: بلد الصغانيان من وراء نهر جيحون، معجم البلدان (٥/ ٣١٠).

(٥) أخرون: الظاهر أنها مدينة قريبة من شومان.

(٦) كاشان: مدينة فيما وراء النهر، معجم البلدان (٧/ ٢٠٧).

(٧) أورشت: مدينة من مدن فرغانة.

(٨) أخسيكت، اسم مدينة بما وراء النهر.

(٩) فرغانة: مدينة متاخمة لبلاد تركستان.

(١٠) معجم البلدان (٢/ ٨٥).

(١١) قادة الفتح الإسلامي في ما وراء النهر، ص (٣٧٨).

ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول، ولم يعرف له خبر شهرين، وأبطأ خبره على الحجّاج، فأشفق الحجّاج على الجند، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد، وكتب بذلك إلى الأمصار، وهم يقتلون كل يوم، فكانت بين الناس مشاولة[١]، ثم تزاحفوا والتقوا، وأخذت السيوف مأخذها، وأنزل اللّه على المسلمين الصبر، ثم منح اللّه المسلمين أكتاف أعدائهم فانهزموا يريدون المدينة، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلاً وأسراً كيف شاءوا، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهم قليل، فوضع قتيبة الفَعَلة في أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم، واستعمل عليها رجلاً من بني قتيبة[٢]، ولكنهم سرعان ما نقضوا الصلح، وقتيبة منهم على خمس فراسخ فرجع إليهم، وقتل من كان في المدينة، وغنم غنائم كثيرة، ورجع قتيبة إلى مرو، وقوي المسلمون، فاشتروا السلاح والخيل، وتنافسوا في حسن الهيئة والعدة[٣].

واستمرت حملات قتيبة على إقليم بخارى في هذه المرحلة بصفة منتظمة كل سنة، وكان غزوه يتم في فصل الصيف فإذا دخل الشتاء عاد إلى مرو، وفي سنة ٨٨هـ ترك أخاه بشاراً على مرو وعبر النهر ففتح نومشكت ورامثنة من أعمال بخارى صلحاً بناء على طلب أهلها[٤]، ولكن هاله حلف من أهل فرغانة والصغد في مائتي ألف عليهم ابن أخت ملك الصين ـ كور مغايون ـ وواضح من هذا التجمع الكبير أن الأمم في هذه المناطق قد تداعت وتحالفت على المسلمين، ولكن اللّه نصر قتيبة وجنده على هذا الحلف، ثم عاد إلى مرو[٥].

وفي عام ٨٩هـ استأنف قتيبة فتوحاته وقصد بخارى هذه السنة بناء على أوامر الحجّاج، فلقيه في طريقه جمع من أهل كش ونسف فظفر بهم، ومضى إلى بخارى، فتصدى له ملكها ـ وردان خذاه ـ فلم يستطع الاستيلاء عليها، فرجع إلى مرو، وكتب إلى الحجّاج يخبره، فطلب منه الحجّاج أن يصورها له فبعث إليه بصورتها، فنصحه وأمده وعرفه الموضع الذي يأتيها منه، وأمره بالمسير إليها، فسار إليها سنة ٩٠هـ، ومع أن وردان خذاه كان قد استجاش الصغد والترك ليساعدوه في التصدي لقتيبة، إلا أنه تمكن من الانتصار عليهم بعد معارك شرسة، واستولى على

(١) المشاولة: القتال بالرماح.
(٢) تاريخ الطبري (٧/ ٣٣١).
(٣) تاريخ الطبري (٧/ ٣٣٢).
(٤) المصدر نفسه (٧/ ٣٣٦، ٣٣٧).
(٥) المصدر نفسه (٧/ ٣٣٧).

بخارى، وكتب بالفتح إلى الحجّاج(١)، وبهذا استكمل قتيبة فتح إقليم بخارى كله في ثلاث سنوات.

المرحلة الثالثة (٩٠ ـ ٩٣هـ) فتح سمرقند:

وهي المرحلة التي فرض فيها قتيبة السيادة الإسلامية على حوض نهر جيحون وتوّج عمله فيها بالاستيلاء على مدينة سمرقند، أعظم المدائن في بلاد الصغد، وكان طرخون ملك الصغد، قد أرسل إلى قتيبة بعد انتصاره في معركة بخارى سنة ٩٠هـ يطلب الصلح(٢)، فأجابه قتيبة وصالحه، ورجع قتيبة(٣)، وفي سنة ٩١هـ كان غدر نيزك ـ صاحب قلعة بادغيس ـ وتأليبه ملوك طخارستان ورتبيل ملك سجستان على المسلمين، وقد نكل به قتيبة وغزا سجستان من الشمال، وربما كانت تلك أول مرة يغزو فيها قتيبة سجستان لأنه أراد تأديب رتبيل ملكها لانضمامه إلى نيزك في غدره، ولكن رتبيل قدر العواقب وطلب الصلح، فقبل قتيبة وصالحه، وانصرف عائداً إلى مرو، وترك عبد ربه بن عبد اللّه بن عمير الليثي عاملاً على سجستان(٤).

وقد توّج قتيبة فتوحاته في هذه المرحلة بفتح سمرقند، وهي أعظم مدائن ما وراء النهر، والذي دعاه إلى ذلك أن طرخون ملكها كان قد نقض الصلح الذي أبرمه معه قتيبة سنة ٩٠هـ، وامتنع عن دفع ما كان صالح عليه، فقرر قتيبة أن يضع حداً لهذا العبث، فجمع جنده وأخبرهم بنقض طرخون الصلح، وبعزمه على فتح سمرقند بالقوة وجهز أخاه عبد الرحمن بن مسلم في عشرين ألف مقاتل وأمره بالسير أمامه، ثم تبعه هو في أهل خوارزم وأهل بخارى، وضرب عليها الحصار وقال: إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فساء صباح المنذرين﴾(٥)، متيمناً بقول: رسول اللّه ﷺ عندما حاصر خيبر.

فلما رأى أهل سمرقند أن مدينتهم قد حوصرت خافوا طول الحصار، فكتبوا إلى ملوك الشاش وفرغانة يستغيثونهم، ويحرضونهم على المسلمين، وقالوا لهم: إن العرب إذا ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به، فانظروا لأنفسكم(٦). استجاب هؤلاء الملوك لنداء أهل سمرقند واختاروا عدداً من أولادهم ومن أهل

---

(١) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي، ص (٣٤٦).
(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٤٦).
(٣) تاريخ الطبري (٧/ ٣٤٤، ٣٤٥).
(٤) المصدر نفسه (٧/ ٣٦٩).
(٥)، (٦) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٤٨).

النجدة والبأس من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال، وأمروهم أن يفاجأوا قتيبة في معسكره، وهو مشغول بحصار سمرقند، ولكن قتيبة كان يقظاً باثاً عيونه، ولم يغب عن باله حدوث مثل هذه المفاجآت، فعلم بخبرهم، وأرسل لهم فرقة من جنده بقيادة أخيه صالح بن مسلم، فبدد شملهم وقتلهم، ولم يفلت منهم إلا الشريد، وغنم المسلمون أمتعتهم وأسلحتهم(١).

فلما رأى الصغد ما حل بهؤلاء انكسروا وضيق عليهم قتيبة الخناق ونصب المنجنيق على المدينة، واستطاع إحداث ثلمة فيها، وصاح صيحة الأسد: حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان، أما واللّه لئن أصبحت لأحاولنّ من أهلك أقصى غاية، فلما أصبح أمر الناس بالجد في القتال فقاتلوهم، واشتد القتال، وأمرهم قتيبة أن يبلغوا ثلمة المدينة ورماهم الصغد بالنشاب فلم يبرحوا، فأرسل الصغد إلى قتيبة، فقالوا له: انصرف عنا اليوم، حتى نصالحك غداً، فقال: لا نصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة..

فصالحهم من الغد على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس، وأن يخلوا له المدينة فلا يكون فيها مقاتل، فيبني فيها مسجداً، ويدخل ويصلي ويخطب ويتغذى ويخرج(٢).

دخل قتيبة سمرقند وحطم ما بها من الأصنام ولم يعبأ بمن خوفه منها حيث قال له أحدهم مدعياً نصيحته: لا تتعرض لهذه الأصنام فإن منها أصناماً من أحرقها أهلكته، فقال له: أنا أحرقها بيدي، فأمر بإشعال النار، وكبر ثم أحرقها، فوجدوا من بقايا مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال(٣)، وبعد أن أتمّ قتيبة هذا الفتح العظيم عاد إلى مرو، لكي يستريح، ثم يستعد لجولته الأخيرة، التي سيفتح فيها المناطق السيحونية(٤).

المرحلة الرابعة: أقاليم الشاش وفرغانة وكاشغر (٩٤هـ ـ ٩٦هـ):

وهي المرحلة التي فتح اللّه فيها على يديه أقاليم الشاش وفرغانة وكاشغر، وقد بدأ هذه المرحلة سنة ٩٤هـ، حيث سار في موعد غزوه ـ في الصيف ـ ومعه عشرون ألفاً من أهل بخارى وكش ونسف، وخوارزم(٥)، فوجه قسماً منهم إلى

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص(٣٤٨) نقلاً عن الكامل في التاريخ.

(٢) تاريخ الطبري (٧/ ٣٧٧). (٣) المصدر نفسه (٧/ ٣٧٧).

(٤) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص(٣٤٩).

(٥) تاريخ الطبري (٧/ ٣٨٥).

الشاش، وتوجه هو بالقسم الآخر إلى فرغانة، حيث دار بينه وبين الترك قتال عنيف حول مدينة خجنده، ويبدو أن نتيجة المعركة لم تكن حاسمة، حيث توجه قتيبة إلى كاشان قبل أن يحسم أمر خجنده، وهناك أتاه جنوده الذين كان أرسلهم إلى الشاش.

ويبدو أن قتيبة قد وجد مقاومة شرسة من الأتراك في هذه البلاد، فقد كتب إلى الحجّاج يطلب مدداً، فأرسل إليه جيشاً من العراق(١)، ثم أمر محمد بن القاسم الثقفي أن يوجه إليه من السند مدداً(٢) أيضاً، فإمداد قتيبة بهذه الجيوش من العراق ومن السند(٣)، فوق ما معه من قوات كبيرة، يدل على قوة المقاومة التي لقيها في أقاليم سيحون، كما يدل على قوة عزم المسلمين في الجهاد، وأنه أراد أن يكون متفوقاً عليهم، حتى يحقق هدفه، وقد نجح بالفعل وفتح أقاليم الشاش وفرغانة ٩٥هـ(٤)، وبعد أن أتم هذا الفتح الكبير، جاءته الأخبار بموت الحجّاج في شوال في تلك السنة، فاغتم لموته، لما كان يجد منه من التأييد والتشجيع والمساندة وقفل راجعاً إلى مرو، وتمثل قول الحطيئة:

لعمري لنعم المرء من آل جعفر ... بحوران أمسى أعلقته الحبائل
فإن تحي لا أملل حياتي وإن تمت ... فما في حياة بعد موتك طائل(٥)

عاد قتيبة إلى مرو وقد ترك حاميات من جنده في بخارى وكش ونسف، وانتظر ما تأتي به الأقدار بعد موت الحجّاج. وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعرف طبيعة العلاقة بين الحجّاج وقتيبة، وأن للحجّاج دوراً كبيراً في نجاح قتيبة في مهمته، فقدر وقوع نبأ موت الحجّاج عليه، لذلك واساه وأرسل إليه رسالة كلها تشجيع وثناء وتزكية، قال له فيها: قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك، فأتمم مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تغيَّب عن أمير المؤمنين كتبك، كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت فيه(٦).

ـ فتح كاشغر وغزو الصين:

أحدثت رسالة الخليفة الوليد بن عبد الملك أثراً طيباً في نفس قتيبة وأعطته

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٣٨٦).
(٢) المصدر نفسه (٧/ ٣٨٧).
(٣) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٤٩).
(٤)، (٥) تاريخ الطبري (٧/ ٣٩٤).
(٦) المصدر نفسه (٧/ ٣٩٥).

دفعة قوية من العزم والتصميم فتوجه من مرو ليواصل فتوحاته، فقصد مدينة كاشغر التي يقول عنها الطبري: إنها أدنى مدائن الصين(١)، ومع أن الوليد بن عبد الملك قد توفي في جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ، ووصل نبأ وفاته إلى قتيبة وهو في فرغانة(٢)، وقبل أن يصل إلى كاشغر، إلا أنه واصل سيره حتى فتحها.

وهنا جاءه رسول ملك الصين يطلب منه أن يوجه إليه وفداً ليعرف خبرهم، فاختار قتيبة عشرة ـ وقيل اثني عشر ـ من خيرة رجاله برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي، فأرسلهم إلى ملك الصين، ويقص الطبري خبر هذه السفارة في حديث طويل، نكتفي منه بما انتهى إليه الحوار مع ملك الصين، حيث قال لهم مهدداً: فانصرفوا إلى صاحبكم، فقولوا له: ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه.

فرد عليه هبيرة في شجاعة المؤمن وعزته فقال له: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك، وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه، ولا نخافه.

أعادت هذه المقالة ملك الصين إلى صوابه، وأيقن أنه أمام قوم لا يجدي معهم التهديد ولا الوعيد، فاعتدل في كلامه، وقال لهبيرة: فما الذي يرضي صاحبكم؟ قال: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويُعطى الجزية، قال: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها، قال: فدعا بصحائف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم، فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل قتيبة الجزية، وختم الغلمان وردهم، ووطئ التراب(٣).

وهكذا انتهت هذه المرحلة من فتوحات قتيبة، التي طوى فيها أقاليم ما وراء جيحون، ثم عبر نهر سيحون، وفتح فرغانة والشاش، وأشروسنه، وكاشغر، وفرض سيادة الإسلام على ملك الصين، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وكان قتيبة قائداً عسكرياً فذاً، وبطلاً سياسياً بارعاً، قهر الصعاب، وتغلب

---

(١)، (٢) تاريخ الطبري (٧/ ٤٠١).

(٣) المصدر نفسه (٧/ ٤٠٤).

على كل المشاكل التي واجهته، ولم يثنه عن عزمه لا صعوبة الطرق ووعورتها ولا قسوة المناخ وشدته، فقد كان عزمه حديداً، وكان هدفه رشيداً، وغايته عظيمة، والعون من الله مكفول للمخلصين لهذا الدين العظيم[١].

١ ـ جهود قتيبة في نشر الإسلام:

كان قتيبة ومن معه من الفاتحين يحرصون على دعوة الناس للإسلام، وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، فكان قتيبة يهتم ببناء المساجد في المدن والقرى والأرياف، ويضع فيها العلماء والفقهاء لتربية الناس وتعليمهم الإسلام، وقام بتسكين المسلمين بين السكان الأصليين، ليطلعوا على تعاليم الإسلام وعادات المسلمين وأخلاقهم عن طريق الاحتكاك بهم، مثل ما حدث مع أهل بخارى[٢]، فأظهر الإسلام بهذه الطريقة، وأزال آثار الكفر ورسم المجوسية، وبنى ببخارى المسجد الجامع وأمر المسلمين بأداء صلاة الجمعة فيه.

ومن أساليب قتيبة في ترغيب الناس في الدخول في الإسلام، كان يأمر بمنادٍ كل يوم يقول: بأن كل من يأتي لصلاة الجمعة يعطى درهمين[٣]، ويعد هذا العمل طريقة جديدة في ذلك العهد في تأليف قلوب الناس للإسلام والحفاظ على الذين اعتنقوه[٤]، وكان في جيشه مجموعة من العلماء، كمحمد بن واسع، والقاضي يحيى بن يعمر، والضحاك بن مزاحم صاحب التفسير، فقد ساهم أمثال هؤلاء في نشر الإسلام، وكان محمد بن واسع ينافس قتيبة في بناء المساجد.

وقد صاحب عملية انتشار الإسلام بين سكان ما وراء النهر سرعة تعلمهم اللغة العربية، حيث كان قتيبة يصدر أوامره ببناء المساجد، ولم تكن تقتصر على إقامة شعائر الصلاة فقط وإنما فيها حلقات الدرس في تعليم القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكان للمسجد والعلماء الذين أشرفوا عليها دور عظيم في تعليم السكان اللغة العربية[٥]، وقد قال ابن كثير عن قتيبة: إنه ما انكسرت له راية وكان من المجاهدين في سبيل الله، واجتمع له من العسكر ما لم يجتمع لغيره[٦].

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٥٢).

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلي، غانم السلطاني، ص (١٣٨).

(٣) تارخي بخارى للبرسخي، ص (٧٤).

(٤) قتيبة بن مسلم الباهلي، ص (١٣٨).

(٥) قتيبة بن مسلم الباهلي، ص (١٤٠).

(٦) البداية والنهاية نقلاً عن قتيبة بن مسلم الباهلي، ص (١٤٠).

وكان من نتائج الجهود التي بذلها قتيبة في نشر الإسلام، أن أصبحت بخارى وسمرقند وإقليم خوارزم مراكز للثقافة العربية ونشر الإسلام في آسيا الوسطى، كما كانت مرو ونيسابور في خراسان، ومنها أيضاً دخول كثير من أهل ما وراء النهر في دين اللّه أفواجاً، فظهر بينهم عدد من الكتاب والمحدثين والفقهاء والمؤرخين، ممن لا يزال ذكرهم خالداً، وآثارهم عظيمة في تاريخ الإسلام[١].

٢ ـ من حكم قتيبة وأقواله المأثورة:

قوله: ملاك الأمر في السلطان الشدة على المذنب، واللين للمحسن[٢]، وكان يقول: الخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة، وإن كانت الجماعة لا تخطئ والفرقة لا تصيب[٣]. وخاطب قتيبة الحجاج حين ظفر بأصحاب ابن الأشعث فأراد قتلهم فقال: إن اللّه قد أعطاك ما تحب من الظفر، فأعطه ما يحب من العفو[٤]. وقال: الكامل المروءة من أحرز دينه ووصل رحمه وتوقى ما يلام عليه[٥].

٣ ـ مدح الشعراء له:

قال نهار بن توسعة يذكر انتصار قتيبة على الأتراك:

أراك اللّه في الأترك حكماً ... كحكم في قريظة والنفير
قضاء من قتيبة غير جور ... به يُشفى الغليلُ من الصدور[٦]

وقال كعب الأشقري يمدح قيادة قتيبة:

كل يوم يحوي قتيبة نهباً ... ويزيد الأموال مالاً جديداً
باهليٌ قد ألبس التاج حتى ... شاب منه مفارق كنّ سُودا
دوّخ (الصُّغد) بالكتائب حتى ... ترك (الصُّغد) بالعراء قُعودا
فوليد يبكي لفقد أبيه ... وأب موجع يبكي الوليدا
كلما حلّ بلدة أو أتاها ... تركت خيله بها أخدودا[٧]

---

(١) قتيبة بن مسلم الباهلي، ص (١٤٠).
(٢) بهجة المجالس، ابن عبد البر (١/ ٣٣٤).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٤٥٥).
(٤) قتيبة بن مسلم الباهلي، ص (١٩٨).
(٥) المصدر نفسه، ص (١٩٩).
(٦) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر ص (٤١٩).
(٧) المصدر نفسه، ص (٤١٩) نقلاً عن تاريخ الطبري.

ونهار بن توسعة هو القائل:

أبـــي الإســـلامُ لا أب لـــي ســـواه   إذا هـتـفـوا بـبـكـر أو تـمـيـم[١]

٤ ـ مقتل قتيبة ونهايته (٩٦هـ):

انتهت حياة هذا المجاهد الكبير نهاية حزينة أليمة، فقد مات الخليفة الوليد وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك ٩٦ ـ ٩٩هـ، وكانت العلاقة بين سليمان والحجاج ورجاله ـ ومنهم قتيبة ـ غير حسنة، قيل: لأنهم كانوا وافقوا الوليد على خلع أخيه سليمان، وتولية ابنه عبد العزيز بن الوليد[٢]، فخشي قتيبة أن يعزله سليمان، فأرسل إليه رسائل يعزيه في الوليد ويهنئه بالخلافة، ويختبر نواياه نحوه، لكن سليمان لم يعزله، بل أرسل له عهداً بولاية خراسان[٣] مع رسول خاص من عنده، تكريماً له، ولكن قتيبة تعجل وخلع طاعة سليمان قبل وصول ذلك العهد، فغضب الناس واستنكروا خلع سليمان وثار الجند على قتيبة فقتلوه[٤].

يقول الذهبي: ولما بلغه موت الوليد، نزع الطاعة، فاختلف عليه جيشه، وقام عليه رئيس تميم، وكيع بن حسّان، وألّب عليه، ثم شَدَّ عليه في عشرة في فرسان تميم فقتلوه في ذي الحجة سنة ست وتسعين، وعاش ثمانياً وأربعين سنة[٥]، وقال ابن كثير في سبب مقتل قتيبة بن مسلم: وذلك أنّه جمع الجند والجيوش، وعزم على خلع سليمان وترك طاعته، وذكر لهم همّته وفتوحه وعدله فيهم، ودفعه الأموال الجزيلة إليهم، فلما فرغ من مقالته، لم يجبه أحد منهم إلى مقالته، فشرع في تأنيبهم وذمّهم؛ قبيلة قبيلة، وطائفة طائفة، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرّقوا، وعملوا على مخالفته وسعوا في مقتله، وكان القائم بأعباء ذلك رجلاً يقال له: وكيع بن أبي سُود، فجمع له جموعاً كثيرة، ثم ناهضه، فلم يزل به حتى قتله في ذي الحجة من هذه السنة، وقتل معه أحد عشر رجلاً من إخوته وأبناء إخوته، ولم يبق سوى ضرار بن مسلم، وكانت أُمّه الغراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن سعد بن زُرارة، فحمته أخواله، وعمرو بن مسلم، وكان عامل الجوزجان، وقُتل قتيبة وعبد الرحمن وعبد الله وعبيد الله وصالح وبشار، وهؤلاء أبناء مسلم، وأربعة من أبنائهم، فقتلهم كلهم وكيع بن سُود[٦].

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٥٣٧).

(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٦١٣).

(٣) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي، ص (٣٥٢).

(٤) الكامل في التاريخ (٣/ ٢٣٨).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤١٠).

(٦) البداية والنهاية (١٢/ ٦١٥).

وقد كان قتيبة بن مسلم من سادات الأمراء وخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبراء، والشجعان وذوي الحروب والفتوحات السعيدة والآراء الحميدة، وقد هدى اللَّه على يديه خلقاً لا يُحصيهم إلا اللَّه، فأسلموا ودانوا للَّه عز وجل، وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئاً كثيراً، كما تقدم ذلك مفصَّلاً مبيَّناً، واللَّه سبحانه لا يضيِّعُ سعيه ولا يخيِّبُ تعبه وجهاده، ولكن زلَّ زلة كان فيه حتفه، وفعل فعلة رغم فيها أنفه، وخلع الطاعة فبادرت إليه المنية، وفارق الجماعة، فمات ميتة جاهلية، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفِّرُ اللَّه بها عنه من سيئاته، ويمحو عنه من خطيَّاتِه، واللَّه يسامحه ويعفو عنه ويتقبَّلُ منه، ما كان يكابده من مُناجزة الأعداء[١].

٥ ـ بين قتيبة بن مسلم ومحمد بن واسع..

«أصبعه أحب إلى قتيبة من مائة ألف سيف شهير»: لما صافَّ قتيبة بن مسلم للترك، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يبصبص بأصبعه نحو السماء. قال: تلك الأصبع أحب إليّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير[٢]، وهذا فهم راسخ من قتيبة بن مسلم الباهلي لأسباب النصر، ألا وهو التوكل على اللَّه تعالى، وتوثيق الصلة به واستلهام النصر منه، ولقد عبأ جيشه وتأكد من حسن إعداده، ولكنه بحاجة إلى التأكد مما هو أهم من الإعداد المادي حيث يتجاوز المسلمون بالسلاح المعنوي حدود التكافؤ المادي في القوَى بمراحل عديدة، ولما كان محمد بن واسع في جيشه سارع إلى السؤال عنه، فلما أُخبر بأنه مستغرق في مناجاة اللَّه تعالى ودعائه، اطمأن قلبه وارتفع مستوى الأمل بالنصر عنده وقال تلك الكلمات الإيمانية الرفيعة: تلك الإصبع أحب إليّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير[٣].

إن قوى الأرض كلها بيد اللَّه تعالى، وإن النظر إلى القوى المادية من حيث العدد والعُدد والمواقع، إنما هو حسابات البشر، واللَّه جل جلاله قادر على تغيير هذه الموازين في لحظة، وإن من أهم وسائل استجلاب نصر اللَّه تعالى دعاء الصالحين، فلذلك استبشر قتيبة خيراً حينما علم باستغراق محمد بن واسع في الدعاء.

---

(١) المصدر نفسه (١٢/ ٦١٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢١).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ١٢١).

وهذا الفهم الرفيع من قتيبة رحمه اللّٰه يبين لنا سبباً مهماً من أسباب انتصاراته الباهرة، التي ظلت تتوالى أكثر من عشر سنوات، فبالرغم من كونه بطلاً لا يُشَقُّ له غبار، وقائداً مخططاً يضع للأمور أقرانها، وسياسياً محنكاً لا يُخدع، فإنه لم يغتر بكل ذلك، بل اعتبر ذلك كله من الأمور الثانوية، ونظر قبل ذلك إلى مدى توثيق الحبل الذي يصل جيشه باللّٰه تعالى، فلما عرف بأن محمد بن واسع قد وصل ذلك الحبل بالدعاء، وبما سبق ذلك من شهرته بالإيمان القوي والعمل الصالح حصل له اليقين، وزال عنه سبب من أسباب الخوف المتمثل بضعف الصلة باللّٰه تعالى[١].

إن محمد بن واسع رحمه اللّٰه تعالى معدود من العلماء الربانيين المشهورين بالزهد والورع والخشوع، وهو مدرسة في معالجة أمراض النفوس وتطهير القلوب، ومن أقواله النَّيرة في الزهد والورع واليقين: إني لأغبط رجلاً معه دينه وما معه من الدنيا شيء وهو راض[٢]. وإذا كان محمد بن واسع يغبط أهل الدين المجردين من الدنيا فما أكثر من يغبطون أصحاب الأموال، وما أبعد الفرق بين السابقين بالخيرات والمقصِّرين[٣].

وقيل إنه قال لرجل: هل أبكاك قط سابق علم اللّٰه فيك[٤]، يعني أن المقربين مع ما يقومون به من الورع والعمل الصالح يخشون من سابق قدر اللّٰه فيهم، حيث يخافون من سوء الخاتمة، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ـ جل جلاله ـ يقلبها كيف يشاء، وقيل له: كيف أصبحت؟ قال: قريباً أجلي، بعيداً أملي، سيئاً عملي[٥]. وهذا من عمق الإدراك وقوة تصور ما بعد الموت، وإذا كان محمد بن واسع الذي قيل عنه: إنه أفضل أهل البصرة في زمنه يتهم نفسه بطول الأمل وسوء العمل، فكيف بحال المقصرين[٦] أمثالي.

وذات يوم قال رجل لمحمد بن واسع: أوصني، قال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة، قال: كيف؟ قال: ازهد في الدنيا[٧]. وهذه وصية نافعة من طبيب ماهر في طب القلوب، فهذا الرجل يطلب الوصية من محمد بن واسع فيوصيه بأعلى مرتبة تطمح لها النفوس عادة، وهي أن يكون ملكاً في الدنيا والآخرة،

---

(١) التاريخ الإسلامي (١٩/ ٩٩، ٢٠٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢١).
(٣) التاريخ الإسلامي (١٩/ ٩٣).
(٤)، (٥) المصدر نفسه (٦/ ١٢١).
(٦) التاريخ الإسلامي (١٩/ ٩٤).
(٧) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢١).

فيتعجب الرجل لأنه لم يرد الدنيا حينما طلب منه الوصية، ثم كيف يجمع بين الأمرين، فيكون ملكاً في الدنيا والآخرة، فلذلك استفهم منه استفهام تعجب، فكان جواب ابن واسع له: ازهد في الدنيا[١].

ومن كلامه التربوي العميق قوله: ما آسى على الدنيا إلا على ثلاث: صاحب إذا اعوججت قوّمني، وصلاة في جماعة يُحمَل عني سهوُها، وأفوز بفضلها، وقوتٍ من الدنيا ليس لأحد منه فيه منّة ولا للّه عليّ فيه تَبِعة[٢]. فهذا العالم الرباني كان من ضمن جنود الفاتحين الذين نفع اللّه بهم شعوب المشرق، كأهل بخارى، وسمرقند، وخراسان وغيرها.

٦ ـ المشرق بعد مقتل قتيبة بن مسلم:

لم تحدث فتوحات إسلامية فيما تبقى في عهد الدولة الأموية في هذه الجهات بعد فتوحات قتيبة، وتوقفه عند كاشغر على حدود الصين، وذلك لأن الظروف التي مرت بها الدولة الأموية ـ منذ هذا التاريخ، وحتى سقوطها سنة ١٣٢هـ ـ لم تكن تسمح بذلك. فقد انشغلت بالثورات التي بدأت تهب في وجهها من جديد؛ مثل ثورات الخوارج وثورة يزيد بن المهلب في عهد يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥هـ)، كما أن الخلافات نشبت من جديد بين العرب في خراسان، وفي هذا الجو بدأت الدعوة السرية للرضا من آل محمد، وهي الدعوة التي كان يوجهها العباسيون لمصلحتهم بكتمان ومقدرة رائعة، والتي نجحت في النهاية في الإطاحة بالدولة الأموية.

كما أن التناحر والتنافس والنزاع قد احتدم بين أبناء البيت الأموي أنفسهم، وأصبحوا يقاتل بعضهم البعض، مما أضعف هيبة الدولة في عيون الناس، كما أن هذه البلاد نفسها التي فتحها قتيبة لم تكف عن التمرد والثورة ونقض العهود، فأصبح جهد الخلفاء والولاة منصباً ـ بعد مرحلة قتيبة ـ على إخضاع الثائرين والمتمردين؛ وردهم إلى الطاعة والنظام[٣]، وقد نجحت الدولة الأموية في ذلك، فهي وإن كانت لم تضف جديداً إلى فتوحات قتيبة في هذا الجزء من العالم، إلا أنها لم تتراجع ولم تخسر أرضاً واحتفظت بمواقعها، ونهض الولاة في هذه المناطق بمسؤولياتهم، وهيأوها لقبول الإسلام، وجعلوها جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢٠). (٢) التاريخ الإسلامي (١٩/ ٣٩٤).

(٣) فتوح البلدان للبلاذري، ص (٥٢٣ ـ ٥٢٧).

(٤) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٥٣).

ثالثاً

محمد بن القاسم الثقفي وفتح السند: (٨٩ ـ ٩٦هـ)

كان انتصار المسلمين في معركة القادسية في عهد عمر بن الخطاب إيذاناً لهم بفتح السند، فقد استنجد كسرى الفرس ببعض ملوك البلاد المجاورة، ومنها مملكة السند حيث أمده ملك السند بالمال والرجال، الأمر الذي اضطر المسلمين لمهاجة السند، رداً على تدخلهم ضدهم في معركة القادسية(١)، ولذلك فإن البلاذري يحدثنا عن حملات إسلامية مبكرة على السند كان أولها في عهد عمر بن الخطاب، وكان ثانيها في عهد علي بن أبي طالب، كما نفهم من رواية البلاذري أن عثمان بن عفان كان أيضاً مهتماً بتقصي تحركات السند(٢)، كما أن البلاذري يوضح الأسباب التي حولت هذه الحملات إلى فتح منظم للسند في الأسباب الآتية:

* اكتشاف تحالف آخر بين السند والترك، حيث لقي المهلب في عهد معاوية بن أبي سفيان ثمانية عشر فارساً من الترك ببلاد القيقان بالهند(٣)، لذلك تلاحقت حملات معاوية، فأغار عبد الله بن سوار ومعه سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي فأتى الثغر ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها(٤).

* أعمال القرصنة البحرية التي كان يقوم بها الهنود حيث يذكر البلاذري أن البوارج الهندية قد استولت على سفينة كانت تحمل نساء مسلمات، أرسلهن ملك جزيرة الياقوت هدية إلى الحجاج بن يوسف، فنادت امرأة من تلك النسوة وكانت من يربوع: يا حجّاج، وبلغ الحجّاج ذلك فقال: يا لبيك فأرسل إلى داهر يسأله تخلية النسوة. فقال: أخذهن لصوص لا أقدر عليهم(٥)، لذلك أرسل الحجاج بن يوسف عبيدالله بن نبهان إلى الديبل «كراتشي اليوم» فقُتل، فكتب إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بعمان يأمره أن يسير إلى الديبل، لكن الهنود استطاعوا محاصرته وقتله أيضاً(٦).

---

(١) العلاقات السياسية بين الهند والخلافة العباسية، محمد النجرامي، ص (٣٠).
(٢) الحضارة الإسلامية، محمد عادل ص (٢٩٩)، فتوح البلدان، ص (٤٢٠).
(٣) الحضارة الإسلامية، ص (٢٩٩)، فتوح البلدان، ص (٤٢١).
(٤) فتوح البلدان، ص (٤٢٣)، الحضارة الإسلامية، ص (٢٩٩).
(٥) فتوح البلدان، ص (٤٢٣، ٤٢٤).
(٦) فتوح البلدان، ص (٤٢٤)، الحضارة الإسلامية، ص (٢٩٩).

١ ـ تعيين محمد بن القاسم على ثغر الهند وتجهيزات الحجاج لجيشه:

تبدّى للحجّاج مدى الإهانة التي تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر، فاختار محمد بن القاسم وكان بفارس، وكان قد أمره أن يسير إلى (الريّ)، فردّه إليه[١]، وعقد له ثغر (السند) وضمّ إليه ستة آلاف من جند أهل الشام، وجهّزه بكلّ ما احتاج إليه ـ حتى الخيوط والإبر والمال ـ وأمره أن يقيم بشيراز حتى يكمل حشد رجاله، ويوافيه ما أعدّ له[٢].

واهتمّ الحجاج اهتماماً بالغاً في إنجاز استحضارات جيش محمد بن القاسم حتى بلغ بذلك حدّ الروعة حقاً، فلم ينس أصغر التفاصيل الإدارية لإكمال استحضارات هذا الجيش، حتى أنه عمد إلى القطن المحلوج فنُقع في الخل الأحمر الحاذق، ثم جُفّف في الظل، وقال لهم: إذا صرتم إلى (السّند) فإن الخل بها ضيّق، فانقعوا هذا القطن في الماء، ثم اطبخوا به واصطبغوا. ويقال: إن محمداً لما صار إلى ثغر السّند، كتب يشكو ضيق الخلّ عليهم، فبعث الحجاج إليه بالقطن المنقوع في الخل.

٢ ـ المعارك التي خاضها محمد بن القاسم:

مضى محمد إلى مكران فأقام بها أياماً، ثم أتى فنزبور[٣] ففتحها، ثم أتى (أرمائيل)[٤] ففتحها أيضاً، فقدم (الديبل) يوم جمعة، فوافته هناك سفنه التي كانت تحمل الرجال والسّلاح والعتاد والمهمات، فخندق حيث نزل (الديبل)، وأنزل الناس منازلهم، ونصب منجنيقاً يقال له: العروس، الذي كان يعمل لتشغيله خمسمائة من الرجال ذوي الكفاية المدربين على استخدامه، فدكّ بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر (البد)[٥]، وكان على هذا البد دقل عظيم، وعلى الدقل راية حمراء إذا هبّت الريح أطافت المدينة[٦].

وحاصر محمد الديبل وقاتل حماتها بشدّة، فخرجوا إليه، ولكنه هزمهم حتى ردهم إلى البد، ثم أمر بالسلالم فنصبت وصعد عليها الرجال، وكان أولهم صعوداً

(١) فتوح البلدان، ص (٤٢٤)، قادة فتح السند، ص (٢١٠).
(٢) فتوح البلدان، ص (٤٢٤)، قادة فتح السند، ص (٢١١).
(٣) فنزبور: مدينة بين مكران والديبل.
(٤) أرمائيل: مدينة كبيرة بين مكران والديبل من أرض السند.
(٥) البد: هو المعبد، وكل شيء عظموه من طريق العبادة، فهو عندهم (بد).
(٦) فتوح البلدان، ص (٤٢٤).

رجلاً من بني مراد من أهل الكوفة، ففتحت المدينة عنوة فاستباحها محمد ثلاثة أيام، ولكنّ عامل (داهر) ملك السند عليها هرب عنها سالماً[١]، فأنزل فيها محمد بن القاسم أربعة آلاف من المسلمين وبنى عليها جامعها، فكان أول جامع بني في هذه المنطقة[٢].

وسار محمد من الديبل إلى نيرون[٣]، وكان أهلها بعثوا إلى الحجّاج فصالحوه، فلقوا محمداً بالميرة وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصلح[٤]، وسار محمد من (نيرون) وجعل لا يمر بمدينة إلّا فتحها حتى عبر نهراً دون «مهران»[٥]، فأتاه أهل (سربيدس)[٦]، وصالحوه، ففرض عليهم الخراج وسار عنهم إلى (سهبان)[٧]، ففتحها ثم سار إلى نهر (مهران) فنزل في وسطه، وبلغ خبره (داهر) فاستعدّ لمجابهته[٨]، وبعث محمد إلى (سدوستان)[٩]، فطلب أهلها الأمان والصلح، فأمنهم محمد وفرض عليهم الخراج أيضاً[١٠].

٣ ـ مقتل داهر ملك الهند:

عبر محمد بن القاسم نهر (مهران) مما يلي بلاد الملك (راسل) ملك (قصة) من الهند على جسر عقده، و (داهر) مستخف به، لاهٍ عنه، ولقيه محمد والمسلمون وهو على فيل، وحوله الفيلة، فاشتد القتال بشكل لم يسمع بمثله، وترجّل (داهر) وقاتل حتى قتل عند المساء، فانهزم أصحابه وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، فقال قاتل داهر[١١]:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
أني فرجت الجمع غيرُ مَعرد[١٢] حتى علوت عظيمهم بمهند

(١) المصدر نفسه، ص (٤٢٤، ٤٢٥).
(٢) تاريخ الإسلام في الهند ص ٧٤، قادة فتح السند، ص (٢١٢).
(٣) نيرون: مدينة تقع على مسافة (٧٥) ميلاً عن مكران.
(٤) فتوح البلدان، ص (٤٢٥).
(٥) مهران: موضع على نهر السند، معجم البلدان (٨/ ٢٠٩).
(٦) سربيدس: مدينة بالقرب من مهران على نهر السند.
(٧) سهبان: مدينة في منطقة سربيس على نهر السند.
(٨) فتوح البلدان، ص (٤٢٥).
(٩) قادة فتح السند وأفغانستان، ص (٢١٣).
(١٠) فتوح البلدان، ص (٤٢٥).
(١١) هو القاسم بن ثعلبة بن عبد الله الطائي، فتوح البلدان، ص (٤٢٦).
(١٢) معرد: عرد الرجل عن الطريق إذا انحرف عنه.

فتركته تحت العجاج مجندلاً متعفر الخدين غير موسّد

فلما قتل (داهر) غلب محمد على بلاد السند ففتح (راوَر)[١] عنوة، وكان بها امرأة[٢] لداهر فحرقت نفسها وجواريها وجميع مالها[٣]، وتقدم المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرقين حتى بلغوا (برهمنآباد)[٤] العتيقة على فرسخين من المنصورة[٥]، وكان موضعها غيضة، وكان المنهزمون من أصحاب داهر بها، ففتحها محمد وقتل بها بشراً كثيراً وخرّبها[٦].

وسار محمد يريد (الرور)[٧] و (بغرور)، فلقيه أهل ساوندري[٨]، وسألوه الأمان، فأعطاهم إياه، واشترط عليهم ضيافة المسلمين، فأسلم أهلها من بعد ذلك[٩]، وتقدم نحو (بسمد)[١٠]، على مثل صلح (ساوندري)، فسار عنها حتى انتهى إلى (الرور) وهي من مدائن السند، تقع على جبل فحاصرها شهوراً ثم فتحها صلحاً[١١].

وسار محمد إلى (السكة)[١٢] وفتحها ثم عبر نهر (بَياس)[١٣] وهو رافد نهر السند إلى مدينة (المُلْتان)[١٤]، أعظم مدن السند الأعلى، وأقوى حصونه، فامتنعت عليه شهوراً وقاتله أهلها، فانهزموا فحاصرهم، فأتاه رجل مستأمن دلّه على مدخل الماء الذي يشرب منه السكان، فقطعه عليهم، فنزلوا على حكمه، فقتل محمد المقاتلة، وسبى الذرية، وسبى سدنة (البد) وهم ستة آلاف، وأصاب مالاً كثيراً جمعه في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع، يلقى إليه في كوّة في وسطه،

(١) راور: مدينة كبيرة بالسند، معجم البلدان (٤/ ٢١٤).
(٢) هي راني باي، كانت أختاً لداهر بنى بها.
(٣) فتوح البلدان، ص (٢٤٥، ٤٢٦).
(٤) برهمنآباد: مدينة تقع على نهر السند بين كراجي والبنجاب.
(٥) المنصورة: مدينة كبيرة يحيط بها خليج نهر مهران.
(٦) فتح البلدان، ص (٢٢٦).
(٧) الرور: ناحية بالسند تقرب من (الملتان) في الكبر.
(٨) مدينة في منطقة الرور، قادة فتح السند، ص (٢١٤).
(٩) فتوح البلدان، ص (٤٢٦)، قادة فتح السند، ص (٢١٤).
(١٠) مدينة في منطقة الرور، قادة فتح السند، ص (٢١٤).
(١١) قادة فتح السند، ص (٢١٤).
(١٢) السكة: مدينة في منطقة الرور.
(١٣) بياس: نهر عظيم بالسند مفضاه إلى المُلتان.
(١٤) المُلتان: مدينة قرب الهند بها صنم يعظمه الهنود.

فسميت (الملتان) فرج[١] بيت الذهب[٢]. وكان (بد) الملتان (بدّاً) تهدى إليه الأموال، وتنذر له النذور ويحجّ إليه السند؛ فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أن صنماً فيه هو لأيوب النبي عليه السلام[٣].

وعظمت فتوح محمد، فراجع الحجّاج حساب نفقاته على هذه الحملة، فكانت ستين ألف ألف درهم، فقال: شفينا غيظنا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر[٤]. لقد أنجز محمد هذا الفتح كله في المدة بين سنة تسع وثمانين هجرية وأربع وتسعين هجرية[٥].

٤ ـ نهاية محمد بن القاسم:

بينما محمد بن القاسم يدبر أمر السند وينظم أحواله بعد الفتح، ويستعد لفتح إمارة قنوج، وهي أعظم الإمارات في شمال الهند، توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ، وتولى أخوه سليمان ٩٦ ـ ٩٩هـ الذي بدأ يغير ولاة الحجّاج، فعين على العراق رجلاً من ألد أعداء الحجّاج، وهو صالح بن عبد الرحمن، الذي كان الحجّاج قد قتل أخاً له اسمه آدم بن عبد الرحمن كان يرى رأي الخوارج[٦]، فقرر صالح بن عبد الرحمن، أن ينتقم من أقرب الناس إلى الحجّاج، وهو محمد بن القاسم، فعزله عن السند وولى رجلاً من صناعه وهو يزيد بن أبي كبشة، وأمره بالقبض على محمد، فقبض عليه وأرسله إليه، فحبسه في واسط في رجال من آل أبي عقيل[٧].

وقد ادعت ابنة ملك السند الذي قتله ابن القاسم أنه راودها عن نفسها أو نالها قسراً، ولذا فقد سجن في واسط وعذب، ثم تضاربت الروايات بشأنه فقيل: إنه مات تحت العذاب، وقيل: إنه أطلق سراحه ثم قُتل: وقيل: بل قتل بدسائس من أتباع داهر فاتهم به الخليفة، ثم اعترفت ابنة داهر فيما بعد بأنها كانت كاذبة في ادعائها[٨]، وهكذا انتهت حياة هذا البطل وهذا الفاتح الكبير هذه النهاية الأليمة،

---

(١) الفرج: الثغر.
(٢) فتوح البلدان، ص (٤٢٧).
(٣) فتوح البلدان، ص (٤٢٧)، قادة فتح السند، ص (٢١٥).
(٤) قادة فتح السند، ص (٢١٥)، فتوح البلدان، ص (٤٢٧).
(٥) تاريخ اليعقوبي (٣/ ٣٢)، قادة فتح السند، ص (٢١٦).
(٦) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٦٢)، نقلاً عن فتوح البلدان.
(٧) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٦٢).
(٨) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٠٩).

وحرمت الأمة الإسلامية من هذه العبقرية الشابة، فإن محمداً حقق هذه الأمجاد وهو في مقتبل العمر حتى قال فيه الشاعر:

إن الشجاعة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤدداً من مولد

وقد ساس الجيوش وقادها وعمره سبع عشرة سنة، فقال فيه الشاعر يزيد بن الأعجم:

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... ولداته عن ذاك في أشغال
فغدت بهم أهواؤهم وسمت به ... همم الملوك وسورة الأبطال

وكان محمد بن القاسم يهتف في أعماق سجنه وفي ظلماته:

أتنسى بنو مروان سمعي وطاعتي ... وإني على ما فاتني لصبور
فتحت لهم ما بين (سابور)[١] بالقنا ... إلى الهند منهم زاحف ومغير
فتحت لهم ما بين جرجان[٢] بالقنا ... إلى الصين ألقى مرة وأغير[٣]
وما وطئت خيل السكاسك عسكري ... ولا كان من (عك) عليّ أمير[٤]

مات محمد بن القاسم بالتعذيب، أو قتل بعد تعذيبه، دون أن يشفع لهذا القائد الشاب بلاؤه الرائع في توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ولا مهارته الفذة في القيادة والإدارة، ولا انتصاراته الباهرة في السند، ولكنَّ آثاره الخالدة وأعماله المجيدة باقية بقاء الدهر، ولم يختره اللّه إلى جواره إلا بعد أن أبقى اسمه على كلِّ لسان وفي كل قلب، رمزاً للجهاد الصادق والتضحية الفذّة، والصبر الجميل.

أما الذين عذبوه فقد ماتوا وهم أحياء ولا نزال حتى اليوم نذكر محمد بن القاسم بالفخر والاعتزاز، ونذكر الذين عذّبوه بالخزي والاشمئزاز[٥]. رحم اللّه محمد بن القاسم الشاب المظلوم، الأمير العادل، الإداري الحازم، لقد بكاه أهل السند من المسلمين، لأنه كان يساويهم بنفسه ولا يتميز عليهم بشيء، ويعدل بالرعية، ولأنه نشر الإسلام في ربوعهم فأرسل دعاته شرقاً وغرباً، يجوبون البلاد التي فتحها، وكان أكثر من هداهم اللّه إلى الإسلام، من أهل السند على يديه[٦]،

---

(١) مدينة مشهورة بأرض فارس.
(٢) مدينة مشهورة في خراسان، معجم البلدان (٣/ ٧٥).
(٣)، (٤) قادة فتح السند، ص (٢١١).
(٥) قادة فتح السند، ص (٢٢٢).
(٦) المصدر نفسه، ص (٢٢١).

فمنذ الخطوات الأولى للفتح بدأت شخصيات كبيرة تعتنق الإسلام فعندما فتح محمد بن القاسم مدينة الديبل واستولى على قلعتها، التي كان بها الأسرى من الجنود والتجار المسلمين والنساء المسلمات، وقتل حرّاس القلعة بناء على أوامر الحجّاج انتقاماً لشهداء المسلمين، عندئذ جاء مدير السجن الذي كان به المسلمون طالباً العفو عنه لأنه كان محسناً للأسرى المسلمين ويعاملهم معاملة كريمة، فلما تأكد محمد بن القاسم من صدقه عفا عنه، بل فوّض إليه مهمة الإشراف على الشؤون الاقتصادية بمدينة الديبل، ثم أعلن الرجل إسلامه، فقربه محمد أكثر، وعينه مترجماً لرئيس الوفد الذي أرسله إلى داهر ملك السند لتوجيه الإنذار إليه[١].

وعندما تقدم محمد بن القاسم في السند، بعد فتح الديبل، وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب للدخول في الإسلام، فاستجاب له كثيرون، وبصفة خاصة البوذيون[٢]، وقد كان لسلوك المسلمين وقائدهم الشاب، واهتمامه بإقامة المساجد وأداء شعائر الإسلام، أثر كبير في جذب الأهلين إلى الإسلام، فلم يكن محمد بن القاسم يدخل مدينة إلا ويبني فيها مسجداً[٣]، فقد بنى مساجد في الديبل والرور والبيرون والملتان وغيرهامن المدن السندية [٤]، فرحمة اللّه على هذا الفاتح الكبير.

٥ ـ السند بعد محمد بن القاسم:

توقفت الفتوحات في هذه الجبهة عند الحدود التي وصل إليها محمد بن القاسم، ولم يستطع ولاة بني أمية ـ فيما تبقى من عمر دولتهم ـ أن يضيفوا جديداً، ولكنهم استطاعوا المحافظة على ما تحقق من فتوحات، وبذلوا قصارى جهدهم في تثبيت أقدام الإسلام في إقليم السند، ووقفوا بالمرصاد لكل حركات التمرد والثورات التي قام بها الأمراء الهندوس، بعد رحيل محمد بن القاسم، فقد حاول هؤلاء الأمراء استرداد إماراتهم، وبصفة خاصة ابن داهر المسمى حليشة أو جيشبة، الذي حاول الرجوع إلى برهمنآباد ولكن حبيب بن المهلب ـ الذي ولاه سليمان بن عبد الملك السند ـ لم يمكنه من ذلك[٥].

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٤٤٥).
(٢) المصدر نفسه، ص (٤٤٦).
(٣)، (٤) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٤٤٧).
(٥) المصدر نفسه، ص (٣٦٤).

المبحث الرابع

أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات في عهد عبد الملك والوليد وسليمان

أولاً

بماذا انتصر المسلمون؟

إن ما حدث في عهد عبد الملك من فتوحات هي امتداد طبيعي للأسس المتينة، والقواعد الراسخة لفقه النهوض الذي أسسه رسول الله ﷺ، وأكمل بناءه الخلفاء الراشدون، وكانت الأمة وكثير من حكامها يعيشون لأجل العقيدة والدعوة الإسلامية، وقد انتصر المسلمون بالإسلام نفسه، فهم قد فهموه فهماً صحيحاً دقيقاً، وطبقوه على أنفسهم فأنشأ منهم خلقاً جديداً، غيَّر النفوس والقلوب والعقول، وحررهم من الوثنية وعبادة غير الله، وفتح أمامهم آفاق الإيمان والعمل فاندفعوا يحملون رسالة التوحيد إلى الإنسانية كلها فأقاموا أمة وأنشأوا دولة كبرى، وأعلنوا كلمة الله في الأرض حقاً وصدقاً[١].

لقد صيغت هذه الأمة منذ عهد الرسول ﷺ على أساس واضح من الترابط بين الإسلام والإيمان، والعقيدة والعمل، وفق أصفى مفهوم للتوحيد، وأصدق فهم لإقامة المجتمع الإنساني، واجتمع لها في إيمانها: العقيدة والشريعة والأخلاق دون أن ينفصل أحدها عن الآخر، وتكامل لها مفهوم المعرفة القائم على القلب والعقل[٢]، وقد ظلت سيرة الرسول ﷺ بكل دقائقها وتفاصيلها أمام المسلمين قدوة صادقة وأسوة حسنة، وقد كانت المثل الأعلى أمام القادة والمصلحين والأبطال والمجاهدين، وما زالت وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد

---

(١) بماذا انتصر المسلمون؟ أنور الجندي، ص (٥).

(٢) المصدر نفسه، ص (٦).

انتصر المسلمون بقيم ومقومات ومثل كثيرة تعلموها وتربوا عليها من القرآن الكريم، وهدى الرسول الأمين ﷺ. ومن أبرز هذه القيم والمقومات عقيدة سليمة، عبادة صحيحة، كتاب منير، أسوة حسنة، شريعة عادلة، أخلاق حميدة، جهاد في سبيل اللّه، تربية صالحة مستمرة مفهوم شامل للحياة والمجتمع، بطولة في المواقف، وصمود في وجه العدو(١)، وغير ذلك من القيم والمقومات.

ثانياً

أسباب دخول الإسلام في البلاد المفتوحة

كانت هناك عدة أسباب أدت إلى هذا منها:

١ ـ عالمية الدعوة:

الحقيقة الثابتة التي تؤيدها النصوص القاطعة أن الإسلام دين عالمي، ورسالته للجنس البشري كله، لا لأمة دون أمة، ولا لشعب دون شعب، فمحمد رسول اللّه إلى الناس كافة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي توضح أن الرسالة الإسلامية للناس كافة، وأنها خاتمة رسالات السماء إلى أهل الأرض، فليس بعد القرآن الكريم كتاب من اللّه، وليس بعد محمد ﷺ رسول ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقد قام بالتبشير بعالمية الدعوة ودعوة الأمم قادة وعلماء كموسى بن نصير، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم وغيرهم كثير.

٢ ـ المعاملة السمحة الكريمة:

إن النماذج التي خرجها الإسلام من القادة والجنود قد اتصفوا بأخلاق حميدة، وقيم سامية، فرفعت من المستوى الإنساني عند معتنقيها، فكان لها أثر كبير في إقبال أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام، فكم من أفواج من البربر دخلوا في الإسلام، وقاتلوا في سبيله في عهد موسى بن نصير، وكذلك في الهند، وبخارى وسمرقند، وغير ذلك من البلدان.

فالمسلمون لم يفتحوا البلاد ليدمروها ويذلوا أهلها، وإنما ليعمروها ويعزوا

---

(١) بماذا انتصر المسلمون؟ ص (٧ ـ ٩).

أهلها، ويحررهم من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد، ويخرجوهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فهم أصحاب رسالة خالدة، تحمل للناس العدل والإنصاف وتحقق لهم الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية، وبمجرد ما عرف الناس في البلاد المفتوحة أهداف المسلمين الحقيقية، وتكشفت لهم حقيقة الإسلام أسرعوا إلى اعتناقه بأعداد كبيرة ـ كما سنعرف فيما بعد ـ. ولقد حرص المسلمون، على الوفاء بكل ما التزموا به، ولم يكن هذا من حسن السياسة فقط، فالوفاء بالعهد ليس تبرعاً من المسلمين يمنون به على الناس، ولكنه مسؤولية واجبة عليهم[(١)]، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

٣ ـ إشراك أبناء البلاد المفتوحة في إدارة بلادهم:

كانت سياسة المسلمين منذ بداية الفتوحات من سعة الأفق والمرونة بحيث أدركوا أن استتباب الأمن وسير الأمور سيراً حسناً في البلاد الفتوحة ـ بما يحقق خير أهلها ومصالحهم ـ يكمن في الأسلوب الإداري الذي سيسيرون عليه، فلم يترددوا في الاستفادة من النظم الإدارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة، سواء كانت خاضعة للبيزنطيين مثل الشام ومصر أو خاضعة للفرس مثل العراق وبلاد فارس نفسها.

واستفادوا من الجهاز الإداري وطبقة الموظفين الذين كانوا يسيّرون دولاب العمل في البلاد، فقد كان الوالي في العهد الأموي يتمتع بكل السلطات والصلاحيات الإدارية والمالية والعسكرية في إقليمه، وكان المسلمون يحتفظون بمناصب القضاء والشرطة والحسبة، أما ما عدا ذلك من الوظائف الإدارية فكان المجال فيها متسعاً أمام أبناء البلاد المفتوحة في الإدارة، بل إن كثيراً منهم وصلوا إلى مناصب إدارية في ظل الحكم الإسلامي، كانوا محرومين منها في ظل حكومات ما قبل الإسلام، كما هو الحال في مصر، فقد كان البيزنطيون يستحوذون على معظم المناصب الإدارية، بالإضافة إلى المناصب العسكرية العليا، ولا يتركون للمصريين إلا أقل القليل[(٢)]، وقد توسع الأمويون في استخدام أهل الذمة في الإدارة، مما أشعرهم بالأمان والاطمئنان تجاه الدولة، فبدأوا يقبلون على اعتناق الإسلام لترتفع مكانتهم أكثر فأكثر[(٣)].

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٧٨).
(٢) المصدر نفسه، ص (٣٨٣).
(٣) المصدر نفسه، ص (٣٨٤).

٤ ـ الوضع الديني في البلاد المفتوحة:

ومما جعل أبناء البلاد المفتوحة يقبلون على الإسلام بسرعة، فساد الأديان في بلادهم وانحلالها، وفساد رجالها، سواء كانت هذه الأديان سماوية كاليهودية والمسيحية أو وضعية كالبوذية والزرادشتية والمانوية والمزدكية، وغيرها من الأديان الوثنية التي كانت سائدة في البلاد المفتوحة[١].

هذه هي أهم العوامل والأسباب التي ساعدت في دخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام.

ثالثاً

تفسير حركة التعريب بين الشعوب المفتوحة

نعني بالتعريب تحول لسان الأهالي في البلاد المفتوحة إلى اللسان العربي، وهجر لغاتهم المحلية، وقد حدث هذا في عهد الخلافة الراشدة والدولة الأموية في المنطقة المحصورة بين الخليج والمحيط ـ والمعروفة حالياً بمنطقة الدول العربية ـ، فقد هجر أهالي تلك البلدان لغاتهم الأعجمية وحلت اللغة العربية محل الآرامية والسريانية في الشام والعراق، والقبطية في مصر، والبربرية في بلدان المغرب، ومن أهم أسباب التعريب[٢]:

١ ـ انتشار الإسلام:

ومهما يكن من أمر فإن انتشار الإسلام ـ بتلك السرعة والسهولة اللتين تم بهما ـ جاء ظاهرة فريدة من نوعها في التاريخ، ذلك أنه لم تكد تنقضي على وفاة الرسول ﷺ مائة سنة حتى كان الإسلام قد ثبتت ركائزه في بلاد ممتدة من المحيط الأطلسي وشبه جزيرة أيبيريا غرباً حتى بلاد الهند وحدود الصين شرقاً، وكان لا بد أن يأتي انتشار الإسلام مصحوباً بالتعريب، لأن معتنقيه كانوا مطالبين بأداء فروضه.

ومن الواضح أن النطق بالشهادتين يتطلب نطق بعض الألفاظ العربية وفهم معناها، فضلاً عن أن أداء شعائر الصلاة يتطلب معرفة فاتحة الكتاب وحفظ بعض قصار السور من القرآن الكريم، ثم إن الإسلام يطلب من المسلم الإنصات للقرآن الكريم إذا قرئ على مسمع منه، وترتيله وتدبر ما فيه من آيات بينات، وهذه كلها

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٣٨٤).

(٢) الحضارة الإسلامية، ص (١٢٧).

أمور ترتبط بمعرفة اللغة العربية وفهمها. وطبيعي أن يكون من المتعذر على اللغات المحلية أن تستمر فأخذت تتقلص تدريجياً، وتنكمش دائرة استعمالها لتفسح المجال أمام العربية(١).

وهناك حالات ترتبط ببلادٍ فتحها المسلمون وحكموها بضعة قرون، ومع ذلك لم تعرب أي منهم، ونعني بهذه البلاد فارس والتركستان، فالفرس اعتنقوا الإسلام ولكنهم احتفظوا بلغتهم، وإن جاء هذا الاحتفاظ جزئياً غير كامل حيث إن اللغة الفارسية غدت تكتب وتدون بأحرف عربية من ناحية، كما أن كثيراً من الألفاظ العربية، وخاصة تلك المرتبطة بالإسلام وعلوم الدين دخلت الفارسية من ناحية أخرى(٢).

وأما التركستان، فقد كانت حماية ما وراء النهر من عدوان الأتراك الشرقيين من أهم منجزات العصر الأموي التي مكنت السيادة الإسلامية في ما وراء النهر، وأضافوا إلى هذه الجهود جهوداً أخرى في ميدان الدعوة إلى الإسلام، ونشر الثقافة العربية في البلاد، وقد وضحت هذه الجهود منذ فجر الفتح الأول، فقد كان قتيبة بن مسلم يبني المساجد في بخارى وسمرقند، ولم تكن المساجد دوراً للعبادة فحسب، إنما كانت مدارس الثقافة العربية الإسلامية، وأتبع ذلك بتوطين القبائل العربية في المدن الكبرى.

وتتابعت الجهود في عهد عمر بن عبد العزيز الذي أسقط الجزية عمن أسلم، وأمر عماله بالدعوة إلى الإسلام، واستمرت هذه الجهود بعد عمر خاصة في عهد الوالي أشرس بن عبد الله السلمي (١٠٨ ـ ١١٠هـ) إذ كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس، وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية في البلاد(٣).

ومع كل ذلك فإن اللغة العربية لم تستطع أن تنتشر رغم إسلام الأتراك وحماسهم الشديد له، وكل ما عمله الأتراك أنهم انتحلوا الخط العربي بحيث لا تجد تركياً على شيء من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغة القرآن في سهولة(٤)، وهنا لا بد أن نأتي إلى تلك النتيجة المنطقية، وهي أن انتشار الإسلام قد أدى إلى انتشار اللغة العربية ولكنه لم يؤد بالضرورة إلى التعريب(٥) في المناطق الفارسية والتركية وغيرها.

(١) الحضارة الإسلامية، ص (١٢٩).
(٢) الإسلام والتعريب، سعيد عاشور، ص (٢٥١).
(٣) الإسلام والحضارة العربية، حسن أحمد محمود، ص (١٢٩ ـ ١٣٠).
(٤) الإسلام والتعريب، ص (٢٥٥).
(٥) الحضارة الإسلامية، ص (١٣٢).

٢ ـ هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة:

ساعد على تعريب البلاد المفتوحة أن العرب الذين نزحوا إلى الأرض الجديدة استقر معظمهم فيها، ولم يستمروا طويلاً في حالة عزلة، وإنما أخذوا يندمجون تدريجياً مع الأهالي الأصليين، ولعل أول موجة نذكرها جاءت إلى مصر مع عمرو بن العاص، واستمرت الهجرة في العهد الأموي وأخذوا يندمجون تدريجياً مع الأهالي الأصليين(١).

٣ ـ تعريب الدواوين:

ومن الأمور التي ساعدت على حركة التعريب، ما قام به عبد الملك من حركة التعريب في الدواوين، فقد أدى هذا الفعل إلى تعريب اللسان ونشر الخط العربي في كل البلدان التي توالى فيها بعد ذلك نقل دواوينها إلى اللغة العربية، ذلك أن استخدام اللغة العربية في الشؤون الإدارية كان وسيلة فعالة كبرى ساهمت في نشر العلم بطراز معهود في الكتابة العربية، ومن الثابت أيضاً أن هذا الطراز لم يتم تطوره الكامل إلا بتحقيق حروف الهجاء في أواخر القرن الأول بعد الهجرة(٢).

٤ ـ تفوق الحضارة الإسلامية:

ساعد ازدهار الحضارة الإسلامية واتساع نطاقها وتنوع آفاقها على حركة التعريب، فهذه الحضارة ساهمت في جميع الميادين ذات الخبرة الإنسانية، سواء الدراسات القطرية والعملية والأطعمة والأشربة والعقاقير والأسلحة والفنون والصناعات، والنشاط التجاري والبحري، وكانت اللغة العربية أداة تلك الحضارة العظيمة(٣)، وقد استفاد العرب من حضارات الأمم الأخرى، وقد أدى تفوق الحضارة الإسلامية إلى انتشار اللغة العربية في ربوع العالم، ولكنه لم يؤد إلى التعريب(٤).

٥ ـ لغة الغالبين الفاتحين:

كانت اللغة العربية هي لغة الغالبين الفاتحين، سادة البلاد، وحكامها الجدد، وثمة علاقات متبادلة بين الحاكم والمحكوم تتطلب قدراً من التفاهم المشترك، الذي

---

(١) المصدر نفسه، ص (١٣٤).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٣٦).
(٣) الحضارة الإسلامية، ص (١٣٧).
(٤) المصدر نفسه، ص (١٣٧).

لا يتحقق إلا داخل إطار لغة متفق عليها بين الطرفين، ولما كان الحكام الجدد لا يعرفون لغة إلا العربية، فلم يبق أمام الشعوب التي خضعت لهم سوى تعلم العربية، هذا فضلاً عما يقال في أن ثمة عقدة نفسية عند البشر تجعل الضعيف شغوفاً بمحاكاة القوى، والمغلوب مولعاً دائماً أبداً بتقاليد الغالب[١].

وهذا القول ليس على إطلاقه، فهناك أمثلة عديدة في التاريخ ـ قبل حركة الفتوح الإسلامية وبعدها ـ تثبت أن تحول شعوب بأكملها إلى لغة الحكام الفاتحين ونبذها لغة الآباء والأجداد ليست القاعدة في التاريخ، فاللغة العربية وإن كانت لغة غالب الفاتحين فإن ذلك لم يؤد إلى تعريب كل الشعوب، وإن أدى ذلك إلى انتشار اللغة العربية في تلك البلاد المفتوحة، وذلك أن الإسلام لا يجبر الشعوب على ترك لغتها وأعرافها وعاداتها ما لم تخالف الشرع[٢].

هذه هي أهم الأسباب التي ساهمت في انتشار اللغة العربية وحركة التعريب في بعض البلدان المفتوحة.

رابعاً
الحرص على سلامة الجيوش

كان عبد الملك بن مروان يوصي قادته بالحذر من البيات، والتيقظ والحرص على سلامة العسكر، بإقامة الحرس، فكان قادته لا يسيرون ولا ينزلون إلا على تعبئة، ويتخذون في نزولهم الخنادق والمسالح بكل مكان مخوف، والأرصاد على العقاب والشعاب[٣]، واهتم عبد الملك بجمع الأخبار عن العدو، فلا يسير له جيش إلا وقد سبقته العيون لترصد أخبار العدو، واستطاع قادته استمالة بعض أبناء البلاد المفتوحة ليكونوا عيوناً لهم يقدمون لهم المعلومات الصحيحة عن تحركات العدو، واستعانوا أيضاً بالتجار في هذه المهمة[٤]، فكل قادة الفتح كان لهم عيون يجمعون لهم المعلومات عن الأعداء، وهذا دليل على حرص القيادة على سلامة جنودها وجيوشها.

---

(١) المصدر نفسه، ص (١٣٨).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٣٩).
(٣) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (١/ ١٩٨).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٤٠٧).

خامساً

أهمية الشورى في إدارة الصراع

ومما أوصى به الخليفة عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز عندما أبقاه على ولاية مصر قوله: «وإذا انتهى إليك مشكل، فاستظهر عليه بالمشورة، فإنها تفتح مغاليق الأمور المبهمة، واعلم أن لك نصف الرأي ولأخيك نصفه، ولن يهلك امرؤ عن مشورة[١]. كما أوصى أحد قواده بقوله: لا تستعن في أمر دهمك برأي كذاب ولا معجب، فإن الكذاب يقرب لك البعيد ويبعد عنك القريب، وأما المعجب فليس له رأي صحيح ولا روية تسلم[٢].

ومما قاله عبد الملك في المشورة: لأن أخطئ وقد استشرت أحب إليّ من أن أصيب وقد استبددت برأيي وأمضيته من غير مشورة، لأن المقدم على رأيه يزري به أمران: تصديقه رأيه الواجب عليه تكذيبه، وتركه من المشورة ما يزداد به بصيرة[٣].

وعندما تحركت الروم بأرض القسطنطينية حيث عزموا على غزو المسلمين، وبلغ أمرهم عبد الملك بن مروان نادى في أهل الشام وجمعهم في المسجد الأعظم، ثم صعد المنبر وقال ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ـ: أيها الناس إن العدو قد كلب عليكم وطمع فيكم، وهنتم عليه لترككم العمل بطاعة الله تعالى، واستخفافكم بحق الله، وتثاقلكم عن الجهاد في سبيل الله، ألا وإني قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم، فماذا عندكم من الرأي[٤]؟. وهنا نجد أن الخليفة عبد الملك بن مروان شاور المسلمين في مرحلة الإعداد والإقرار، فيبرز بذلك مبدأ الشورى في اتخاذ القرار العسكري في الإدارة العسكرية الأموية، وأخذ قادة الخليفة عبد الملك بن مروان يعملون بالمشورة فيما بينهم في إدارتهم للمعارك الحربية وبين القيادة العليا المركزية[٥]، وحين حضرت الخليفة عبد الملك الوفاة أوصى أبناءه بقوله: وانظروا ابن عمكم عمر بن عبد العزيز فاصدروا عن رأيه ولا تَخَلَّوا عن مشورته، اتخذوه صاحباً لا تجفوه، ووزيراً لا تعصوه، فإنه مَنْ علمتم فضله ودينه وذكاء عقله، فاستعينوا به على كل مهم، وشاوروه في كل حادث[٦]. وبانتقال

(١) تارخي ابن خلدون نقلاً عن الإدارة العسكرية (١/ ٢٨٢).

(٢) المنهج المسلوك للشيرازي، ص (٤٩٠).

(٣) المصدر نفسه، ص (٤٨١)، الإدارة العسكرية (١/ ٢٨٣).

(٤) الفتوح لابن أعثم (٤/ ١٢٢).

(٥) الإدارة العسكرية (١/ ٢٨٣).

(٦) المصدر نفسه (١/ ٢٨٤).

الخلافة إلى ابنيه الوليد وسليمان سلكا نهجه في إدارتهما العسكرية بمبدأ الشورى وأخذهما بها لدى فتوحاتهم الإسلامية في مرحلة الإعداد والإقرار أو التخطيط والتنفيذ(١).

سادساً

الاهتمام بالحدود البرية

اهتم الخليفة عبد الملك بالحدود البرية، فقام ببناء عسقلان وحصّنها ورمَّم قيسارية، وبنى بها بناءً كثيراً وبنى مسجدها، وقام بتجديد وترميم صور وعكا وأردبيل وبرذعة، لما لهذه الثغور من أهمية حربية(٢)، وبنى واليه الحجّاج بن يوسف مدينة واسط كقاعدة عسكرية تتوسط بين الأهواز والبصرة والكوفة بمقدار واحد قدره خمسون فرسخاً، وذلك أنه كان حينما يريد غزو خراسان ينزل جيش الشام على أهل الكوفة، فكانوا يتأذون منهم فبنى واسطاً، كمعسكر لهم، ولقد لعبت دوراً مهماً في عملية الإمداد لثغور المشرق(٣).

وفي عهد عبد الملك فتح حصن سنان(٤) من بلاد الروم، حيث استفاد منه بشحنه بالجند لحماية الحدود(٥)، واهتم عبد الملك في إدارته العسكرية بحملات الصوائف والشواتي، فكان يوليها كبار رجالات البيت الأموي، مما يدل على حرصه وعنايته في حماية وتأمين حدود الدولة الإسلامية ضد هجمات الأعداء، وكان من هؤلاء الأمراء ابنه الوليد.

ومن أمراء البيت الأموي الذين تولوا حملات الصوائف والشواتي لعدة سنوات أخو الخليفة عبد الملك (محمد بن مروان) والذي له الأثر الجميل في مباشرة تحصين وإنشاء حصن المصيصة، وشحنه بالجند، وبنائه لطرندة وتعزيزه إياها بالعسكر، وابنه مسلمة بالإضافة إلى كبار القادة أمثال يحيى بن الحكم وعثمان بن الوليد وغيرهما(٦).

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٨٤).

(٢) شذرات الذهب (١/ ٩٥)، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٩).

(٣) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٩).

(٤) في بلاد الروم فتحه عبد الله بن عبد الملك.

(٥) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٨٠).

(٦) تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٨١)، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٨١).

واهتم الخليفة الوليد بالحدود البرية وقام بتحصينات ثغرية كالتي أنشأها بالثغور الشامية على الخط الساحلي للبحر الأبيض المتوسط لحماية حدود الدولة الإسلامية من هجمات الروم واستحداثه لأربع نقاط حصينة هي حصن سلوقية[١]، وإقطاعه الجند للأرَضَى بها لتعميرها، وإلصاقهم بالشغر، وحصن بغراس وعين السلور[٢]، وبحيرتها والإسكندرونة[٣]، فأصبح هذا الخط الساحلي أكثر مناعة وحصانة في عهده عن ذي قبل[٤]، وقام بفتح حصون كثيرة ثم شحنها بالجند المرابطين منها حصن طوانة[٥] وغيره من الحصون.

واهتم الوليد بالطرق الموصلة إلى الثغور وقام بتسهيلها وتأمينها وبنى بها القناطر لعبور الجند عليها في حملاتهم الصائفة والشاتية[٦]، واستمر والي العراق من قبل الوليد الحجّاج بن يوسف بتحصين ثغور المشرق وعمل المراصد بها وبناء القواعد العسكرية فيها كخوارزم[٧]، وشيراز وخراسان وغيرها من ثغور المشرق[٨]، واستمر الخليفة سليمان على نهج والده وأخيه في الاهتمام بالحدود البرية[٩].

سابعاً

الأثر الاقتصادي والاجتماعي للفتوحات

من الآثار الاقتصادية والاجتماعية للفتوحات في عهد الخليفة عبد الملك ظهور التجار برفقة العسكر وقيامهم بشراء بعض ما يغنمه الجند من العدو، فبذلك تنشط الحركة التجارية وتزدهر، كما أنه أثناء سير العسكر نحو العدو، وحين يصادف مرورهم بالمدن والقرى المتواجدة في طريقهم يقومون بشراء احتياجاتهم[١٠] منها،

---

(١) سلوقية: حصن عند الساحل بأرض الروم (تركيا).

(٢) عين السلور: قرب أنطاكية، السلور: السمك البحري.

(٣) إسكندرونة: مدينة شرق أنطاكية.

(٤) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٨٣).

(٥) طوانة: بلد بثغور المصيصة، معجم البلدان (٤/ ٤٥).

(٦) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٨٣).

(٧) المصدر نفسه (٢/ ٤٨٥).

(٨) المصدر نفسه (٢/ ٤٨٦).

(٩) المصدر نفسه (٢/ ٤٨٧).

(١٠) تاريخ الطبري نقلاً عن الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٥).

وكان والي مصر عبد العزيز بن مروان من قبل عبد الملك يحفر الخلجان بها وكانت له بمصر ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره، ومائة جفنة يطاف بها على القبائل، تحمل على عجل من أجل الإطعام[١].

هذه هي أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات في عهد عبد الملك بن مروان وابنيه.

(١) الولاة للكندي، ص (٣١٣)، الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٦).

الفصل الرابع

النظام الإداري في عهد عبد الملك

الفصل الرابع

النظام الإداري في عهد عبد الملك

اهتم عبد الملك بن مروان اهتماماً خاصاً بإدارة شؤون الدولة، وسار على نهج معاوية في تطوير المؤسسات والاهتمام بالإصلاحات، وقد قام بتطوير الجهاز الإداري وتنشيطه، وقام بتعريب الإدارة والنقد، وهو ما يعرف بحركة التعريب، كما استعان بنخبة من أمهر رجال عصره في الإدارة والسياسة، فقد كرّس عبد الملك كل وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة وتنظيمها والسهر على سلامتها، حتى تركها قوية غنية مرهوبة الجانب مرعية السلطان(١)، وقد أعاد عبد الملك تنظيم الحكم الأموي على أسس جديدة، واستفاد من سياسة معاوية ومن الأنظمة التي وضعها، ولكنّ نزعته للتفرد بالسلطان والحكم جعلته يخالف معاوية رضي اللّه عنه في كثير من الأمور، فمعاوية كان يُشعر جلساءه وقواده وولاته على الأقطار أن لهم الحرية في النقد والقول، والرأي، أما عبد الملك فلا يشعرهم بشيء من ذلك، فهم بين يديه ليسيروا على هواه، وليقدم إليهم الأوامر فينفذوها، فما كان يسمح لجلسائه بأن يجتزئوا من سلطانه شيئاً، وقد نظم دولته على هذا الأساس من التمسك بالسلطان والسيادة والانفراد ونظم وسائل الحكم تنظيماً جعله السيد المتفرد في دولته، ويبدو أن نظرته للنظام شملت النواحي الآتية:

ـ دواوين الدولة، فهي الأسلاك التي تدير دفة الحكم والأمة.

ـ الولاة، فهم الذين ينفذون سياسة الدولة ويضبطون الملك.

ـ البريد فهو الذي يوصل بين أطراف الدولة(٢).

وتلك النظرة تشير إلى مبدأ في السيطرة، فالأمور المذكورة إنما هي أسلاك وخيوط في يده يحرك بها أجزاء خلافته ويستخدمها لسلطانه(٣)، وإليك أهم معالم التطوير الإداري في عهد عبد الملك.

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (١٥٣).

(٢) الدولة الأموية، يوسف العشي، ص (٢٢٩).

(٣) الدولة الأموية، يوسف العشي، ص (٢٢٩).

أولاً

الدواوين

١ ـ ديوان الرسائل:

وقد تطور هذا الديوان كثيراً في عهد عبد الملك، وازدادت أهميته بشكل واضح ولا سيما أثناء ولاية الحجاج للعراق، نظراً للمستجدات السياسية والعسكرية ووجود المتمردين والخارجين على الدولة، مما استوجب متابعة أخبارهم، فكان الخليفة عبد الملك يكتب للحجاج بشأنهم، مما كان باعثاً مهماً لازدهار ديوان الرسائل والكتابة، فكانت هذه الرسائل تصدر من الديوان بشكل مستمر إلى من يهمه الأمر لمعالجة أوضاع تلك الاضطرابات[١]، حيث أن الخليفة عبد الملك كان غالباً ما يلجأ إلى المكاتبات السياسية في محاولة منه أن يفت في عضد قادة الحركات، فقد راسل ـ وقبل اجتماع الأمة عليه ـ مصعب بن الزبير، وابن الأشتر[٢].

كما كان يرسل التوجيهات الإدارية والعسكرية إلى ولاته وقادته، وكان من الطبيعي أن تزداد مراسلات الحجاج إلى ولاته وقادته ومراسلاتهم إليه كالمهلب بن أبي صفرة مثلاً[٣]، ويلاحظ كثرة التواقيع[٤].

في مراسلات الخليفة عبد الملك مع الحجاج بن يوسف الثقفي، والتي تؤكد أهمية ديوان الرسائل وتطوره، وتوضح في جانب منها طبيعة سياسة الخليفة الإدارية، فوقع مثلاً في كتاب أرسله إلى الحجّاج: جنبني دماء ابن عبد المطلب فليس فيها شفاء من الطلب[٥]، وجاء في كتاب للحجّاج: ارفق بهم فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ومع الخرق ما تحب[٦].

ونظراً لأهمية الرسائل فإن الخليفة عبد الملك بن مروان، وكذلك الحجّاج لم يستخدما في هذا الديوان إلا من هو موضع ثقة وأمانة وإخلاص كما اختير الكتاب الحاذقون الذين يجمعون بين الخبرة الإدارية وكتابة الرسائل وإجادة أسلوب

---

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٣٧).
(٢) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (١٣٧).
(٣) الأخبار الطوال، ص (٢٧٧ ـ ٢٨٠)، نهاية الأرب (٧/ ٢٤٦، ٢٤٧).
(٤) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٣٧).
(٥) العقد الفريد (٤/ ٢٠٧).
(٦) خاص الخاص، للثعالبي، ص (٨٧).

المخاطبة، ومن أشهر من استخدمهم الخليفة عبد الملك قبيصة بن ذؤيب، وبلغ من علو مكانته أنه كان يطلع على الكتب الواردة إلى الخليفة قبل أن يعرضها على الخليفة نفسه[١].

ومن كتابه المشهورين روح بن زنباع الجذامي، وكان روح هذا على جانب كبير من العلم والأمانة إذ كان يقول فيه عبد الملك: ما أعطي أحد ما أعطي أبو زرعة ـ وكان يقال عنه: أعطي فقه الحجاز، ودهاء أهل العراق، وطاعة أهل الشام[٢]، والحق أن عبد الملك سلسل الأمور في أعمال الدولة تسلسلاً دقيقاً ووضع في ديوان الرسائل موظفين عارفين، وعلى رأسهم مستشاره الخاص، يستشيره في الرسائل التي يرسلها إلى الأقطار والتي ترد منها[٣].

٢ ـ ديوان العطاء:

أدرك الخليفة عبد الملك بن مروان أهمية العطاء، وبدأ العطاء في عهده يرتبط بشكل واضح بالنواحي العسكرية والسياسية، ففي سنة ٦٩هـ، خرج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير، فتخلف بعض من أهل الشام عن الخروج معه، فأخذ خمس أموالهم من عطاء سنة ٧٠هـ على الرغم من حبه العميق لهم[٤]، كما كان عبد الملك يضطر أحياناً وتحت ضغط الظروف إلى زيادة العطاء أو إدخال أناس آخرين في الديوان، كما فعل حين تمرد الجراجمة، إذ أعلن قائده سحيم بن المهاجر على لسان الخليفة: من أتانا من العبيد فهو حر ويثبت في الديوان، فانفض إليه خلق كثير[٥]، كما استخدم سلاح زيادة العطاء أيضاً ضد عبد اللّٰه بن الزبير، حينما نادى الحجّاج جنده قائلاً: يا أهل الشام قاتلوا على أعطيات عبد الملك[٦].

وقد حدث تطور مهم لديوان الجند في عهد عبد الملك في العراق خاصة وذلك حينما بدأ الجند يتقاعسون عن الخروج لقتال الخوارج، فعين عبد الملك الحجاج على العراق، وأمره أن يعيد تنظيم ديوان الجند، وتنظيم العطاء فيه على أساس المقدرة والكفاءة، فأعاد الحجاج تنظيم ذلك على أسس دقيقة[٧]، ثم أمر

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (٥/ ٣٥٦).
(٢) البيان والتبيين (٢/ ٧٧) الإصلاحات المالية، ص (١٣٨).
(٣) الدولة الأموية، يوسف العشي، ص (٢٣).
(٤) سراج الملوك للطرطوش، ص (١١٨).
(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن الإصلاحات المالية والإدارية، ص (١٣١).
(٦) الإصلاحات المالية والإدارية، ص (١٣١).
(٧) العراق في عهد الحجاج، طه عبد الواحد، ص (١٢٦، ١٢٧).

بإعطاء الناس عطاءهم، والتوجه لجبهات القتال، وتوعد المتخلفين منهم بالموت[١]، كما لم يقبل إعفاء جندي من الخروج للقتال مقابل تركه عطاءه[٢].

وقد استخدم الخليفة عبد الملك العطاء وسيلة للقضاء على الفتنة، فقد كتب يوماً إلى الحجاج، أن يصف له الفتنة فوصفها له: فكتب إليه عبد الملك: فإن أردت أن يستقيم لك من قبلك فخذهم بالجماعة وأعطهم عطاء الفرقة[٣]، وكان الحجاج يصرف العطاء بأكمله لجنده في أوقات الأزمات السياسية أو الاستعداد للقتال، كما فعل حينما أعطى الناس أعطياتهم كاملة عند تجهيز جيش الطواويس لقتال رتبيل[٤].

ومن ناحية أخرى، فإن الخليفة عبد الملك بن مروان، كان يكرم من أسدى خدمة عسكرية للدولة أو أظهر بطولة وشجاعة في جبهات القتال، فقد كرّم موسى بن نصير حينما حرر إفريقيا سنة ٨٣هـ[٥]، كما كرّم الحجّاج المهلب بن أبي صفرة وأصحابه لجهودهم في القضاء على الخوارج الأزارقة، إذ أحسن عطاياهم وزاد في أعطياتهم ثم قال: هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال، هؤلاء حماة الثغور وغيظ الأعداء[٦].

وأما إدارة هذا الديوان، فكان من أشهر من تولاه للخليفة عبد الملك بن مروان هو سرجون بن منصور الذي تولى ديواني الجند والخراج في دمشق[٧]، ثم عزله الخليفة وعين بدله سليمان بن سعد الخشني[٨].

٣ ـ ديوان الخراج:

كما ذكرنا قبل قليل، أن سرجون بن منصور كان قد تولى إدارة ديوان الخراج والجند على عهد الخليفة عبد الملك[٩]، ثم عزله وعين بدله سليمان بن سعد

(١) تارخي الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (١٣٢).
(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٣٢).
(٣) مروج الذهب (٣/ ١٢٦).
(٤) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية ص (١٣٢).
(٥) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٣٢).
(٦) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (١٣٣).
(٧) الوزراء للجهشياري، ص (٤٠).
(٨) المصدر نفسه، ص (٤٥) نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (١٣٣).
(٩) الوزراء للجهشياري، ص (٤٥) نقلاً عن الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٣٤).

الخشني[١]، وكان يساعد صاحب الخراج عدد غير قليل من الكتّاب والموظفين، إذ كان بديوان خراج مصر حوالي أربعة وأربعين موظفاً[٢]، ويبدو أن متولي الخراج كان يحصل على أموال طائلة من عمله، مثل «أثيناس» متولي الخراج في مصر على عهد عبد الملك، حيث كان واسع السلطات عظيم النفوذ[٣]، وكان أشهر من تولى ديوان خراج العراق هو (زادان فروخ)[٤] ثم صالح بن عبد الرحمن[٥].

٤ ـ ديوان الخاتم :

في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان تطور ديوان الخاتم، فأصبح إدارة منظمة، كما نشأت في هذه الفترة دار للمحفوظات الحكومية في دمشق[٦]، ومن المحتمل أن هذا الديوان لم يقتصر على العاصمة دمشق، بل ربما وجد في باقي الولايات خصوصاً بعد التنظيم الإداري الواسع الذي قام به الخليفة عبد الملك بن مروان، وكذلك لكثرة المراسلات مع الولايات المختلفة وأهميتها السياسية، ولا سيما مع العراق، وكان الخليفة عبد الملك لا يولي هذا الديوان إلا أوثق الناس عنده[٧].

٥ ـ ديوان الطراز :

يراد بالطراز في الأصل التطريز، ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير ورجال حاشيته، لا سيما إذا كان فيها شيء من التطريز، وعليه أشرطة من الكتابة، ثم اتسع مدلول الطراز، فأصبح يطلق على المصنع والمكان الذي تصنع فيه مثل هذه المنسوجات[٨]، وفي العصر الأموي إرتفع المستوى المعيشي، فزادت عناية الناس بمظاهر الترف والأبهة، لذلك أنشأ الأمويون عدداً من المصانع عرفت بدور الطراز[٩]، وقد اهتم الخليفة عبد الملك بن مروان بالطراز، فنظمت صناعته بشكل واسع وأصبح أساساً لما حدث من نهضة في صناعة النسيج، وبخاصة زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك[١٠].

---

(١) التنبيه للمسعود، ص (٢٧٣)، الإصلاحات المالية، ص (١٣٤).

(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ض (١٣٥).

(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (١٣٥).

(٥) المصدر نفسه، ص (١٣٥) نقلاً عن الكامل في التاريخ.

(٦) الإدارة العربية للحسيني، ص (٦٩).

(٧) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٤١).

(٨) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٥٦).

(٩) النسيج الإسلامي سعاد ماهر، ص (٢٥).

(١٠) المدخل، ناجي معروف، ص (١١٥).

٦ ـ ديوان البريد:

عندما تولى الخلافة عبد الملك طوّر الأجهزة التي تساعده على جمع العلومات، ولذلك اعتنى بشكل كبير بالبريد بوصفه وسيلة مهمة من وسائل ضبط دولته وانتظام أمورها، فطوّره ونظمه وأرسى قواعده[١]، فلم يعد وسيلة لنقل الأخبار والرسائل بين العاصمة والولايات، بطريقة تبادل الخيل وحسب، بل أصبح وسيلة مهمة في العمليات العسكرية، ونقل الأشخاص المهمين والمواد المختلفة، باستخدام الرحلات السريعة والمنظمة، كما أصبح عيناً للخليفة في نقل أخبار الإقليم والعمال وشكاوى الناس من عمالهم وموظفي الدولة هناك.

ومن أجل تسهيل عمل البريد وانتظامه وسرعته، قام الخليفة عبد الملك بن مروان بتنظيم طرق البريد، وتحديدها وتثبيتها، فقام ببناء الأميال في الطرقات[٢]، كعلاقات دلالة للطرق وتحديد مسافاتها، ومما يؤكد ذلك، ما وصل إلينا من نقوش معاصرة للخليفة عبد الملك، كشفت بالقرب من بيت المقدس تشير إلى أوامره بعمل هذه الأميال[٣]، فقد بذل الخليفة عبد الملك عناية فائقة في تنظيم الطرق وصيانتها، فأصبحت تخترق الدولة طرق عديدة أقيمت على طولها محطات للبريد[٤]، وقد أفاد الخليفة عبد الملك فائدة كبيرة من البريد خصوصاً في الجوانب العسكرية، سواء كان ذلك بإرسال الجند، والإمدادات والأوامر إلى قادة جنده، أو في نقل أخبار المعارك والتحركات العسكرية إليه[٥].

وإدراكاً من الخليفة عبد الملك لأهمية البريد وكسباً للوقت فقد جعل على هذا الديوان أخص خاصته وهو قبيصة بن ذؤيب، وأمر بألا يُحجب أي ساعة جاء من ليل أو نهار[٦]، وتأكيداً لذلك فقد منع عبد الملك حاجبه أن يحجب صاحب البريد، قائلاً له: وليتك ما خلف بابي إلا أربعة: ..والبريد متى جاء من ليل أو نهار فلا يُحجب، وربما أفسد على القوم تدبير سُنتهم[٧]، حبسهم البريد ساعة[٨]،

---

(١) الأوائل للعسكري، ص (١٩١).

(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٤٥).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٤٥).

(٤) تاريخ القدس للعارف، ص (٥٢).

(٥) الإصلاحات المالية، ص (١٤٦: .

(٦) الطبقات (٥/ ١٧٦)، (٥/ ٢٣٤).

(٧) سنتهم: طريقتهم.

(٨) الأوائل، ص (١٩١)، الإصلاحات المالية، ص (١٤٧).

ونتيجة ذلك أن انتظم البريد وأصبح الخليفة يطلع بشكل يومي على تفاصيل الأحداث[١].

وقد استخدم البريد في عصر عبد الملك أيضاً في حمل الأشخاص، ومن مختلف المستويات كالولاة والكتاب والشعراء وغيرهم، كما حمل كتب التأييد والرضا عن الخليفة من الأشخاص المهمين[٢]، وكان الحجّاج هو أيضاً دائم الصلة بقواده في جبهات القتال، ويتسمع أخبارهم بواسطة البريد، فكانت كتب الحجّاج ترد على محمد بن القاسم الثقفي، وكتب محمد ترد عليه بصفة ما قِبَلِهِ واستطلاع رأيه فيما يعمل به في كل ثلاثة أيام[٣]، ووصول الكتب بهذه السرعة يدل على التنظيم الرائع للبريد[٤].

ومن وسائل الاتصال والمخابرة الجديدة التي استخدمها الحجّاج في الأحوال العسكرية خاصة لإيصال الأخبار بين واسط وقزوين بسرعة، هو بناء المناظر والمنائر التي توضع على المرتفعات العالية حيث تنقل الإشارات بواسطتها عن طريق إشعال النار أو الدخان، فيصل الخبر بسرعة عن طريق انتقاله من منظرة لأخرى، وقد وضح ياقوت الحموي ذلك بقوله: . . وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهاراً، وإن كان ليلاً أشعلوا نيراناً وتجرد الخيل إليه، وكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط[٥].

ويبدو أن ما كان ينفقه عبد الملك على إدارة البريد لم يكن قليلاً لا سيما أنه قد بذل جهوداً كبيرة لتطويره وتنظيمه[٦]، ويمكن القول بأن الخليفة عبد الملك بن مروان هو أول من عمل ديوان البريد مؤسسة إدارية منظمة مستقلة، وهذا لا يعني عدم وجود البريد المنتظم في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلا أنه لم يكن ديواناً متكاملاً مستقلاً، خصوصاً أن مصادرنا التاريخية، لا تذكر البريد بوصفه ديواناً إلا في عهد عبد الملك بن مروان[٧]، فالبريد في نظر عبد الملك عصب الدولة

---

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص(١٤٧).
(٢) الأخبار الطوال، ص(٣٢٤)، الإصلاحات المالية، ص(١٤٨).
(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص(٤٢٤).
(٤) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص(١٤٨).
(٥) معجم البلدان (٥/ ٣٥٠).
(٦) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص(١٤٩).
(٧) المصدر نفسه، ص(١٤٩).

الحساس، ولذلك أقام له المحطات وفتح له المسالك ونظم مواعيده[١].

ثانياً

تعريب الدواوين وأسبابه والنتائج التي ترتبت عليه

جاءت عملية تعريب الدواوين ضمن الخطة المرسومة لسياسة الدولة الإصلاحية التي بدأها الخليفة عبد الملك بن مروان، وأكملها الخلفاء الذين جاءوا من بعده، والتي تضمنت نقل الدواوين من اللغات الأجنبية: الفارسية، واليونانية، والقبطية إلى اللغة العربية لإزالة النفوذ الأجنبي من مؤسسات الدولة الإدارية والمالية.

وعملية التعريب التي ابتدأها عبد الملك تعتبر من الأحداث العظيمة والجليلة التي قام بها عبد الملك وفق خطة شاملة.

وكان لتعريب المؤسسات الإدارية (الدواوين) أسباب كثيرة منها:

١ ـ إن دخول شعوب وأقوام مختلفة اللغات والديانات إلى الإسلام يعني حاجة هؤلاء الماسة إلى التفقه بالدين وقراءة القرآن الكريم، مما شدد الصراع بين اللغة العربية واللغات الأخرى، ومن ثم إلى شيوع اللحن، لذلك اعتنى عبد الملك وواليه الحجّاج بن يوسف، بضبط قراءة القرآن، عن طريق تمييز الحروف المتشابهة بوضع النقط عليها[٢]، لذلك كان التعريب ضرورة ملحة، وكان الحرص على سلامة اللغة العربية من العوامل المهمة التي أدت إلى تعريب الدواوين في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان[٣].

٢ ـ كان الخليفة عبد الملك يهدف من وراء التعريب إلى تحقيق وحدة الدولة وتماسكها، إذ أن اختلاف لغات الدواوين يكرّس اختلاف النظم المالية والإدارية، ويعيق عملية تنظيم وتوحيد إدارة الدولة، كما أن تعريب الدواوين يعني إنهاء التأثيرات الشعوبية والعنصرية، مما يؤكد سيادة الدولة سياسياً على البلاد المفتوحة.

---

(١) الدولة الأموية، العشي ص (٢٣٦).

(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٦٩).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٦٩).

٣ ـ إن استعمال اللغات الأجنبية في الدواوين يعني بقاء هذه اللغات حية وكأنها رسمية، فيتعلمها الناس لحاجة الدولة إليها لكونها طريقاً لتولي الوظائف الكبيرة، وينتج عن ذلك استمرار منافسة هذه اللغات اللغة العربية، مما يضعف من شأنها، ويضعف كيان الدولة الأموية، ولذلك كان التعريب جزءاً من سياسة عبد الملك بن مروان الهادفة إلى إعادة تنظيم جهاز الدولة الإداري، وتحقيق شخصية الدولة واستقلالها عن النفوذ الأجنبي[١].

٤ ـ كان للعوامل الاقتصادية أثر مهم في تعريب الدواوين، فقد كان متولُّو هذه الدواوين يحصلون على أموال طائلة من عملهم هذا، لذلك كان تعريب دواوين الخراج خطوة أولى باتجاه إعادة تنظيم طريقة جباية الضرائب في الأقاليم، وبذلك يمكن ضبط أعمال تلك الدواوين والإشراف بدقة عليها، فيمنع الغش والتزوير، أي أن تعريب الدواوين هو جزء من خطة الإصلاح المالي الذي كانت الدولة بحاجة شديدة إليه إذ ذاك[٢]، ولا سيما في العراق أهم أقاليم الدولة الأموية اقتصادياً، حيث حاول الحجّاج بن يوسف الثقفي معالجة الأوضاع الاقتصادية وذلك بالسيطرة على الشؤون الإدارية عن طريق السيطرة على سجلات الدواوين المالية[٣].

هذه هي أهم الأسباب التي دعت عبد الملك ليعرّب الدواوين.

* نتائج تعريب الدواوين:

حققت حركة تعريب الدواوين على يد الخليفة عبد الملك بن مروان نتائج ذات آثار عظيمة في جميع الميادين السياسية والإدارية والثقافية واللغوية، ما زالت نتائجها شاخصة للعيان حتى اليوم ويمكن تحديد نتائج حركة التعريب بما يأتي:

١ ـ تحقيق سيادة لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتعزيز مكانتها، وانتصارها على اللغات الأجنبية في الدولة، كالفارسية واليونانية، والقبطية، إذ أصبحت لغة الدين الإسلامي، لغة السياسة والدين والعلم، وأصبحت مادة التفاهم اليومي في كل أنحاء الدولة، فانتشرت الثقافة العربية التي طغت على الثقافات الأخرى، وتفاعلت معها وأذابتها وحلت محلها، إذ اعتبر التعريب من

---

(١) المصدر نفسه، ص (١٦٨).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٦٨).
(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٦٨).

الأحداث الكبيرة والإنجازات الضخمة في المجال الثقافي والسياسي وقد تمّ وفق خطة مدروسة.

٢ـ ظهور فئة مهمة من الكتاب العرب أو الموالي حلّوا محل الكتّاب الفرس والروم في إدارة الدواوين، إذ كان لصالح بن عبد الرحمن مهمة كبيرة في ذلك، حيث يقول عبد الحميد بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب للخليفة مروان بن محمد: للّه در صالح، ما أعظم منّتِه على الكتّاب[١]، وبذلك كان عامّة كتاب العراق تلامذة صالح، ومن هؤلاء قحذم بن أبي سليم وشيبة بن أيمن، والمغيرة وسعيد ابنا عطية ومروان بن إياس[٢].

٣ـ ظهور حركة الترجمة، من اللغات الأجنبية إلى العربية، حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظمة أدت إلى نقل الكثير من المصطلحات الأجنبية، وظهر من اهتم بالترجمة، مثل خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفى ٨٥هـ، فهو أول من أمر بنقل بعض كتب الكيمياء والطب من اليونانية إلى العربية[٣].

٤ـ كان تعريب الدواوين سبيلاً إلى تعريب الأقاليم والجاليات غير العربية، فكان هذا من أكبر العوامل في انتشار اللغة العربية[٤]، كما أن أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي ما زالت إلى وقتنا الحاضر عربية ثمرة لجهود عبد الملك[٥]، فاللغة العربية هي الأداة التي جعلت مجتمع العرب يتسع رويداً رويداً حتى صارت حدوده تمتد من الخليج العربي شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً[٦].

٥ـ تمكنت الدولة من تحقيق الإشراف التام على النواحي المالية والإدارية وضبط أعمال الدواوين وسجلات الضرائب، أي أسهم ذلك في نجاح الدولة بخطه الإصلاحي.

٦ـ اتجه الموالي لتعليم اللغة العربية لكونها الطريق التي تؤدي إلى الوظائف والمناصب العالية، كما أدى من جهة أخرى إلى إشاعة اللحن في اللغة، مما دعا الحجّاج إلى معالجة ذلك، ثم اندفع الموالي للتخلص من اللحن والخطأ

---

(١) الفهرست لابن النديم، ص (٣٠٣).
(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري، ص (٣٩).
(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٧٩).
(٤) عبد الملك بن مروان للريس، ص (٢٨٦).
(٥) التاريخ السياسي، عبد المنعم ماجد (٢/ ١٦٢).
(٦) الحضارة الإسلامية، عبد المنعم ماجد، ص (١٥).

وتعلم النحو ودراسته، فحدثت نهضة لغوية واسعة، وهذا يفسر لنا ظهور علماء كبار من الموالي في العصر الأموي ثم العصر العباسي.

٧ ـ إيجاد نظام إداري موحد وشامل، وللدلالة على حسن هذا النظام أن اتخذه العباسيون، فقد كانت الإدارة عندهم تطوراً للإدارة عند الأمويين[١].

هذه هي أهم نتائج حركة التعريب التي قام بها عبد الملك بن مروان.

ثالثاً

إدارة الأقاليم في عهد الخليفة عبد الملك

عندما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (٧٣ ـ ٨٦هـ) قام بتنظيم دواوين الدولة ومؤسساتها، كما قام بتنظيم إدارة الأقاليم، وأعاد النظر في تقسيمها وترتيبها، آخذاً بنظرة تغير الحياة وتطورها بمختلف أوجهها، وكانت الدولة الأموية مقسمة إلى عدة أقاليم، ويرأس كل إقليم أمير، يكون تعيينه وعزله من الخليفة، ويملك هذا الأمير سلطات واسعة في إدارة إقليمه، فهو الذي يعين العمال على الولايات والمدن التابعة لإقليمه، كما يعين الموظفين أيضاً، وهو المسؤول عن تنظيم الجند، وتجهيز الحملات العسكرية، وغالباً ما يقودها بنفسه أو ينيب عنه قائداً لذلك، وكان له الإشراف على سك النقود أيضاً.

وكان بجانب الأمير[٢] موظف له أهمية كبيرة هو صاحب الخراج، فالوالي: يدير الشؤون السياسية للولاية، وعامل الخراج يتولى إدارة الشؤون المالية، ويكون صاحب الخراج بمثابة الرقيب على الوالي، ويعين صاحب الخراج هذا من الخليفة، وقد تحصل مواجهة تصادم بين الوالي وصاحب الخراج.

وكذلك كان يساعد الأمير في عمله عدد من الموظفين منهم القاضي، وصاحب الشرطة، ورئيس الحرس، والكاتب والحاجب[٣]، وقد بلغت الدولة

---

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص(١٨٠).

(٢) كان حكام الأقاليم يسمون في أول الأمر: عمالاً ثم استعملت فيما بعد كلمة والٍ، ثم أطلقت عليهم كذلك كلمة أمير وتطور هذا اللفظ على هذا النحو: عامل فوال، فأمير، يدل على أن سلطة هؤلاء الحكام بدأت محدودة ثم أخذت تتسع حتى أصبحت سلطاتهم عظيمة، فالعامل لم يكن مطلق السلطة، والوالي كان نفوذه واسعاً، والأمير كان نفوذه أوسع.

(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص(١٨٤).

الإسلامية في العهد الأموي أقصى اتساعها وكانت مقسمة إدارياً، في عهد عبد الملك إلى أقاليم كبرى هي:

١ ـ بلاد الشام العاصمة للدولة:

وكانت بلاد الشام في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان قد استقرت إدارياً إلى خمسة أجناد وهي: جند دمشق، وحاضرتها دمشق، وجند حمص وحاضرتها حمص، ومن مدنها تدمر، وجند قنسرين، وحاضرتها قنسرين، ومن مدنها حلب ومرعش، وجند فلسطين، وحاضرتها اللد، ومن مدنها تبوك وجند الأردن، وحاضرتها طبرِية، ومن مدنها عكا[١].

وكان لنظام الأجناد أهمية إدارية وعسكرية كبيرة، إذ كان من أهم أسباب قوة الدولة الأموية، فقد كان الجند مستعدين دوماً للقضاء على أعداء الدولة في الداخل، والخارج[٢]، ولم يعين عبد الملك والياً خاصاً على بلاد الشام، لأنها كانت تحت إشرافه المباشر، إلا أنه عين على الأجناد ولاة خاصين بها، وكان جند دمشق يقع تحت إدارة عبد الملك مباشرة بوصفها حاضرة الدولة الأموية[٣].

٢ ـ إدارة الحجاز وأواسط الجزيرة العربية واليمن:

أ ـ **الحجاز**: في سنة ٧٣هـ، حدث تطور إداري مهم، إذ جمع الخليفة عبد الملك أعمال الحجاز واليمن للحجّاج بن يوسف الثقفي[٤]، فكان الحجّاج يستخلف على المدينة ـ إذا أتى مكة ـ عبد اللّه بن قيس بن مخرمة الذي ولاه قضاء المدينة، وقد أدرك عبد الملك أهمية الحجاز المعنوية والمؤثرة، فانتهج لذلك سياسة حكيمة، فقد أحسن إلى الناس واستجاب لطلبهم في عزل الحجّاج عن الحجاز، أدت بالتالي هذه السياسة إلى نجاحه في الحصول على بيعة كبار أهله.

وفي سنة ٧٥هـ نقل عبد الملك بن مروان الحجّاج من الحجاز وولاه العراق[٥]، ثم ولى الخليفة عبد الملك بعد ذلك على المدينة عمه يحيى بن الحكم بن أبي العاص ثم عين أبان بن عثمان سنة ٧٦هـ. وفي عام ٨٢هـ عزل

---

(١) المسالك والممالك، ص (٤٣)، معجم البلدان (٢/ ١٧٠).

(٢) الوليد بن عبد الملك للكاشف، ص (٥٠، ٥١).

(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٨٦).

(٤) أخبار مكة (٢/ ١٧٤) الإصلاحات المالية، ص (١٩٩).

(٥) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢٠٢).

الخليفة أبان بن عثمان عن ولايته المدينة، وقبل سنة ٨٣هـ ولى مكانه هاشم بن إسماعيل المخزومي[١]، فبقي في منصبه حتى وفاة الخليفة عبد الملك[٢].

ومن الجدير بالملاحظة أن الولاة الذين عينهم الخليفة عبد الملك بن مروان على المدينة إما من أفراد الأسرة الأموية، أو ممن لهم صلة عائلية بالأسرة مثل هشام بن إسماعيل المخزومي، ويبدو أن هذا الاختيار كان الهدف منه ضمان الولاء والإخلاص التامين للخليفة، لا سيما أن المدينة كانت من مراكز المعارضة القوية للأمويين[٣].

ب ـ **مكة**: بعد مقتل ابن الزبير ولى الخليفة ابنه مسلمة بن عبد الملك والياً عليها، وفي السنة نفسها جمع عبد الملك الحجاز وأعماله واليمن للحجّاج حتى سنة ٧٥هـ، ثم ولى مكانه الحارث بن خالد المخزومي[٤]، ولا بد من القول إنه تعاقب على مكة ولاة تختلف المصادر في تسميتهم وسني حكمهم، وربما يرجع ذلك إلى كثرة عددهم من جهة، وإلى قصر فترة ولاية بعضهم من جهة أخرى[٥]، وكان عبد الملك يعتني بتعمير الكعبة والمحافظة على سلامتها، وكان يبعث إليها بالهدايا والديباج كل سنة[٦].

جـ ـ **أواسط الجزيرة العربية**: كانت أهم مناطقها اليمامة، وكانت اليمامة منذ سنة ٦٥هـ مقراً لنجدة الحنفي زعيم فرقة النجدات الخارجية[٧]، والذي بدأ تحركاته العسكرية منطلقاً من اليمامة حتى تمكن من تأسيس دولة النجدات في اليمامة والبحرين، وقد حاول عبد الملك استخدام الأساليب الدبلوماسية مع نجدة إذ وعده أن يوليه على اليمامة مقابل الدخول في طاعته[٨]، فكان هذا أحد أسباب انشقاق النجدات بعد ذلك، إلا أن اليمامة ظلت خارج سيطرة الدولة الأموية حتى تمكن الخليفة عبد الملك من القضاء على دولة النجدات في اليمامة

---

(١) الطبقات (٥/ ١٥٢).

(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٠٤).

(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٠٤).

(٤) أخبار مكة (٢/ ١٧١).

(٥) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٠٧).

(٦) الأوائل، ص (٢٠٤).

(٧) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٩٣)، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٠٨).

(٨) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢٠٨).

والبحرين سنة ٧٣هـ[١]، فولى عبد الملك يزيد بن هبيرة المحاربي، ثم عزله وولى مكانه إبراهيم ابن عربي، وبقي الأخير إلى أن مات عبد الملك[٢].

د ـ اليمن: وفي عهد عبد الملك بن مروان أصبح لليمن والٍ واحد بعد أن كانت مقسمة إلى عدة عمال، في الحقب السابقة[٣]، ومن أشهر ولاة عبد الملك على اليمن محمد بن يوسف الثقفي ـ وهو أخو الحجّاج بن يوسف ـ وظل محمد على ولاية اليمن إلى ما بعد وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان[٤]، ومحمد بن يوسف لم يحسن السيرة مع أهل اليمن. كما أنه زاد ضريبة الخراج على الأراضي الزراعية[٥].

٣ ـ إدارة العراق والمشرق الإسلامي:

أ ـ **العراق**: وجه الخليفة كل اهتمامه نحو العراق، واستطاع أن ينزع الحكم من مصعب بن الزبير، سنة ٧٢هـ، وبايعه أهل الكوفة، وأحسن إلى زعمائها وولى عليها أخاه بشر بن مروان وأمره باللين لأهل الطاعة والشدة على أهل المعصية[٦].

وفرق العمال على المدن، أما البصرة فقد ولّى عليها خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد[٧] الذي فشل في قتال الخوارج في البحرين والعراق، فعزله عبد الملك، وجمع العراق لبشر بن مروان، فقدم البصرة سنة ٧٤هـ.

واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث المخزومي، فأقام بشر بالبصرة شهراً ثم مات[٨]، ثم أسند عبد الملك ولاية العراق إلى الحجّاج إلى أن مات الخليفة عبد الملك[٩].

ب ـ **الولايات التابعة للعراق في شرق الجزيرة العربية**: كانت الأجزاء الشرقية من

---

(١) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢٠٨).
(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٠٨).
(٣) المصدر نفسه، ص (٢٠٩).
(٤) تاريخ اليمن، ص (١٧) ابن عبد المجيد اليماني.
(٥) فتوح البلدان للبلاذري، ص (٨٤).
(٦) أنساب الأشراف (٥/ ٣٥٤)، الإصلاحات المالية، ص (٢١١).
(٧) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢١١).
(٨) الفتوح لابن أعثم نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢١٢).
(٩) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢١٣).

شبه الجزيرة العربية، والمطلة على بحر الخليج، تابعة إدارياً في العصر الأموي إلى أمير العراق، وهو الذي يعين عليها ولاة، يتولون إدارتها، وأهم هذه الأقاليم هي البحرين، وعمان، وتشمل البحرين الإقليم الممتد على ساحل الخليج العربي، بين البصرة وعمان، فهو يشمل ما نعده اليوم: الكويت والإحساء وقطر وجزر البحرين الحالية المعروفة قديماً باسم «أوال»[١]، ودولة الإمارات العربية المتحدة[٢].

جـ ـ **خراسان والمشرق الإسلامي**: بعد أن تمكن عبد الملك من قتل مصعب وضم العراق عام ٧٢هـ، بدأ يخطط لاسترجاع خراسان ونجح في ذلك، وفي عام ٧٨هـ ضم عبد الملك ولاية خراسان، وسجستان وكل المشرق الإسلامي إلى ولاية العراق للحجّاج بن يوسف، فولى الحجّاج على خراسان «المهلب بن أبي صفرة» سنة ٧٩هـ[٣].

ويبدو أن نجاح الدولة في القضاء على كل منافسيها في الداخل، وجه الاهتمام بجهاد العدو في الثغور، فكانت خراسان بحاجة إلى رجل عسكري قوي كالمهلب يمكن أن يحقق أهداف حركة الجهاد هناك، ومما يؤكد ذلك بقاء المهلب في ولايته حتى وفاته، كما يمكن اعتبار هذا التعيين بمثابة تكريم لجهوده في القضاء على الخوارج الأزارقة، وفي ولاية المهلب هذه نشطت حركة الفتوحات، وسيأتي الحديث عنها عند كلامنا عن الفتوحات في عهد عبد الملك.

وعين الحجّاج على سجستان عبيد اللّه بن أبي بكرة وذلك سنة ٧٨هـ[٤]، وكتب عبد الملك إلى الحجّاج: لا تستعمل عبيد اللّه بن أبي بكرة على الخراج والجباية فإنه أريحي[٥]، وهذا يعني أن الحجّاج أصبح هو الذي يعين الولاة على الأقاليم التابعة لولايته كخراسان وسجستان في الغالب، وهي جزء من سياسة عبد الملك في الاتجاه نحو اللامركزية الإدارية[٦].

٤ ـ إدارة الجزيرة الفراتية وأرمينيا وأذربيجان:

تقع الجزيرة الفراتية بين نهري دجلة والفرات، وتشمل ديار ربيعة وديار مضر،

---

(١) البحرين في صدر الإسلام، ص (٢٢١).
(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٢١).
(٣) تاريخ اليعقوبي (٣/ ١٧)، الإصلاحات المالية، ص (٢٢٧).
(٤) تاريخ الطبري، نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢٣٠).
(٥) أنساب الأشراف (١/ ٤٩٩، ٥٠٥).
(٦) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٣٠).

وديار بكر، وتمتد على نهر الفرات من شمال ملقية بمسيرة يومين شمالاً إلى الأنبار جنوباً، وعلى دجلة من تكريت جنوباً إلى شمال جزيرة ابن عمر شمالاً[١]، وتقع أرمينيا وأذربيجان إلى الشرق والشمال الشرقي للجزيرة الفراتية[٢]، وكانت الموصل في ـ عهد عبد الملك ـ جزءاً من ولاية الجزيرة الفراتية[٣].

وقد أدرك عبد الملك أهمية الجزيرة هذه فعمل جاهداً على تنظيمها لتقف بمواجهة الخزر والبيزنطيين أعداء الدولة، فشجع على استيطان العرب هناك وأقطعهم الأراضي[٤]، وأمر بنقل بعض القبائل القيسية إلى هناك[٥]، كما نقل بعضاً من قبائل الأزد وربيعة من البصرة إلى الموصل وحديثة[٦]، كما نظم الإدارة فيها، حيث فصلها عن قنسرين وجعلها ـ فضلاً عن أرمينيا وأذربيجان ـ إقليماً إدارياً مستقلاً[٧]، ولأهميتها فقد عين على إدارتها أخاه محمد بن مروان سنة ٧٣هـ، والذي يعتبر من أقدر الولاة الأمويين، وأوكل عليها مهمة مقاتلة الأعداء من البيزنطيين والخزر، والقيام بفتح المناطق المحاذية للجزيرة[٨].

وكانت هذه الولايات، الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان، فضلاً عن الموصل، غالباً ما تجمع تحت إمرة أمير واحد، ولا سيما في عهد عبد الملك بن مروان، ويبدو أن محمد بن مروان هو الذي كان يعين ولاة على أرمينيا[٩]، أما الموصل فإن الخليفة عبد الملك بن مروان، هو الذي كان يعين ولاتها في الغالب[١٠].

٥ ـ إدارة مصر:

كان والي عبد الملك على مصر أخاه عبد العزيز، وقد أوصى عبد الملك أخاه حين ولاه مصر بوصية تنم عن عقلية كبيرة، حيث بيّن له الأسس الناجحة لإدارة ولايته، وكيفية اختيار موظفيه، قائلاً له: أبسط بشرك، وألف كنفك، وآثر

---

(١) المسالك والممالك، ص (٥٢)، صورة الأرض لابن حوقل (١/ ٢٠٨).
(٢) بلدان الخلافة الشرقية، ص (١١٤).
(٣) فتوح البلدان للبلاذري، ص (٣٢٧).
(٤) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٣٣).
(٥) المصدر نفسه، ص (٢٣٣).
(٦) الروض المعطار، ص (١٩٠)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ١٧).
(٧) معجم البلدان (١/ ١٠٣).
(٨) الكامل في التاريخ نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٣٣٤).
(٩) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٣٣٤).
(١٠) فتوح البلدان، ص (٣٢٨)، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٣٤).

الرفق في الأمور فإنه أبلغ بك، وانظر حاجبك، فليكن من خير أهلك.. وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام.. وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة، فإنها تفتح مغاليق الأمور، وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته[١].

ولم تقتصر مسؤولية عبد العزيز الإدارية على مصر فقط بل امتدت إلى إفريقيا أيضاً، فهو المسؤول عن إدارة إفريقيا، فقد كان يعين عليها الولاة ويعزلهم في بعض الأحيان، كما فعل حين عزل حسان بن النعمان سنة ٧٨هـ وولى مكانه موسى بن نصير[٢]، فأقرّ عبد الملك هذا التعيين، وقد توفي عبد العزيز عام ٨٦هـ، ودامت ولايته على مصر أكثر من عشرين عاماً[٣].

٦ ـ إدارة إفريقيا:

كانت أوضاع إفريقيا الإدارية والسياسية قبل تولي عبد الملك الخلافة مضطربة، نتيجة عدم استقرار الأحوال السياسية في الحجاز والعراق خاصة، فارتد عن الإسلام قسم من البربر في إفريقيا[٤]، كما تمكن كسيلة ومن معه من البربر والروم من دخول القيروان، فسيطر كسيلة على شمال إفريقيا[٥]، واستطاع عبد الملك أن يبسط نفوذ الدولة الأموية على شمال أفريقيا بعد أن تخلص من الصراعات الداخلية. ومن أشهر ولاة إفريقيا في عهد عبد الملك: حسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير وسيأتي الحديث عنهما بإذن الله تعالى في الفتوحات في عهد عبد الملك.

رابعاً

الخطوط العامة لسياسة الخليفة عبد الملك في إدارة شؤون الدولة

١ ـ المشاورة:

كان يعتمد على المشاورة في إنجاز مهمات الدولة، وبخاصة في الأمور

(١) الفخري في الآداب، ص (١٢٦).
(٢) ولاة مصر، ص (٧٤)، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٣٩).
(٣) الخطط للمقريزي (١/ ٣٠٢).
(٤) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (١/ ٧٥).
(٥) تاريخ إفريقيا والمغرب، ص (٤٦) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٤٢).

المهمة، فهو القائل: المشاورة تفتح مغاليق الأمور[١]، فقد استشار أصحابه في المسير إلى مصعب بن الزبير في العراق[٢]، كما قبل مشورة روح بن زنباع بتولية الشعبي قضاء البصرة، حينما استشار الخليفة أصحابه بذلك[٣]، وكان من أكبر مستشاريه ربيعة الجرشي، وروح بن زنباع[٤]، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يأخذ بكل استشارة، فكان يشاور يحيى بن الحكم، ثم يخالفه، ويقول: من أراد صواب الرأي فليخالف يحيى بن الحكم فيما يشير به عليه[٥].

٢ ـ اعتماده على أهل الشام:

كان الخليفة عبد الملك يعتمد على أهل الشام، لأنهم أخلصوا له، فكان يخاطبهمَ: يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح[٦] على فراخه يتقي عنهم القذر، ويباعد عنهم الحجر، ويكفهم من المطر، ويحميهم من الضباب، ويحرسهم من الذئاب، يا أهل الشام أنتم الجبة والرداء، وأنتم العدة والجداء[٧] ولا غرابة في ذلك فملك بني أمية قام على أكتاف قبائل الشام وجنودها.

٣ ـ الشخص المناسب في المكان المناسب:

وقد حرص على تحقيق هذا المبدأ، وكان يوكل المهمات لأصحابها، ففي رسالة جوابية أرسلها الخليفة عبد الملك إلى خالد بن عبد اللّه أمير البصرة، سنة ٧٢هـ قال له فيها: ..فقبح اللّه رأيك حين تبعث أخاً أعرابياً من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب إلى جنبك يجبي الخراج، وهو الميمون النقيبة، الحسن السياسة البصير بالحرب، المقاسي لها، ابنها وابن أبنائها.. فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل برأي حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه[٨]، كما كان يحسن معاملة قادته وحاشيته، ويكرمهم ويمن عليهم، ويواسيهم، ويزورهم إذا مرضوا[٩].

---

(١) الفخري في الآداب، ص (١٢٦).
(٢) أنساب الأشراف (٥/ ٣٣٥).
(٣) العقد الفريد (١/ ٢٠).
(٤) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص (٩٤).
(٥) أنساب الأشراف (٥/ ٣٣٥).
(٦) معنى الظليم الرامح: كذكر النعام الذي يدافع عن فراخه.
(٧) سراج الملوك، ص (١١٨)، الإصلاحات المالية، ص (١٩٥).
(٨) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (١٩٥).
(٩) الإصلاحات المالية والترتيبات الإدارية، ص (١٩٥).

٤ ـ متابعة أخبار العمال والولاة:

فقد كان يقظاً وحريصاً على نزاهة عماله، واستقامة أخلاقهم وبعدهم عن الشبهات، فعندما بلغه أن عاملاً من عماله قبل هدية فاستدعاه إليه، ثم سأله: أقبلت هدية منذ وليت؟ قال: يا أمير المؤمنين بلادك عامرة، وخراجك موفور، ورعيتك على أفضل حال، قال: أجب فيما سألتك عنه، أقبلت هدية منذ وليتك؟ قال: نعم، قال: إن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيم، ولئن كنت أنلت مهديها من غير مالك، أو استكفيته ما لم يكن مثله مستكفاه، إنك لخائن جائر، وما أتيت أمر لا تخلو فيه من دناءة، أو خيانة، أو جهل مصطنع، وأمر بصرفه عن عمله[١].

٥ ـ تقديم الأقرباء في المناصب وحفظ التوازن القلبي:

كان الخليفة عبد الملك في اختياره لعماله قد قرَّب أقرباءه من أفراد البيت الأموي بالدرجة الأولى، واستعملهم في المناصب المختلفة، إلا أنه كان يراقبهم مراقبة دقيقة، ويعزل من أظهر عجزاً أو أخفق في عمله، كما أنه استخدم ولاته على الأقاليم في الأغلب من قبائل عرب الشمال «مضر»، بينما اختار موظفي إدارته إلى حد كبير من قبائل عرب الجنوب «اليمن»، ويبدو أن هذه كانت إحدى الوسائل التي اتبعها الخليفة لحفظ التوازن القبلي[٢].

٦ ـ تسامحه مع أهل الكتاب:

كان عهد عبد الملك عصر تسامح مع أهل الذمة، فلم يحاول الخليفة عبد الملك الاستيلاء على كنيسة يوحنا عندما رفض أهل الذمة تسليمها إليه[٣]، كما أنه سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية بحرية، وبناء الكنائس والأديرة، فقد شيّد أثيناس ـ كاتب ديوان خراج مصر على عهد عبد العزيز ـ كنيسة «أم الإله» في الرها، كما شيّد في مصر أيضاً كنيستين وديراً، فضلاً عن شغلهم مناصب عالية في إدارة الدولة[٤]، إذ كان الخليفة يثق بهم[٥].

---

(١) مروج الذهب (٣/ ١٢٥).
(٢) الإصلاحات المالية والترتيبات الإدارية، ص (١٩٦).
(٣) فتوح البلدان، ص (١٣١).
(٤) الدعوة إلى الإسلام، ص (٨٥) أرنولد.
(٥) تاريخ القدس، عارف، ص (٥٢).

٧ ـ التحقيق مع العمال المشتبه فيهم ومقاسمة أموالهم:

وقد قام عبد الملك بمقاسمة بعض عماله وقد أراد التشبه بالخليفة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه في هذا الشأن، فقد جعل الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري بمثابة المسؤول عن مراقبة ومتابعة القضايا المالية في الأقاليم، فقد أرسله إلى الجزيرة الفراتية لدراسة وإصلاح الضرائب هناك[١]، كما قاسم «أثيناس» كاتب خراج مصر أمواله[٢]، وبذلك اتبع نظاماً دقيقاً للاستخراج أو التكثيف، حيث كان يحقق مع الجباة وعمال الخراج ـ المشكوك في أمرهم ـ عند اعتزالهم عملهم، ويستنطقون حتى يعترفوا بما ارتكبوا من مخالفات، وكان التحقيق مع هؤلاء يتم في أماكن خاصة تسمى «دار الاستخراج»[٣].

٨ ـ الإحسان لمن ندم وبايع من أصحاب ابن الأشعث:

وبعد انتهاء تمرد ابن الأشعث كتب الخليفة إلى الحجّاج، في أخذ البيعة له من الناس قائلاً: أن ادعُ الناس إلى البيعة، فمن أقرّ بذنبه وندم على فعله فخل سبيله[٤]، وعند ذلك أمر عبد الملك الحجّاج بإعطاء الناس عطاءهم، فكتب إليه الحجّاج: أنهم نكثوا العهد ونقضوا البيعة، وفارقوا الجماعة، وطعنوا على الأئمة، فكتب إليه عبد الملك: إنما تجب طاعتنا عليهم بأن نعطيهم حقوقهم[٥]. وحين حاول الحجّاج أن يأخذ فضول «فروق العملة» ـ أموال السواد ـ كتب الخليفة إليه يمنعه من ذلك قائلاً له: لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وابق لحوماً يعقدون بها شحوماً[٦].

٩ ـ احترام وتقدير الشخصيات البارزة في المجتمع:

أدرك الخليفة عبد الملك أهمية توثيق العلاقة واحترامها مع الشخصيات البارزة في المجتمع، فقد حرص على كسبها وتأييدها، فحين بايع محمد بن الحنفية لعبد الملك أعطاه الخليفة ميثاقاً، وكتب إليه: إنك عندنا محمود. . فلك العهد والميثاق، وذمة اللّه ورسوله، أن لا تهاج ولا أحد من أصحابك بشيء تكرهه، كما

---

(١) عبد الملك القائد للعسلي، ص (١٢٢)، الإصلاحات المالية، ص (١٩٨).
(٢) الوزراء للجهشياري، ص (٣٤، ٣٥).
(٣) النظم الإسلامية، حسن إبراهيم، ص (١٩٦).
(٤) النظم الإسلامية، حسن إبراهيم، ص (١٩٦).
(٥) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢١٩).
(٦) واسط في العصر الأموي، ص (٧٩).

قضى حوائجه[١]، وكتب عبد الملك للحجّاج: لا تعرض لمحمد ولا لأحد من أصحابه[٢].

فلم يتعرض الحجّاج لأحد من آل أبي طالب خلال ولايته، كما عزز عبد الملك الصلات مع آل العباس، فكان يكرم علي بن عبد اللّه بن العباس، ويعرف له حقه ويستوصي به خيراً، وكانت كتبه ترد إلى الحجّاج يأمره فيها أن لا يسيء إلى عروة بن الزبير[٣]. وبذلك نجح عبد الملك في الاحتفاظ بصلات حسنة مع الأمويين وبني هاشم ـ علويين وعباسيين ـ فلم يُقتل أحدٌ من العلويين في عهده، فكانت هذه ثمرة حسن سياسته وبعد نظره[٤].

١٠ ـ تحجيم الولاة إذا أرادوا تجاوز الخطوط الحمراء:

كان عبد الملك لا يسمح لولاته مجاوزة الخطوط الحمراء، فعندما أساء الحجّاج لأنس بن مالك كان رد عبد الملك على الحجّاج قاسياً، وقصة ذلك: دخل أنس بن مالك على الحجّاج بن يوسف، فلمّا وقف بين يديه، سلّم عليه فقال له: إيهٍ إيهٍ يا أُنيس، يوم لك مع عليّ، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، واللّه لأستأصِلنّك كما تستأصل الشأفة[٥]، ولأدمغنك كما تُدمغ الصمغة. فقال أنس: إيّاي يعني الأمير، أصلحه اللّه؟ قال: إياك، سك اللّه سمعك. قال أنس: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، واللّه لولا الصبية الصغار ما بليت أيَّ قتلة قُتلتُ، ولا أيَّ ميتة مِتُّ.

ثم خرج من عند الحجّاج، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال الحجّاج. فلمّا قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً وصَفَّقَ عجباً، وتعاظم ذلك من الحجّاج، وكان كتاب أنس: إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك. أما بعد: فإن الحجّاج قال لي هُجراً[٦]، وأسمعني نُكراً، ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ لي على يديه، فإني أمُتُّ بخدمتي رسول اللّه، وصحبتي إياه، والسلام عليك ورحمة اللّه وبركاته[٧].

---

(١) الطبقات (٥/ ١١١، ١١٢).

(٢) العقد الفريد (٤/ ٤٠٠) الإصلاحات المالية، ص (٢٠٠).

(٣) أخبار العباس وولده، ص (١٣١، ١٥٤).

(٤) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٠١).

(٥) الشأفة: قرحة تخرج من أسفل القدم فتقطع أو تكوى.

(٦) هجراً: يعني فحشاً.

(٧) البداية والنهاية (١٢/ ٥٤٠).

فقرأ عبد الملك الكتاب وهو يبكي ويبلغ به الغضب ما شاء اللّه، ثم كتب إلى الحجّاج بكتاب غليظ(١)، فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد اللّه بن أبي المهاجر ـ وكان مصادقاً للحجّاج ـ فقال له: دونك كتابيَّ هذين فخذهما، وأركب البريد إلى العراق وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول اللّه ﷺ، فادفع كتابي إليه وأبْلغه مني السلام، وقال له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجّاج الملعون كتاباً، إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك.

وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك: بسم اللّه الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول اللّه ﷺ، أما بعد فقد قرأت كتابَك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج، وما سلّطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها فاكتب إليَّ بذلك أنزل به عقوبتي، وتَحْسُن لك معونتي والسلام.

فلما قرأ أنس كتابه وأُخبر برسالته قال: جزى اللّه أمير المؤمنين عنِّي خيراً، وعافاه وكفاه وكافأه بالجنة، فهذا كان ظني به والرجاء منه(٢).

أما كتاب عبد لملك إلى الحجّاج وكان فيه: بسم اللّه الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجّاج بن يوسف، أما بعد، فإنَّك عبد طمَتْ(٣) بك الأمور فسموت فيها، وعدوت طورَك، وجاوزت قدرَك، وركبت داهية إذاً وأردت أن تَبُورني(٤)، فإن سوَّغتكها مضيت قُدماً، وإن لم أُسوغها رجعت القهقرى، فلعنك اللّه عبداً أخفش العينين، منقوص الجاعرتين(٥)، أنسيت مكاسب آبائك بالطائف، وحفرهم الآبار، ونقلهم الصخور، على ظهورهم في المناهل؟ يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب، واللّه لأغمزنك غمز الليث الثعلب، والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول اللّه ﷺ بين أظهرنا، فلم تقبل له إحسانه، ولم تجاوز له إساءته، جُرأة منك على الربِّ عز وجل، واستخفافاً منك بالعهد، واللّه لو أنَّ اليهود والنصارى رأت رجلاً خدم عُزير بن عزرا، وعيسى ابن مريم لعظمته وشرَّفته وأكرمته، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول اللّه ﷺ ثمانين سنين، يطلعه على سرّه ويشاوره في أمره، ثم هو مع هذا بقية بقايا أصحابه، فإذا قرأت

---

(١) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٦).

(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٥٤٠).

(٣) طمَت: ارتفعت وسمت.

(٤) تبورني: تختبرني.

(٥) الجاعرتين: هما حرفا الوركين المشرفين على الفخذين.

كتابي هذا فكن أطوع له من خُفِّه ونعله، وإلا أتاك مني سهم مثكلٌ[١]. بحتف قاضٍ، ولكل نبأٍ مستقر وسوف تعلمون[٢].

ولما علم الحجّاج بأن عبد الملك غاضب عليه استوى جالساً مرعوباً، ولما قرأ الكتاب اعتذر لأنس ولم يزل مكرماً له حتى مات[٣]، وكتب الحجّاج خطاباً يعتذر فيه عما حدث منه في حق أنس[٤].

١١ ـ محاربته للمداهنة والنفاق بين الناس:

لم يكن عبد الملك يسمح لأحد أن يداهنه، أو ينافقه، أو يضيع وقته فيما لا يفيد، فقد طلب رجلٌ من عبد الملك أن يخلو به فأمر من عنده بالانصراف، فلما أراد الرجل أن يتكلم بادره عبد الملك قائلاً: احذر في كلامك ثلاثاً، إياك أن تخدعني، فأنا أعلم بنفسي منك، أو تكذبني فإنه لا رأي لكذوب، أو تسعى إليّ بأحد من الرعية، فإنهم إلى عدلي وعفوي أقرب منهم إلى جوري وظلمي[٥].

١٢ ـ مفهوم السياسة عند عبد لملك:

أدرك الخليفة عبد الملك معنى السياسة بشكل دقيق واستوعب دروسها، كما أدرك السبل العملية لسياسة الناس ومن مختلف منازلهم، فحين سأله الوليد وقال: يا أبت ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف واحتمال هفوات الصنائع[٦].

١٣ ـ سيرة أبي بكر وعمر ورعيتهما:

قال عبد الملك: أنصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر!! نسأل الله أن يعين كلاً على كل، إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس، فلا بد للوالي أن يسير في كل زمان بما يصلحه، وهذا الكلام لا يسلم له به على إطلاقه، لأن السلطان المطلوب منه أن يسير مع القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين ويعمل على نشر

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٥٤٢).
(٢) المصدر نفسه (١٢/ ٥٤٢).
(٣) العقد الفريد (٣/ ١٣)، الحجاج المفترى عليه، ص (١٦٨).
(٤) العقد الفريد (٣/ ١٣/ ١٤).
(٥) البداية والنهاية (١٢/ ٣٨٧).
(٦) عيون الأخبار (١/ ٩)، الإصلاحات المالية، ص (١٩٦).

سير الصالحين ويقتدي بهم، لا أن ينهى عن ذكر عمر ويقول: . .فإنه مرارة للأمراء، مفسدة للرعية[١].

والحقيقة تقول: إن الكثير من الأمراء في العهد الأموي لا يستطيع أن يقتفي أثر عمر ولا أن يسير بسيرته، فيحز ذلك في نفوسهم، ويترك الحسرة والمرارة في قلوبهم، وأما الرعية فإنهم يسرعون إلى المقارنة بين ما هم فيه، وبين ما كان عليه الناس في عهد عمر، وما كانوا يتمتعون به من العدل والمساواة، والحرية والتمتع بكل حقوق الإنسان، فيدفعهم ذلك إلى التمرد على أمرائهم، والسخط على أوضاعهم، وعدم الرضا بما هم فيه[٢].

وأمثال عبد الملك يريد الأمور أن تستقر على منهاج الملك العضوض، وأما منهاج الخلافة الراشدة فيضيق عليه الخناق، وفي الحقيقة، إن سوء حال الحكم في مجتمع ما كان ذلك لنقص في الراعي والرعية معاً[٣].

كما أن العودة إلى صفاء الحياة في عصر الخلفاء الراشدين ليس أمراً مستحيلاً، ولكن لا يأتي به الحاكم وحده وإن صلحت نيته، وعظمت عزيمته، بل لا بد من تحقيق ذلك القدر من التوافق بين الراعي والرعية، حيث يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتمع الطيب، وطريق ذلك طويل وشاق، ويحتاج ربما إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهدهم لتربية الرعية على معاني الإيمان ويعطون في ذلك القدوة والمثل، ويستفرغون في ذلك وذاك وقتهم وجهدهم[٤].

هذه هي أهم الخطوط العامة لسياسة عبد الملك في إدارة شؤون الدولة.

خامساً

من أهم ولاة عبد الملك الحجّاج بن يوسف الثقفي

هو الحجّاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، سمع من ابن عباس وروى عن أنس وسمُرة بن جندب، وعبد الملك بن مروان، وأبي بردة بن أبي

---

(١) الطبقات الكبرى (٥/ ٢٣٣).

(٢) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٣٢٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٠).

(٤) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧٧).

موسى، وروى عن أنس بن مالك وثابت البناني، وحميد الطويل، ومالك بن دينار، وقتيبة بن مسلم[١].

١ ـ بداية ظهوره:

كان الحجّاج وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف، ثم قدم دمشق، فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك، فشكا عبد الملك إلى روح أنَّ الجيش لا ينزلون لنزوله، ولا يرحلون لرحيله، فقال روح: عندي رجلٌ توليه ذلك، فولى عبد الملك الحجّاج أمر الجيش، فكان لا يتأخر أحد في النزول والرحيل، حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون، فضربهم وطوّف بهم، وأحرق الفسطاط، فشكا روح ذلك إلى عبد الملك، فقال للحجّاج: لم صنعت هذا؟ فقال: لم أفعله إنما فعلته أنت، فإنَّ يدي يدُك وسوطي سوطك، وما ضرّك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدل فسطاطه، وبدل الغلام غلامين، ولا تكسرني في الذي وليّتني؟ ففعل ذلك وتقدم الحجّاج عنده[٢].

٢ ـ رأي الذهبي فيه:

كان ظلوماً، جباراً خبيثاً، سفّاكاً للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن إلى أن قال: فنسبه ولا نحبه، بل نبغضه في اللّه، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان، وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى اللّه وله توحيد في الجُملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء[٣].

٣ ـ رأي ابن كثير فيه:

وكانت فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق[٤]، وكان يغضب غضب الملوك، وكان ـ فيما يزعم ـ يتشبه بزياد بن أبيه، وكان زياد يتشبّه بعمر بن الخطاب فيما يزعم أيضاً، ولا سواء ولا قريب[٥]، وقال: وبالجملة فقد كان الحجّاج نقمة على أهل العراق بما سلف من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم، والافتيات عليهم[٦].

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٥٠٧).
(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٥٠٩).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣).
(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٥١٠)، الرهق: الهلاك والظلم.
(٥) المصدر نفسه (١٢/ ٥١٠).
(٦) المصدر نفسه (١٢/ ٥٣٦).

وقال: . . وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة. وقد رُوِي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باقٍ في عهدتها، ولكن يخشى أنَّها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن الشيعة كانوا يبغضونه جداً لوجوه، وربَّما حرّفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات، وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر، وكان يكثر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء، فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وسرائرها، وخفيَّات الصدور وضمائرها[١].

فلا نكفر الحجّاج، ولا نمدحه، ولا نسبه، ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه وأمره إلى الله.

٤ ـ من خطب ومواعظ الحجّاج:

قال الشعبي: سمعت الحجّاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، يقول: أما بعد، فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء. فلا يَغُرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة[٢]، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل. وعن أبي عبد الله الثقفي عن عمّه، قال: سمعت الحسن البصريَّ يقول: وقذتني كلمة سمعتها من الحجّاج، سمعته يقول على هذه الأعواد: إن امرأ ذهب ساعة من عمره في غير ما خلق له لحريٌّ أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة[٣].

٥ ـ صدق الله وكذب الشاعر:

جاء رجل إلى الحجّاج فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث، فضُرب على اسمي في الديوان، ومُنعتُ العطاء، وقد هُدِمت داري.

فقال الحجّاج: أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يَجْني عليك وقد تُعدى الصِّحاح مبارك الجُرْب
ولربَّ مأخوذٍ بذنب قريبه ونجا المقارف صاحب الذنب

فقال الرجل: أيها الأمير، إني سمعت الله يقول غير هذا، وقول الله أصدق

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٥٣٦).
(٢) المصدر نفسه (١٢/ ٥٢٢).
(٣) المصدر نفسه (١٢/ ٥٢٢).

من هذا. قال: وما قال؟ قال: ﴿ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٧٨، ٧٩]. قال: يا غلام أَعِد اسمه في الديوان، وابْن داره، وأعطاه عطاءه، ومُرْ منادياً ينادي: صدق الله وكذب الشاعر[١].

فهذه القصة تدل بوضوح على أن الشريعة الإسلامية؛ سلطانها وهيبتها، حتى على طغاة الحكام، وهذه خصيصة فريدة تتميز بها الشريعة الربانية عن الأنظمة والقوانين الوضعية، كما تدلنا على أن أطغى الطغاة في العصور الأولى، لم يكن ليجرؤ على رفض شريعة الله أو تحدي نصوصها، ولو كان هو الحجّاج بن يوسف، المشهور بالقسوة والجبروت[٢].

٦ ـ الحجّاج مع أعرابي:

حجّ الحجّاج مرّة، فمر بين مكة والمدينة، فأُتي بغدائه فقال لحاجبه: انظر من يأكل معي، فذهب، فإذا أعرابي نائم فضربه برجله وقال: أجب الأمير. فقام، فلمّا دخل الحجّاج قال له: اغسل يديك ثم تغدَّ معي. فقال: إنّه دعاني من خير منك، فأجبته. قال: ومن هو؟ قال: الله دعاني إلى الصوم، فأجبته. قال: في هذا الحرّ الشديد؟ قال: نعم، صمت ليوم هو أشدُّ حراً منه قال: فأفطر وصُم ليوم غد، قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غد. قال: ليس ذلك إليَّ. قال: فكيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه؟ قال: إن طعامنا طعام طيب.. قال: لم تُطَيِّبْه أنت ولا الطباخ، إنّما طيَّبته العافية[٣].

٧ ـ زواج الحجّاج من بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

قال الشافعي: لما تزوج الحجّاج بنت عبد اللّه بن جعفر قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان: أتُمكنه من ذلك؟ فقال: وما بأس بذلك؟ قال: أشدُّ البأس واللّه، قال: وكيف؟ قال: واللّه يا أمير المؤمنين لقد ذهب ما في صدري على آل الزبير منذ تزوجت رملة بنت الزبير. قال: فكأنه كان نائماً فأيقظه، فكتب إلى الحجّاج يعزم عليه في طلاقها فطلّقها[٤]، وجاء في رواية: يا أمير المؤمنين إنما خفت أن يميل الحجّاج إليهم فيسعى لمحل سلطانه، فإنه لم يكن بين

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٥٢٣).
(٢) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي، ص (٢٢).
(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٥١٨).
(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٥١٧).

أهل بيتين من شحناء ما كان بيننا وبين آل الزبير، فلما تزوجت برملة بنت الزبير انقلب ذلك البغض محبة حتى إني ما أحب أكثر منهم[(١)]، حتى قلت:

تجول خلاخيل النساء ولا أرى ... خلخالاً يجول ولا قُلْبا

فلا تكثروا فيها الملام فإنني ... تخيرتها منهم زبيرية قلبا

أحب بني العوام من أجل حُبِّها ... ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا[(٢)]

وكان الحجّاج يحترم أهل البيت ويكرمهم، وما زواجه ببنت عبد اللّه بن جعفر إلا مظهر من ذلك ليتقرب منهم ويصلهم، وعلى الرغم من أنه طلقها فما زال واصلاً لعبد اللّه حتى مات، فكان يرسل له في كل شهر عيراً تحمل كسوة وتحفاً وميرة، وكل ما يحتاج إليه[(٣)]، وقد تجلى ذلك في أنه قال مرة: ليقم كل رجل منك يذكر بلاءه لنعطيه، فقام رجل فقال: أنا قاتل الحسين. فقال: كيف قتلته؟ قال: دسرته بالرمح دسراً، وهبرته بالسيف هبراً. فقال: أما ـ واللّه ـ لا يجتمع الحسين وقاتله في الجنة، وحرمه من العطاء[(٤)].

وما يذكر في كتب التاريخ من كون الحجّاج نصب العداء لأهل البيت غير صحيح، وخصوصاً إذا عرفنا معاملة عبد الملك لأهل البيت وحرصه على عدم مساسهم من قريب أو بعيد ما لم يتقربوا من كرسي الخلافة ويعملوا على الوصول إليه.

٨ ـ الحجّاج والشعراء:

وكان الحجّاج يقرب الشعراء ويستمع لشعرهم، وكثيراً ما كان ينقد الشعر بملكة الأديب، كما يحفظ الكثير من جيد الشعر ويقتبس منه في خطبه بما يناسب المقام، ومن الشعراء الذين أحسن لهم الحجّاج جرير بن عطية، فقد أطنب في مدح الحجّاج وأنشده قصيدة من عيون الشعر منها:

من سَدَّ مُطّلَع النفاق عليهم ... أم من يصول كصولة الحجّاج؟

أم من يغار على النساء حفيظة ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ... ماضي البصيرة واضح المنهاج[(٥)]

---

(١) الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص (١٣٧).

(٢) وفيات الأعيان (٢/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(٣) المستطرف من كل فن مستظرف (٢/ ٣٢١).

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي، سرح العيون لابن نباته، ص (١٠٨)، الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص (٣٩٩).

(٥) ديوان جرير، ص (٩٠، ٩١).

ومدحه بقصيدة أخرى من غرر الشعر جاء فيها:

ترى نصر الإمام عليك حقاً ... إذا لبسوا بدينهم ارتياباً
عفاريت العراق شفيت منهم ... فأمسوا خاضعين لك الرقابا
وقالوا لن يجامعنا أمير ... أقام الحد واتبع الكتابا[١]

وصار جرير يقول في الحجّاج قصائد من عيون الشعر، وطال بقاؤه في بلاطه، فخشي الحجّاج أن يكون في ذلك سبيل لدسيسة يتقرب بها بعض الناس لأمير المؤمنين، فرأى أن يرسله لدمشق ليمدح عبد الملك وأجزل له العطاء[٢]، ومن الشعراء الذين مدحوا الحجّاج ليلى الأخيلية، والفرزدق والأخطل وغيرهم

٩ ـ رؤية رآها الحجّاج:

رأى أن عينيه قُلعتا: وكان تحته هند بنت المُهلَّب، وهند بنت أسماء بن خارجة؛ فطلَّقهما ليتأوّل رؤياه بهما، فمات ابنه محمد، وجاءه نعيُ أخيه محمد من اليمن، فقال: هذا ـ والله ـ تأويل رؤياي محمد ومحمد في يوم واحد، إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم قال: من يقول شعراً فيُسليني به، فقال الفرزدق:

إن الرَّزيَّة لا رزيَّة بعدها ... فقدان مثل محمد ومحمد
مَلِكان قد خلت المنابر منهما ... أخذ الحمام عليهما بالمرصد[٣]

١٠ ـ مقتل سعيد بن جبير:

في عام ٩٥هـ قتل الحجّاج سعيد بن جبير المقرىء المفسِّر المحدث الفقيه، أحد الأعلام، وله نحو من خمسين سنة أكثر روايته عن ابن عبّاس، وحدّث في حياته بإذنه، وكان لا يكتب الفتاوى مع ابن عبَّاس، فلمّا عَمِيَ ابن عباس كتب، وروي أنه قرأ القرآن في ركعة في البيت الحرام، وكان يؤمّ الناس في شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وأخرى بقراءة غيرهما، وهكذا أبداً، وقيل: كان أعلم التابعين بالطَّلاق سعيد بن جبير، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاووس وبالتفسير مجاهد، وأجمعهم لذلك سعيد بن جبير، وقتله الحجّاج وما على وجه الأرض أحد إلَّا وهو مفتقر إلى علمه[٤].

---

(١) الكامل في الأدب نقلاً عن الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص (٣٦٥).
(٢) الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص (٣٦٨).
(٣) شذرات الذهب (١/ ٣٨٢).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٨٣).

وقال الحسن يوم قتله: اللّهمّ أعنْ على فاسق ثقيف، واللّه لو أنّ أهل الأرض اشتركوا في قتله لأكبهم اللّه في النار[١]، وعندما أمر الحجّاج بقتل سعيد قال سعيد: اللّهم لا تحل له دمي ولا تُمهله من بعدي[٢]، وأصيب الحجج بفزع عظيم وجعل يقول: ما لي ولك يا سعيد بن جبير، وكان في جملة مرضه كلما نام رآه آخذاً بمجامع ثوبه يقول: يا عدو اللّه فيم قتلتني، فيستيقظ مذعوراً ويقول: ما لي ولابن جبير[٣].

١١ ـ مرض الحجّاج وموته:

أ ـ خطبته قبل موته: لما مرض الحجّاج أرجف الناس بموته: فقال في خطبته: إنّ طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم، فقالوا: مات الحجّاج، ومات الحجّاج، فمه، وهل يرجو الحجّاج الخير إلا بعد الموت؟ واللّه ما يسرُّني أن لا أموت وأنّ لي الدنيا وما فيها، وما رأيت اللّه رضي التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس، قال اللّه له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥]، فأنظره إلى يوم الدين، ولقد دعا اللّه العبد الصالح فقال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، فأعطاه اللّه ذلك إلا البقاء، فما عسى أن يكون أيُّها الرجل، وكلُّكم ذلك الرجل، كأنّي واللّه بكل حيٍّ منكم ميتاً، وبكل رطبٍ يابساً، ثم نُقِلَ في ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولاً في ذراع عرضاً، فأكلت الأرض لحمه، ومصّت صديده، وانصرف الحبيب من ولده يُقسِمُ الحبيب من ماله. إن الذين يعقلون... يعقلون ما أقول[٤].

ب ـ الآلام الشديدة التي تعرض لها الحجّاج في مرضه: كان موت الحجّاج بالأكلة[٥] في بطنه، سوّغه الطبيب لحماً في خيط، فخرج مملوءاً دوداً، وسُلط عليه أيضاً البرد، فكان يوقد النّار تحته وتتأجّجُ حتى تحرق ثيابه وهو لا يُحِسّ بها، فشكا ما يجده إلى الحسن البصري ـ كما جاء في بعض الروايات ـ فقال له: ألم أكن نهيْتُك أن تتعرّض للصالحين، فلججت، فقال له: يا حسن، لا أسألك أن تسأل اللّه أن يفرج عني، ولكني أسألك أن تسأله أن يعجل قبض

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٣٨٣).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٨٦).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٨٦).

(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٥٩٤).

(٥) الأكلة: داء يقع في العضو فيتآكل منه.

روحي ولا يطيل عذابي، فبكى الحسن بكاءً شديداً، وأقام الحجّاج على هذه العلة خمسة عشر يوماً، فلما أُخبر الحَسَنُ بموته سجد شكراً، وقال: اللَّهمَّ كما أمته أمت سنته[١]، وعن الأصمعي، قال: لما حضرت الحجّاج الوفاة أنشأ يقول:

يا ربِّ قد حلف الأعداء واجتهدوا بأنني رجل من ساكني النار
أيحلفون على عمياء ويحهم ما علمهم بعظيم العفو غفار[٢]

وقال عند موته: اللَّهم اغفر لي، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل[٣]، وعن عمر بن عبد العزيز أنَّه قال: ما حسِدتُ الحجّاج عدو اللَّه على شيء حسدي إياه على حبِّه للقرآن وإعطائه أهله، وقوله حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي فإنَّ الناس يزعمون أنك لا تفعل[٤]، ولما قيل للحسن البصري: إن الحجّاج قال عند الموت كذا وكذا. قال: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: عسى[٥].

وقد فرح أهل العراق بموت الحجّاج، وسمي يوم موته: عرس العراق[٦].

جـ ـ عمره لما مات وما تركه من مال: قال العماد في سنة ٩٥هـ: فيها أراح اللَّه العباد والبلاد بموت الحجاج بن يوسف الثقفي في ليلة مباركة على الأمة، ليلة سبع وعشرين من رمضان، وله ثلاث وقيل: أربع أو خمس وخمسون سنة أو دونها[٧]، وزعموا أنَّ الحجّاج مات ولم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرْجاً ورحلاً ومائة درع موقوفة[٨].

د ـ ما رُئي له بعد موته: وقال الأصمعي عن أبيه قال: رأيت الحجّاج في المنام فقلت: ما فعل اللَّه بك؟ فقال: قتلني بكل قتلة قتلت بها إنساناً.

وكان الحسن لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحجّاج فدعا عليه، قال: فرآه في منامه فقال له: أنت الحجّاج؟ قال: نعم قال: ما فعل اللَّه بك؟ قال: قُتلت بكل قتيل قتلته ثم عُزلت مع الموحِّدين. قال: فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه[٩].

هـ ـ حزن الوليد بن عبد الملك عليه: لما مات الحجّاج تفجع عليه الوليد، وجلس للعزاء فيه محزوناً عليه، وما زال مهموماً، حتى دخل عليه الفرزدق ـ الشاعر ـ

---

(١) شذرات الذهب (١/ ٣٨١).
(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٥٥٠).
(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٥٥٠).
(٤) المصدر نفسه (١٢/ ٥٥٠).
(٥) المصدر نفسه (١٢/ ٥٥٠).
(٦) المنتظم (٧/ ٤).
(٧) شذرات الذهب (١/ ٣٧٧).
(٨) البداية والنهاية (١٢/ ٥٥٢).
(٩) المصدر نفسه (١٢/ ٥٥٤).

فرثى الحجّاج رثاءً أرضى الوليد وأقر عينه فقد قال:

لِيبكِ على الإسلام من كان باكياً على الدين من مستوحش الليل خائف
وأرملة لما أتاها نعيه فجادت له بالواكفات الزوارف

إلى أن قال:

فما ذرفت عيناي بعد محمد على مثله إلا نفوس الخلايف[١]

وتتابع الناس في دخولهم على الوليد يعزونه في الحجّاج ويثنون عليه خيراً، وقد وجد الوليد على عمر بن عبد العزيز لأنه لم يقل في الحجّاج شيئاً، وألجأه إلى الكلام فقال: وهل كان الحجّاج إلا رجلاً من أهل البيت، فنحن نُعزى فيه ولا نُعزِّي[٢]، وقال الوليد: لأشفعن في الحجّاج عند اللّه[٣]، ووفاء لذكر الحجّاج أقرّ الوليد العمال الذين استخلفهم[٤].

و ـ **أقوال العلماء في موت الحجّاج**: عن معمر عن ابن طاووس، عن أبيه أنه أخبر بموت الحجّاج مراراً، فلما تحقّق وفاته قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ولما أخبر إبراهيم النخعي بموت الحجّاج بكى من الفرح[٥]، ولما بشر الحسن بموت الحجّاج سجد شكراً للّه وقال: اللّهم أَمتَّه، وأذهب عنا سنته[٦]، وخرّ عمر بن عبد العزيز ساجداً حينما بلغه النبأ[٧].

---

(١) العقد الفريد (٣/ ١٩)، ديوان الفرزدق، ص (٢١٢).
(٢) مناقب عمر بن عبد العزيز، ص (٢٤).
(٣) المحاسن والأضداد، ص (١٢٦)، النجوم الزاهرة (١/ ٢١٨).
(٤) تاريخ الطبري، نقلاً عن الحجّاج المفترى عليه، ص (١٥٠).
(٥) المصدر نفسه (١٢/ ٥٥١).
(٦) المصدر نفسه (١٢/ ٥٥١).
(٧) العقد الفريد (٣/ ١٨).

الفصل الخامس

النظام المالي
في عهد عبد الملك

الفصل الخامس

النظام المالي في عهد عبد الملك

أولاً

مصادر دخل الدولة

كانت من أهم مصادر دخل الدولة: الزكاة، والخراج، والجزية، وخمس الغنائم والعشور والصوائف، وقد تعرضت بعض هذه المصادر للانحراف عن الشريعة من قبل القائمين عليها وعلى سبيل المثال:

١ ـ الجزية:

صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ما يعادل ٨٠٠٠٠ درهم سنوياً، ولما تولى عثمان بن عفان شكوا إليه قلة عددهم وتفرقهم في البلاد فخفضها عنهم إلى ٧٢٠٠٠ درهم[١]، فلما تولى معاوية بن أبي سفيان، شكوا إليه نفس الشكوى فخفضها عنهم إلى ٦٤٠٠٠ درهم، فلما تولى الحجّاج بن يوسف على العراق اتهمهم بمعاونة خصوم الدولة السياسيين فرفعها إلى ٧٢٠٠٠٠ درهم.

ويمكن القول بأن رفع نظام الجزية في العصر الأموي شهد بصفة عامة انحرافات في طريقة الجباية، والتي منها ما قيل إن المهلب بن أبي صفرة، حينما صالح أهل خوارزم على ما يزيد على عشرين مليون درهم كان يأخذ بدل النقد سلعاً عينية لعدم توافر السيولة النقدية لدى أهلها، لكنه أجحف في ذلك حيث كان يأخذ الشيء بنصف قيمته، فبلغ ما أخذه منهم خمسين مليون درهم[٢]، كما شهد انحرافات أخرى متمثلة في استمرار فرض الجزية على من أسلم، وقد برز هذا الأمر بصفة خاصة في ولاية الحجّاج[٣].

(١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٦٩).
(٢) البداية والنهاية نقلاً عن التطور الاقتصادي، ص (٧٠).
(٣) تاريخ الطبري نقلاً عن التطور الاقتصادي، ص (٧٠).

ومع ذلك يمكن القول بأن التأثير الاقتصادي لهذا الانحراف كان محدوداً، وذلك لأن قرار الحجّاج في العراق قوبل بثورة أوقفت تطبيقه[١]، وأيضاً كان الانحراف الذي وقع في خراسان محدوداً، وعولج سريعاً بمجيء عمر بن عبد العزيز، ولكن للأسف لم يكتب لهذا الإصلاح الاستمرار حيث انتهى مفعوله بانتهاء عهد عمر بن عبد العزيز[٢].

٢ ـ الخراج:

تدنى الخراج كثيراً في عهد الحجّاج حتى وصل طبقاً لبعض الروايات إلى ١٨ مليون درهم وقيل إنه وصل إلى ٢٥ مليون درهم عند موت الحجّاج[٣]، بعد ما كان في عهد معاوية قد بلغ ١٣٥ مليون درهم[٤]. وقام عبد الملك بمسح أرض الشام والجزيرة ويبدو أنه استقل ما كان يجبى من خراجهما، وكان معياره في التقدير هو مدى القرب والبعد من الأسواق، وكانت مسيرة اليوم واليومين فأكثر هي غاية البعد عنها، وما نقص عن اليوم فهو من القرب، وبناء على ذلك كان الخراج المفروض على الأرض القريبة يزيد عن المفروض على الأرض البعيدة[٥]، وقد أحدث هذا المسح زيادة في حصيلة الخراج[٦]، ويبدو أن عبد الملك أراد أن يعوض ما حدث من نقص في خراج العراق بسبب الثورات.

٢ ـ الصوافي:

وبمجيء عبد الملك أقطع جميع الصوافي للأشراف حتى لم يُبق منها شيئاً، إلا أن هؤلاء الملاكين الكبار لم يتوقفوا عن المطالبة بمزيد من القطائع، وأمام إلحاحهم المستمر، قام الخليفة بالتصرف ببعض الأراضي الخراجية التي توفي أصحابها ولم يكن لهم ورثة، فأقطعهم جميع هذه الأراضي، وجعل لأصحابها حق ملكيتها التامة، بما في ذلك توريثها على أن يدفعوا عن هذه الأراضي ضريبة العشر، ورفع ضريبة الخراج عن هذه الأراضي.

وقد اعتبر الخليفة تصرفه هذا عملاً مشروعاً شبيهاً بإخراجه من بيت المال

---

(١) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية للريس، ص (٢١٩).
(٢) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٧١).
(٣) المصدر نفسه، ص (٧٤).
(٤) الأحكام السلطانية للماوردي، ص (١٧٥).
(٥) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٧٦).
(٦) المصدر نفسه، ص (٧٦).

الجوائز الخاصة[١]. أي أن الخليفة قد برر موقفه معتبراً أن ما قام به وكأنه نوع من المكافأة التي يحق للخليفة أن يأمر بها، بحيث أن ذلك يقع ضمن صلاحياته التي تتيح له أن يقدم المساعدات والمكافآت التي يراها مناسبة من بيت المال.

ولكن هذا الموقف، لم تكن تدعمه أية سوابق إسلامية في العهد الراشدي بل هو يخالف صراحة ما قرّره المسلمون بشأن أرضي الصوافي والأراضي الخراجية، حيث اعتبر فيئاً للمسلمين ووقفاً لهم، فلا يحق لأحد التصرف فيها بأي شكل من الأشكال، إن كان بالبيع أو بالشراء أو بمنحها قطائع، حتى وإن كان أصحابها ـ أي العاملين على هذه الأرض ـ قد توفوا وليس لهم وارث، ولهذا فلا يصحّ ولا يجوز أن تعتبر هذه الأراضي متساوية مع الجوائز الخاصة[٢].

هذه بعض الانحرافات التي حدثت في مصادر الدولة وكان لها الأثر البالغ على النظام المالي.



النفقات العامة

١ ـ النفقات العسكرية:

في عهد عبد الملك زادت عطاءات الجنود العرب حتى بلغ حدها الأدنى ١٢٠٠ درهم، وحدها الأوسط ١٦٠٠ درهم، وحدها الأعلى ١٨٠٠ درهم[٣]، في ولاية العراق، والغريب أن هذا لا يتلاءم مع الحالة الاقتصادية في عهد الحجّاج والتي انخفضت فيها إيرادات المال بشكل كبير، لكن يفسر ذلك كثرة من خرج على الحجّاج من جنده، وكان يلغي عطاء من خرج عليه ويزيد في عطاء الباقين[٤].

٢ ـ نفقات الصناعات الحربية:

كان اهتمام الدولة الأموية منصباً على تطوير سلاح البحرية، وسيأتي الحديث عن ذلك في الصناعات بإذن الله.

---

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١١٧).
(٢) المصدر نفسه، ص (١١٨).
(٣) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٠٠).
(٤) المصدر نفسه، ص (١٠٠).

٣ ـ النفقات الإدارية :

كان الحد الأقصى لرواتب الكتّاب طوال العصر الأموي وطرفاً من العباسي حتى عهد المأمون هو ٣٦٠٠ درهم سنوياً، وكان حدها الأدنى ٧٢٠ درهما سنوياً[١]، وكان كاتب ديوان رسائل الحجّاج مرتبه ثلاثمائة درهم شهرياً، وقد كان يوزعها فيجعل لامرأته خمسين درهماً، وينفق على شراء اللحم خمسة وأربعين درهماً، وما تبقى ينفقه على الدقيق، وإن فضل شيء تصدق به، وقد عاده الحجّاج من علة، فوجد بين يديه كانوناً من طين ومنارة من خشب فقال له: ما أرى رزقك يكفيك. قال: إن كانت ثلاثمائة لا تكفيني فثلاثون ألفاً لا تكفيني[٢].

ويمكن اعتبار متوسط الدخل الفردي المناسب في العصر الأموي هو ما بين مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة درهم شهرياً[٣]، ويدخل من ضمن النفقات الإدارية، مرتبات الولاة والقضاة وموظفي الدولة عموماً، فقد كانت الدولة تتكفل بمرتباتهم.

ثالثاً

تطور القطاع الزراعي

كان تطور القطاع الزراعي للدولة الأموية في الجانب الغربي، وذلك بسبب عوامل عديدة منها:

١ ـ الاستقرار السياسي لتلك المنطقة خلال معظم العصر الأموي.

٢ ـ الاستقرار النقدي الذي كانت تتمتع به المنطقة حتى قبل سك النقود الإسلامية، ذلك أنها ورثت الدنانير البيزنطية، والتي ظلت عملة مستقرة لم تتعرض لما تعرضت له الدراهم الفارسية من غش.

٣ ـ إن المنطقة الغربية من الدولة الأموية لم تعان مما تعاني كانت منه المنطقة الشرقية من تركز في الثروة، ووجود عدد كبير نسبياً من أفراد المجتمع دخولهم منخفضة نسبياً، ويعود ذلك إلى أن مادة الجيش الأموي السياسية كانت من جند الشام، وقد تميز أهل هذه المنطقة في العطاء[٤]، مما جعل الدورة الاقتصادية في المنطقة الغربية تدور بسرعة أكبر، وبالتالي ينشط القطاع الزراعي فيها بشكل

---

(١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٠٧).

(٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (١٠٨).

(٤) المصدر نفسه، ص (١٩٢).

أكبر وينمو بشكل أسرع، بينما كان معظم سكان المنطقة الشرقية هم من أصحاب الدخول المنخفضة «الموالي».

٤ ـ استبدال الضرائب العينية في كل من الجزيرة والشام بضرائب نقدية خلال المسح الذي تمّ في عهد عبد الملك[١]، وهذا أثر في العطاء، فزاد الطلب النقدي لساكني المدن على السلع الزراعية، ومنتجات الريف، وأحدث نوعاً من الاستقرار، وأحدث زيادة في دخول المزارعين مكنتهم من تحقيق تنمية زراعية[٢].

وقد ظهرت دلائل التطور الزراعي بالمنطقة الغربية كثمرة لتلك العوامل وغيرها، وكان من أبرز تلك العوامل:

١ ـ زيادة حصيلة خراج منطقتي الجزيرة والشام نتيجة المسح الذي تم لهما في عهد عبد الملك بن مروان.

٢ ـ تطور نظام الري من خلال توزيع المياه بين الأنهار الفرعية[٣]، مما أدى إلى زيادة إنتاجية الأراضي الزراعية، فهذه بعض الدلائل التي تشير إلى التطور الزراعي بالمنطقة الغربية من الدولة الأموية.

* التدهور الزراعي في القسم الشرقي من الدولة الأموية:

كان الطابع العام لقطاع الزراعة في هذا القسم السير نحو التدهور، ولعل من أبرز الأسباب التي أدت إلى تدهور القطاع الزراعي في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية ما يلي:

١ ـ **الاضطراب السياسي**، وفقدان الأمن بالمنطقة، فانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية.

٢ ـ **تركز الثروة في يد قلة من سكان المنطقة**، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالي، مما ترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة، فضعفت حركة تبادل السلع، أي حدوث كساد اقتصادي بالمنطقة[٤].

٣ ـ **قرار بيع الأراضي الخراجية وجعل ثمنها في بيت المال**، جاء ذلك لمواجهة النقص في إيرادات الدولة[٥]. فأدى إلى توفير السيولة النقدية اللازمة للدولة

---

(١)، (٢)، (٣) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٩٣).

(٤) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٩٦).

(٥) الخراج والنظم المالية، ص (٢٠٣، ٢٠٤).

على المدى القصير، لكنه على المدى الطويل كانت له آثار عكسية على إيرادات بيت المال، فقد تحولت هذه الأراضي الخراجية إلى أراض عشرية، وبينما لا تقل ضريبة الخراج عن (٢٥٪) وقد تصل إلى (٥٠٪) من حصيلة الإنتاج الزراعي سنوياً، أصبح الحد الأقصى بما تدره لبيت المال هو (١٠٪) سنوياً.

وقد أدى انخفاض إيرادات الدولة على هذا النحو إلى إضعاف مقدرة الدولة في المدى الطويل على تمويل المشاريع العامة، والتي كان غالبها يدعم قطاع الزراعة، إلى جانب ذلك كان لهذا القرار أثر مباشر على الإنتاجية الزراعية، فقد كان البائعون هم أصحاب الأرض الأصليين الذين عرفوا كيف يتعاملون معها، وأسلوب زراعتها، واكتسبوا الخبرة الزراعية من طول مكثهم فيها، بينما كان المشترون من العرب وهم ذوو خبرة قليلة بالزراعة، خاصة إذا ما قورنت بالنسبة لخبرة المزارعين الأصليين.

٤ ـ إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية، فقد أدت محاربة الدولة لخصومها السياسيين إلى تخريب أو تحجيم مشاريعهم الزراعية، فانعكس ذلك بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل، ومن صور ذلك ما حدث في عهد الحجّاج من أن بثوقاً انبثقت على الأرض المحياة من أرض البطائح، فلم يعمل الحجّاج ـ بوصفه والي المنطقة ـ على سد تلك البثوق مضارة لأهلها ـ لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث في الخروج عليه ـ فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات[١].

٥ ـ حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالي والدولة الأموية، وذلك حينما حاول والي العراق إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة وإعادة فرض الجزية عليهم، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية، فانضموا تحت لوائه[٢].

ونتيجة لتلك الأسباب وغيرها فقد بدت علامات تدهور القطاع الزراعي العام في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، وكان أبرز تلك العلامات ما يلي:

١ ـ تدهور غلة الخراج، حيث أخذت في التناقص المستمر[٣].

٢ ـ هجرة الفلاحين للأراضي الزراعية والاتجاه نحو المدن، وذلك لزيادة حجم

---

(١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٩٨).

(٢) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٩٨).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٩٩).

ضريبة الخراج ـ بالضرائب الإضافية ـ وعنف الجباية، فتركوا أراضيهم وهاجروا إلى المدن[١].

٣ ـ **حالة القلق التي انتابت المزارعين**، الذين بقوا في أراضيهم مما دفعهم لتسجيل أراضيهم لأسماء الأمراء والأشراف، وهو ما يعرف بالإلجاء طلباً للحماية، ومن أمثلة ذلك إلجاء كثير من المزارعين أراضيهم بمسلمة بن عبد الملك للتعزز به[٢].

٤ ـ **حدوث نقص كبير في الإنتاج الحيواني**، وبالذات حيوانات الحرث، مما دفع والي العراق إلى إصدار أمر يقضي بمنع ذبح الأبقار[٣]، في إحدى خطوات علاج الأزمة، كما قام بتوريد كمية من الجواميس من إقليم السند لسد العجز الحاصل في دواب التنمية الزراعية[٤].

ومع ذلك فقد كانت خلال هذه الفترة مجموعة من الإجراءات والمشاريع التي خففت من حدة التدهور الزراعي بالمنطقة خلال عهد عبد الملك، وكان من أبرزها ما يلي:

١ ـ عملية نقل الأيدي العاملة الزراعية من منطقة إلى منطقة أخرى، بهدف إحداث تنمية زراعية في الجهة المنقول إليها، ومن أمثلة:

أ ـ نقل الحجّاج بن يوسف عدداً من مزارعي بلاد السند بأهليهم وجواميسهم، وإسكانهم في أرض موات، فأحيوها[٥].

ب ـ نقل رؤوس الأموال إلى مناطق فقيرة لتنميتها، ومثال ذلك إسكان قتيبة بن مسلم لمجموعة من العرب في سمرقند[٦]، ومعلوم أن العرب كانوا من أعلى الناس ثروة في العصر الأموي[٧].

رابعاً

تطور التجارة

مر تطور التجارة الداخلية في عهد عبد الملك بمرحلة ضعف بسبب عوامل

(١) تطور ملكية الأراضي في منطقة السواد حتى نهاية العصر الأموي، ص (١٩٥).
(٢) الخراج والنظم المالية للريس، ص (٢٦٠).
(٣) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٩٩).
(٤) فتوح البلدان للبلاذري، ص (٣٦٨).
(٥) الخراج والنظم المالية للدولة الأموية، ص (٢١٥).
(٦)، (٧) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢٠٠).

أثرت على حجم التجارة الداخلية، كان من أبرزها ما يلي:

١ ـ كثرة الفتن والقلاقل الداخلية التي عصفت بمعظم أركان الدولة الأموية، ومن المعلوم بداهة أن الاستقرار السياسي والأمن الداخلي هي من أولويات ازدهار التجارة الداخلية ونموها، ومع افتقادهما في الدولة الأموية بشكل كبير تعثرت التجارة الداخلية.

٢ ـ نقص السيولة النقدية.

٣ ـ صعوبة دفع الأثمان للصفقات التجارية، وعلى جهة الخصوص الكبيرة منها.

٤ ـ ارتفاع نسبة الضرائب على التجارة حيث روي أنها وصلت[١] إلى ٣٣٪.

ومع بداية ٧٧هـ نمت التجارة الداخلية وازدهرت، وكان وراء ذلك العديد من الأسباب، من أبرزها:

١ ـ زيادة السيولة النقدية الداخلية، وذلك بإصدار العملة الإسلامية الجديدة الموحدة، والتي تطورت من حيث الدقة والانضباط والعيار، حتى أصبحت محل ثقة المتعاملين في الأسواق، وأصبحت تلقى قبولاً عاماً مما سهل عملية المبادلات بشكل كبير، وحل عدد النقود محل وزنها، وبذلك كانت عملية الإصدار النقدي نقطة تحول في تطور التجارة الداخلية بشكل خاص، سواءً من حيث الزيادة في حجمها أو الاتساع في أرجائها.

٢ ـ حدوث هدوء واستقرار نسبي داخل الدولة الأموية بعد القضاء على الثورات الداخلية.

٣ ـ تمت في هذه المرحلة بعض الإصلاحات التي كان من شأنها تيسير الصفقات التجارية، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

أ ـ توحيد وحدة الكيل والميزان من قبل الحجّاج بإقليم العراق[٢].

ب ـ تنظيم الأسواق مما يسهل ويخدم الحركة التجارية[٣].

جـ ـ وجود خدمات لراحة التجار، كالفنادق والحمامات داخل الأسواق[٤].

وأما التجارة الخارجية في عهد عبد الملك، فقد كانت متعلقة بالدولة البيزنطية ودول المشرق الأقصى.

---

(١) المصدر نفسه، ص (٢١٦).

(٢) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢١٧).

(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (٢١٧).

١ ـ العلاقة مع الدولة البيزنطية:

وقد مرّت العلاقة التجارية معها بمرحلتين:

* مرحلة نمو وقوة وازدهار:

وقد نشأ هذا النمو والقوة والازدهار نتيجة عدة عوامل لعل من أهمها:

أ ـ كثرة الاضطرابات والحروب في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق، ولو بشكل جزئي، وبالتالي زيادة حجم المبادلات التجارية مع الدولة البيزنطية بالغرب.

ب ـ الاستقرار الأمني في المناطق الغربية مع الدولة الأموية، دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر في الشرق إلى إقليم الشام، بحثاً عن فرص استثمارية آمنة.

جـ ـ الاعتماد الكلي لكل من الدولتين على الأخرى في مجال هام وحيوي بالنسبة لها، فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كلياً على أوراق البردى، كانت الدولة الأموية تعتمد كلياً في حجم النقد الذهبي داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية[١].

* مرحلة تدهور المبادلات التجارية بين البلدان:

وقد شهدت هذه المرحلة انخفاضاً كبيراً في المبادلات التجارية بين الدولتين، ويعود ذلك إلى عدة عوامل من أبرزها ما يلي:

١ ـ تدهور العلاقات السياسية بين الدولتين بشكل كبير.

٢ ـ حدوث هدوء نسبي في الأقاليم الشرقية ـ بعد القضاء على الثورات الداخلية ـ مما أدى إلى رفع معدلات التبادل التجاري مع دول الشرق الأقصى.

٣ ـ دخول معظم دول المشرق تحت مظلة الدولة الإسلامية، فتهيأ لها نوع من الاكتفاء الذاتي لتلك الدولة، لا سيما بعد دخول بلاد الهند والسند.

٤ ـ تزايد اعتماد الدولة الأموية في تجارتها مع دول الشرق الأقصى على التجارة البحرية عن طريق الخليج العربي، لا سيما بعد تطور صناعة السفن بها[٢]، بشكل أصبحت معه قادرة على الخوض في المحيطات، مما جعل معظم تجارة

---

(١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢٠٨).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢٠٩).

الدولة الأموية مع دول الشرق الأقصى تتم بواسطة الطرق البحرية[١]، فنتيجة لتلك العوامل وغيرها تدهورت التجارة بين البلدين.

٢ ـ العلاقات التجارية مع دول المشرق الأقصى:

كانت تعتمد التجارة بين الدولة الأموية ودول المشرق على نوعين من الخطوط، وهما خطوط التجارة البرية، وخطوط التجارة البحرية.

أ ـ **التجارة عن طريق الخطوط البرية**: دخلت كثير من دول المشرق تحت مظلة الدولة الإسلامية لا سيما بلاد الهند، والسند، والتي كانت تحتل صادراتها نسبة كبيرة من واردات الدولة الأموية، ومعنى ذلك تحول جزء من التجارة الخارجية مع الشرق إلى تجارة داخلية بين أرجاء الدولة الإسلامية[٢].

ب ـ **التجارة عن طريق الخطوط البحرية**: اهتمت الدولة بالتجارة البحرية، وأكدت على عنصر الأمن للطرق التجارية، ومن صور ذلك إرسالها جيش للقضاء على قراصنة كانوا يقطعون الطريق على تلك الخطوط البحرية فقضى عليهم[٣]، واهتم الحجاج بتحصين المدن التجارية[٤]، كما طور صناعة السفن التجارية وأصبحت وسائل النقل البحري والرحلات التجارية أكثر أمناً، وسرعة، وأعلى كفاءة مما شجع على رواج التجارة[٥].

خامساً

الحرف والصناعات

من أشهر الصناعات في عهد عبد الملك:

١ ـ صناعة المنسوجات:

وقد تطورت صناعة النسيج في الدولة الأموية كثيراً، وأصبحت لها مصانع خاصة بها سميت دور الطراز، وكان دورها إنتاج الملابس الخاصة بموظفي الدولة الكبار، كالأمراء والولاة، وقد تحدثت عن ذلك في كلامنا عن ديوان الطراز.

---

(١) المصدر نفسه، ص (٢٠٩).
(٢) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢١١).
(٣) المصدر نفسه، ص (٢١٢).
(٤) الحجاج بن يوسف وجه حضاري في تاريخ الإسلام، ص (٥٩).
(٥) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢١٣).

٢ ـ التشييد وصناعة مستلزمات البناء:

شهدت الدولة الأموية اهتماماً بالعمران، وتشييد المساكن، وزخرفتها، ومن أبرز هذه المظاهر المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وقد أدى الإقبال على تزيين البيوت والتأنق فيها إلى ظهور صناعات تلبي تلك الرغبات، فظهرت على سبيل المثال صناعة قطع الرخام وزخرفته، وكذا استخدام الزخارف الجبسية لتزيين المباني[١].

٣ ـ الصناعات الحربية:

توسعت هذه الصناعة في عهد عبد الملك بن مروان وفتح داراً بتونس لصناعة السفن الحربية، وكانت نواة تلك الدار ألف عامل متخصص في صناعة السفن تم نقلهم من دار الصناعة ـ المنطقة الصناعية ـ بمصر، وقد تم وضع التنظيم اللازم وطريقة إمداد تلك الدار بالأخشاب من الغابات الإفريقية الداخلية، واختيار جماعات من البربر من سكان تلك المناطق للقيام بتلك المهمة، حيث هم أخبر الناس بمناطق وجود الأخشاب الجيدة الملائمة لتلك الصناعة[٢]، وفي إرسال دار الصناعة بمصر لألف عامل ليكونوا نواة التصنيع بتونس ما يدل على مدى تطور تلك الصناعة بمصر، وكبر حجمها.

وفي تطور لاحق لصناعة السفن الحربية بتونس، قام والي تونس بتوسيع دار الصناعة بها فشق قناة بين الميناء وبين المدينة بطول اثني عشر ميلاً[٣]، وشكلت هذه القناة ما يماثل اليوم أحواض بناء السفن أو الأحواض الجافة[٤]، وأصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكاني[٥]، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيراً عن السفن التجارية، وقد تطورت صناعة السفن التجارية في ولاية الحجّاج بصفة عامة[٦]، وكان من أشهر أماكن صناعتها البحرين ومدينة واسط بالعراق[٧].

٤ ـ صناعة البردى في مصر:

كان لهذه الصناعة أهميتها الخاصة، ذلك لأن البردى كان يستخدم قبل ظهور

---

(١) تاريخ الموصل (١/ ٢٢٣).
(٢) تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص (١١٥، ١١٦).
(٣) الإدارة في العصر الأموي، ص (٢٢٢).
(٤) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢٤٠).
(٥) المصدر نفسه، ص (٢٤٠).
(٦)، (٧) المصدر نفسه، ص (٢٤٢).

صناعة الورق آنذاك في المكاتبات وأعمال الدولة، وكانت الدولة تشرف على الإنتاج إشرافاً مباشراً لأهمية تلك الصناعة، وكانت صادرات البردى تدر أرباحاً طيبة، وما ذكر عنها من تطور أنها استبدلت العبارات البيزنطية التي كانت تطبع على البردى المخصص للتصدير بعبارات دينية إسلامية، وكان ذلك في عهد عبد الملك[١].

٥ ـ صناعات وحرف أخرى:

ومن أهمها: حرفة الحدادة والصناعات الخشبية، وصناعة الحلي والمجوهرات[٢].

سادساً

إحداث دور ضرب العملة وتعريب النقد

كانت عوامل عديدة تتجمع في الأفق كلها تشير إلى وجوب حدوث تطور كبير في نظام العملة المتعارف عليه في العالم الإسلامي بعد أن اتسعت رقعته ذلك الاتساع الكبير، واستقرت أحواله الداخلية بعد مضي فترة من خلافة عبد الملك بن مروان، فقد كان العالم الإسلامي يتعامل حتى ذلك الوقت بالعملة المالية لفارس والروم من دراهم، ودنانير. وهذه العملات المالية قد تناقصت كمياتها المتداولة بشكل يثير القلق بعد انهيار الإمبراطورية الفارسية، واضطراب الأحوال في إمبراطورية الروم، فلم يعد حجم هذه العملات المتوافر يكفي لتغطية النشاط التجاري والاقتصادي، والحاجة المالية للدولة الإسلامية الواسعة والنشيطة[٣].

وقد قام عبد الملك بتعريب النقد تعريباً نهائياً، وأحدث دور الضرب التي تضرب فيها الدنانير، وجعلها بإشراف الخلافة، ويود المؤرخون أن يشعرونا بأنه فعل ذلك لأنه تخاصم مع ملك الروم فيقولون: إن الروم كانوا يأخذون من البلاد العربية صحائف البَرْدى، وأمر عبد الملك أن يكتب على رأس صحائف البردى «شهد اللّه أنه لا إله إلا هو»، فغضب لذلك ملك الروم[٤]، وكان محتاجاً إلى البردى، فهدد بأن يطبع على الدنانير عبارات القذف بحق الرسول ﷺ، إن استمرت تلك العبارة

---

(١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢٤٣).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢٤٤).

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٢٨).

(٤) حياة الحيوان للدميري (١/ ٩١ ـ ٩٤).

على صحف البردى، فاعتمد عبد الملك أن يضرب السكة في بلاده ويستغني عن الدنانير التي تأتيه من بلاد الروم.

على أن الأمر يبدو أوسع من هذا، فقد كان في بلاد المسلمين نقود فارسية ونقود حميرية قديمة، وغيرها، وقد حاول الخلفاء من قبله ضرب النقود، بل يرجع إلى عمر بن الخطاب أنه ضرب الدراهم لكنه استبقى عليها العبارات الفارسية، وأضاف بعض العبارات العربية فيها كقول «جائز»، واستمر ضرب النقود في عهد عثمان ومعاوية وابن الزبير، فكان من الطبيعي أن يستأنف عبد الملك عمله، وهو ما فعله. على أن عبد الملك يمتاز بأنه وضع لذلك مخططاً واضحاً، فليست القضية قضية إنشاء مصنع للنقود، ونقل السكة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية فحسب، بل يدخل في هذا الأمر وزن النقود وشكلها[١].

وقد تحدث المؤرخون عن أسباب دينية وسياسية واقتصادية قد لعبت دوراً أساسياً في بناء موقف الخليفة، تتلخص هذه الأسباب على الشكل التالي:

١ ـ كان الخليفة حريصاً على صبغ الدولة الأموية بصبغة إسلامية، ولذا فإن الإصلاح النقدي يندرج ضمن خطة شاملة لتعريب مؤسسات الدولة[٢].

٢ ـ حرص الخليفة على إنهاء التبعية الاقتصادية للدولة البيزنطية التي كانت تسيطر دنانيرها الذهبية على الجانب النقدي من اقتصاديات الدولة[٣].

٣ ـ توقف حجم السيولة النقدية للدولة الأموية على ما يرد عليها من الدولة البيزنطية، مما يعرضها لأزمات اقتصادية حادة، خاصة في حالات انقطاع هذه السيولة بسبب ممارسة ضغوط اقتصادية، أو نشوب معارك حربية أو نحوها.

٤ ـ سيطرة الدولة على مصادر عرض النقود، وضمان تخليصها من الغش وكسب ثقة الناس في النقود المتداولة.

٥ ـ حاجة الدولة الفعلية إلى عملة داخلية موحدة ومنضبطة حتى تستوفي بها حقوقها لدى الأفراد، وتسهل لها القيام بوظائفها الاقتصادية[٤].

٦ ـ إن إصدار النقود يعبر عن السيادة الكاملة للدولة الإسلامية، ويحررها من النفوذ

---

(١) الدولة الأموية: يوسف العشي، ص (٢٣٤).
(٢) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٣٢٠)
(٣) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٤٥).
(٤) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٤٥).

الأجنبي[١]، فقد أراد عبد الملك بن مروان أن يقيم سلطانه على أساس اقتصادي مستقل عن بيزنطة وعدم الارتباط بنقدها، كما أن إصدار أول دينار إسلامي يرتبط بحالة الصراع مع البيزنطيين حيث استطاع الخليفة أن يوجه ضربة اقتصادية موجعة للدولة البيزنطية.

٧ ـ يعتبر سك النقود الإسلامية وتوحيدها في الدولة اتجاهاً نحو الدولة المركزية وضبط جهازها المالي[٢].

٨ ـ ومن المعلوم الأكثر أهمية التي جعلت الخليفة يقدم على إصدار النقود الإسلامية، توافر كميات كبيرة من الذهب والفضة لدى المسلمين في البلاد المفتوحة، فاستند على قاعدة هذا المخزون الكبير من المعادن في إصدار النقد الإسلامي الجديد[٣].

أهم خصائص النقود الإسلامية في عهد عبد الملك:

١ ـ أنه ألغى العبارات والإشارات التي تشير إلى العقيدة المسيحية المحرفة، واستبدلها بعبارات تدل على عقيدة التوحيد الإسلامية.

٢ ـ أنها موافقة في أوزانها النسبية لنصاب زكاة النقدين ومقدارها.

٣ ـ أنه حدد وزن الدينار باثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة[٤]، وجعل الدرهم خمسة عشر قيراطاً أو ستة دوانق[٥].

٤ ـ أنه حدد بناء على الوزن السابق سعر الصرف بين الدرهم والدينار، فكانت كل عشرة دراهم تساوي سبعة دنانير[٦].

٥ ـ تحددت تواريخ إصدار النقود الأموية بالتاريخ الهجري المتسلسل، أي وفق المتعارف عليه، بينما افتقرت النقود الساسانية والبيزنطية إلى التواريخ التقويمية، إذ اعتمدت تواريخها على بداية حكم كل ملك[٧].

محاربة تزييف العملة: تشدد عبد الملك وخلفاؤه من بعده وولاتهم في تعقب أية محاولة لغش النقود وتزييفها، ومعاقبة من يثبت عليه ذلك، فقد روي أنه أخذ رجلاً يضرب على غير سكة المسلمين فأراد قطع يده، ثم ترك ذلك وعاقبه، فاستحسن ذلك شيوخ المدينة[٨].

---

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص (٣٢١). (٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (٣٢٢).
(٤)، (٥) التطور الاقتصادي في العهد الأموي، ص (١٤٦).
(٦)، (٧) التطور الاقتصادي في العهد الأموي، ص (١٤٦).
(٨) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٤١).

سابعاً

العمارة والبناء في عهد عبد الملك

اقتضت أهداف دولة عبد الملك إنشاء مدينة واسط، وتونس.

١ ـ بناء واسط:

اختطها الحجّاج بن يوسف الثقفي في أرض كسكر[١]، وهي تتوسط عدة مدن، فهي تبعد عن الكوفة أربعين فرسخاً، وكذلك عن المدائن والأهواز والبصرة، وهي إحدى مدن العراق الكبرى قبل بناء بغداد[٢]، وقد بدأ الحجّاج في بنائها عام ٨٣هـ وانتهى منها سنة ٨٦هـ[٣]، وكان شروعه في البناء بعد موافقة عبد الملك، وقد أنفق على بنائها خراج العراق كله لخمس سنوات[٤].

كانت رؤية تخطيطها تتضح فيها الملامح الأساسية للتخطيط للمدينة الإسلامية، فاشتملت المدينة على المسجد ـ الجامع ـ ودار الإمارة في الوسط، وتضمينها الأسواق اللازمة لحياة مدينة مستقرة، وفيها كذلك من الملامح الجديدة ما يعكس ملامح النظام الأموي الجديد.

ولعبت واسط دوراً سياسياً مهماً، فكانت هناك المناظر المتصلة بينها وبين قزوين، وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهاراً وإن كان ليلاً أشعلوا نيراناً، فتجرد الخيل إليهم، فكانت قزوين ثغراً[٥]، فمنها كانت تتحرك الجيوش، وفيها ضربت النقود[٦]، وازدهرت واسط من الناحية الاقتصادية فكثرت فيها المحلات التجارية، وتقدمت فيها الزراعة، وكانت عاصمة العراق في عهد الحجّاج.

٢ ـ بناء تونس:

اختط هذه المدينة القائد حسان بن النعمان الغساني عام ٨٢هـ، لتكون قاعدة عسكرية بحرية، ولتحول دون تكرار البيزنطيين الهجوم على قرطاجة عام ٧٨هـ[٧]، بنى حسان بن النعمان مدينة تونس على أنقاض قرية قديمة عرفت باسم ترشيش

---

(١) تجديد الدولة الأموية، ص (١٩٥).

(٢)، (٣) فتوح البلدان، ص (٤٠٧)، تجديد الدولة الأموية، ص (١٩٥).

(٤) تاريخ واسط، بحشل، ص (٣٨، ٣٩)، تجديد الدولة الأموية، ص (١٩٧).

(٥) معجم البلدان (٥/ ٣٥٠).

(٦) المصدر نفسه (٥/ ٣٥٠).

(٧) رياض النفوس للمالكي نقلاً عن تجديد الدولة الأموية. ص (٢٠٠).

القديمة(١)، وإنما سميت تونس في أيام الإسلام لوجود صومعة الراهب، وكانت سرايا المسلمين تنزل بإزاء صومعته، وتأنس لصوت الراهب، فيقولون: هذه الصومعة تؤنس، فلزمها هذا الاسم فسميت باسم تونس(٢).

واختط حسان تونس غربي البحر المتوسط بنحو عشرة أميال(٣)، فقام بحفر قناة تصل المدينة بالبحر لتكون ميناء بحرياً، ومركزاً للأسطول الإسلامي بعد أن أنشأ فيها صناعة المراكب(٤)، بخبراء في هذه الصناعة زوده بها والي مصر عبد العزيز بن مروان بناء على توجيه الخليفة عبد الملك(٥).

وقد بنيت مدينة تونس طبقاً لأهداف سياسية استراتيجية، وأهداف اقتصادية اجتماعية، تبناها الخليفة عبد الملك.

أما الأهداف السياسية البعيدة المدى، فيتضح ذلك بوضع حد لاعتداءات الروم والمتمثلة بإغارتهم على الساحل الإفريقي، والسبيل الأمثل هو إيجاد قاعدة بحرية، وصناعة بحرية قادرة على إنشاء أسطول مهمته صد العدوان الرومي بادئ الأمر، ثم الانتقال من مرحلة التصدي إلى الغزو والفتح فيما بعد، وقد تمثل تطبيق هذه المرحلة من قبل الخليفة عبد الملك فقام بالإيعاز لشقيقه والي مصر: عبد العزيز بن مروان، لإرسال ألفي قبطي من مهرة الصناع لإقامة صناعة مراكب بحرية، وقام هؤلاء بالمهمة الموكلة إليهم خير قيام.

وأما الهدف الثاني: فيتمثل بإيجاد حياة اجتماعية بإيجاد المؤسسات القادرة على خدمة الأفراد، فأقام في المدينة المسجد الجامع ودار الإمارة وثكنات للجند للمرابطة، وأخذ يقوم بتدوين الدواوين(٦)، تنظيم الخراج، والعناية بالدعوة الإسلامية بين البربر، فقام بإرسال الفقهاء ليعلموهم اللغة العربية والدين الإسلامي(٧)، وسارت المدينة لتكون معسكراً حربياً في البداية، ومركز استيطان وإدارة لدعم الفتوحات، وأخيراً مركزاً حضارياً ومركز إشعاع فكري وعلمي وثقافي(٨).

---

(١) معجم البلدان (٢/ ٦٠١).

(٢) الروض المعطار، ص (١٤٤) نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص (٢٠٠).

(٣) تقويم البلدان نقلاً عن تجديد الدولة، ص (٢٠٠).

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (٦/ ٣٢).

(٥) ٢تجديد الدولة الأموية، ص (٢٠٠).

(٦) البيان المغرب (١/ ٣٨).

(٧) المصدر نفسه (١/ ٣٨).

(٨) تجديد الدولة الأموية، ص (٢٠٣).

وهكذا رسخ الخليفة عبد الملك بن مروان أقدام الدولة الأموية بتأسيس مدينة تونس، وقطع دابر الغارات البيزنطية بإيجاد مدينة إسلامية مرتبطة بالأهداف العليا للدولة(١).

٣ ـ بناء مسجد قبة الصخرة:

بنى هذا المسجد الخليفة عبد الملك بن مروان وسماه الأوروبيون خطأ مسجد عمر، وقد رصد الخليفة لإعماره أموالاً طائلة(٢)، قال ابن كثير: ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجه إليه بالأموال والعمال، ووكل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه، وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس، وأرسل إليه بالأموال الجزيلة الكثيرة، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا الأموال إفراغاً، ولا يتوقفا فيه، فبثوا النفقات وأكثروا، فبنوا القبة فجاءت في أحسن البناء، وفرشاها بالرخام الملون، وحفّاها بأنواع الستور، وأقاما لها سدنة وخداماً بأنواع الطيب والمسك والعنبر وماء الورد والزعفران، يعملون منه غاليه، ويبخرون القبة والمسجد من الليل، وجعلا فيها من قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهبية والفضية شيئاً كثيراً، وفرشاها بأنواع البسط الملونة، وكانوا إذا أطلقوا البخور شمَّ من مسافة بعيدة، وقد عملوا فيها من الإشارات والعلامات المكذوبة شيئاً كثيراً مما في الآخرة، فصوروا فيه صورة الصراط وباب الجنة وقدم رسول اللّه ﷺ ووادي جهنم، وكذلك في أبوابه ومواضع منه، فاغتر الناس بذلك إلى زماننا...

وبالجملة فإن صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الأرض بهجة ومنظراً، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شيء كثير وأنواع باهرة، ولما فرغ رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام من عمارتها على أكمل الوجوه، فضل من المال الذي أنفقاه على ذلك ستمائة ألف مثقال، وقيل ثلاثمائة ألف مثقال، فكتبا إلى عبد الملك يخبرانه بذلك، فكتب إليهما قد وهبته لكما، فكتبا إليه إنا لو استطعنا لزدنا في عمارة هذا المسجد من حلي نسائنا، فكتب إليهما: إذا أبيتما أن تقبلاه فأفرغاه على القبة والأبواب، فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب القديم والحديث(٣).

وهناك عدة أسئلة تطرح نفسها: ما سبب بناء هذا المسجد وبهذا الإتقان

(١) المصدر نفسه، ص (٣٢٠).
(٢) المصدر نفسه، ص (٢٠٦).
(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٤٠، ٤١).

والإبداع؟ ولماذا تزامن مع حركة ابن الزبير في الحجاز؟، إن أول المؤرخين الذين حاولوا إيجاد التسويغ لبناء مسجد قبة الصخرة المشرفة هو اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) وقد ربط ذلك بالحكم والخلافة حينئذ، وأوجد صيغة مشتركة في التعامل بين السلطة الأموية والمجتمع، لأن معظم العالم الإسلامي كان قد بايع عبد اللّه بن الزبير بالخلافة (٦٤ ـ ٧٣هـ) ما عدا إقليم الأردن[١]، فقد قال في كتابه: ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك لأن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة فضج الناس وقالوا: تمنعنا من حج بيت اللّه الحرام، وهو فرض علينا، فقال: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول اللّه ﷺ قال: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس**». وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول اللّه ﷺ وضع قدمه لما صعد إلى السماء[٢].

واليعقوبي راوي الأثر السابق مؤرخ شيعي إمامي كان يعمل في كتابة الدواوين في الدولة العباسية حتى لقب بالكاتب العباسي، وقد عرض اليعقوبي تاريخ الدولة الإسلامية من وجهة نظر الشيعة الإمامية، فهو لا يعترف بالخلافة إلا لعلي بن أبي طالب وأبنائه حسب تسلسل الأئمة عند الشيعة، ويسمي علي بالوصي، وعندما أرّخ لخلافة أبي بكر وعمر وعثمان لم يضف إليهم لقب الخلافة إنما تولى الأمر فلان، ثم لم يترك واحداً منهم دون أن يطعن فيه، وكذلك كبار الصحابة.

وقد ذكر عن عائشة رضي اللّه عنها أخباراً سيئة وكذلك عن خالد بن الوليد[٣]، وعمرو بن العاص[٤]، ومعاوية بن أبي سفيان[٥]، وعرض خبر السقيفة خبراً مشيناً[٦]، ادعى فيه أنه قد حصلت مؤامرة على سلب الخلافة من علي بن أبي طالب الذي هو الوصي في نظره، وطريقته في سياق الاتهامات ـ الباطلة ـ هي طريقة قومه من أهل التشيع وهي إما اختلاق الخبر بالكلية[٧]، أو التزيد في الخبر[٨]،

---

(١) تجديد الدولة الأموية، ص (٢١٢).
(٢) تاريخ اليعقوبي (٢/ ٣٦١).
(٣) المصدر نفسه، (٢/ ١٣١).
(٤) المصدر نفسه، (٢/ ٢٢٢).
(٥) المصدر نفسه، (٢/ ٢٣٢، ٢٣٨).
(٦) المصدر نفسه، (٢/ ١٢٣، ١٢٦).
(٧) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص (٤٣١).
(٨) المصدر نفسه، ص (٤٣١).

والإضافة عليه أو عرضه في غير سياقه ومحله حتى يتحرف معناه، ومن الملاحظ أنه عندما ذكر الخلفاء الأمويين وصفهم بالملوك وعندما ذكر خلفاء بني العباس وصفهم بالخلفاء، كما وصف دولتهم في كتابه البلدان باسم الدولة المباركة[١]، مما يعكس نفاقه وتستره وراء شعار التقية.

وهذا الكتاب يمثل الانحراف والتشويه الحاصل في كتابة التاريخ الإسلامي، وهو مرجع لكثير من المستشرقين والمستغربين الذين طعنوا في التاريخ الإسلامي وسيرة رجاله، مع أنه لا قيمة له من الناحية العلمية إذ يغلب على القسم الأول القصص والأساطير والخرافات، والقسم الثاني كتب من زاوية نظر حزبية، كما أنه يفتقد من الناحية المنهجية وبسط قواعد التوثيق العلمي[٢].

هذا هو اليعقوبي الذي اعتمده المؤرخون المتأخرون في روايته قصة بناء مسجد قبة الصخرة أو مسجد بيت المقدس على حد تعبيره، وعلينا أن نتحفظ من رواية اليعقوبي الآنفة الذكر، ونعتبرها خارجة عن الإطار المقبول لأنه لا يعقل أن رجلاً بمستوى عبد الملك في دهائه ومكره وعقله وفقهه يضع نفسه موضع شبهة الكفر، فيصد الناس عن الحج إلى بيت اللّه الحرام[٣].

هذا من ناحية العقل والمنطق، وأما من ناحية السند فقد بينا أننا لم نسمع أن أحداً من خصوم الأمويين أوردوا ذلك في مطاعنهم على عبد الملك ـ سوى الشيعة ـ. كما أن الإمام الزهري لم يلتق بعبد الملك إلا بعد مقتل ابن الزبير، فقد نقل الذهبي عن الليث بن سعد أنه قال: قدم ابن شهاب على عبد الملك سنة اثنين وثمانين[٤]. وقد نص على أن ابن الزبير قُتل سنة ٧٢هـ[٥]، وبعد مقتله استوثقت الممالك لعبد الملك[٦]، فليس هو في حاجة لمن يضع له أحاديث لصرف الناس عن الحج.

والزهري لم يكن عند مقتل ابن الزبير ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية بحيث تتقبل منه حديثاً موضوعاً يلغي به فريضة الحج الثابتة بالقرآن والأحاديث الصحيحة وذلك لصغر سنه، فإنه قد ولد بعد الخمسين من الهجرة[٧]، وصداقته بعبد الملك

(١) كتاب البلدان لليعقوبي، ص (٤٣٢).
(٢) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص (٤٣٢).
(٣) تجديد الدولة الأموية، ص (٢١٤).
(٤) موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، ص (١٣٦).
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٤٧). (٦) المصدر نفسه (٤/ ٢٤٧).
(٧) السنة ومكانتها في التشريع، ص (٢١٨).

وتردده عليه لا يقدح في أمانته ودينه، وأما حديث شد الرحال فهو صحيح رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم من العلماء، قال عنه ابن تيمية: وهو حديث مستفيض، متلقى بالقبول، أجمع أهل العلم على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق[١]، ولم ينفرد الزهري رحمه اللّٰه برواية هذا الحديث حتى يتهم بوضعه.

والحديث ليس فيه فضل قبة الصخرة وليس فيه الدعوة إلى الحج إليها والطواف حولها بدلاً عن الكعبة، كما يدعي بعض المزورين، وغاية ما فيه فضل الصلاة في بيت المقدس وزيارته[٢]، وأما الصخرة فقد ذكر ابن القيم أن كل حديث فيها فهو كذب مفترى[٣]، وقد قام الدكتور حارث بن سليمان الضاري بنسف هذه الشبهة في كتابه القيم: «الإمام الزهري وأثره في السنة»[٤] في ثلاث عشرة صفحة، وأتى بحجج دامغة قوية لمن يبحث عن الحقيقة العلمية.

---

(١) الفتاوى (٢٧/ ٥، ٦).
(٢) السنة ومكانتها في التشريع، ص (٢١٩).
(٣) المنار المنيف، ص (٨٧).
(٤) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص (٤٥٧ ـ ٤٧٠).

الفصل السادس

النظام القضائي والشرطة

الفصل السادس

النظام القضائي والشرطة

أولاً

القضاء

كان القضاء على عهد عبد الملك استمراراً لما كان عليه زمن من سبقه من الخلفاء، فضلاً عن إسهاماته الرائدة بتنظيم جوانب متعددة منه، فهو أول من أفرد للمظالم[١] يوماً، كما أوجب أن تقرأ عهود القضاة، أي أوامر تعيينهم، في المسجد الجامع أولاً، ثم يتوجهون إلى دار الأمير حيث يُتلى أمامه عهد تولية القاضي[٢]، وكان الخليفة عبد الملك يختار من القضاة من يتصف بالتقوى والنزاهة، فقد ولى على القضاء بلال بن أبي الدرداء[٣].

١ ـ أشهر قضاة عبد الملك:

وكان من أشهر قضاة عبد الملك أبا إدريس الخولاني وذلك سنة ٧٤هـ، وكانت له المظالم أيضاً حتى أعفاه عبد الملك بطلب منه[٤]، ثم ولى عامر الأشعري[٥]، ثم عبد اللّه بن عامر اليحصبي[٦]، وعبد اللّه بن قيس، ثم سليمان المحاربي، ومعظم هؤلاء القضاة من الفقهاء ومن رواة الحديث[٧].

٢ ـ رزق القاضي:

ولما قدم عبد الملك بن مروان النخيلة سنة ٧٢هـ قال: ما فعل شريح

---

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٨٨).

(٢) الإسلام والحضارة الإسلامية، كرد علي، ص (١٦١).

(٣) أخبار القضاة (٣/ ٢٠٢).

(٤) المصدر نفسه (٣/ ٢٠٢)، الإصلاحات، ص (١٨٩).

(٥) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٨٩).

(٦) أخبار القضاة (٣/ ٢٠٣).

(٧) إدارة بلاد الشام، ص (١٣٢، ١٣٣).

العراقي؟ قيل: حي، قال: عليَّ به. فجاءه فقال: ما منعك من القضاء؟ فقال: ما كنت أقضي بين اثنين في فتنة[١]. قال: وفقك اللّه عُد إلى قضائك، فقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، وثلاثمائة جريب، فأخذها بالفلوجة وقضى إلى سنة ثمان وسبعين[٢].

٣ ـ مراقبة القضاة:

كان عبد الملك يراقب قضاته ويتابع أخبارهم، فقد أخبر أن زوجة قاضيه الحارث الأشعري، كلمت زوجها في رجل يقضي له بقضية، وأن الرجل أهدى إلى زوجة القاضي هدية، فقال عبد الملك:

إذا رشوة من باب بيت تقحمت لتسكن فيه والأمانة فيه
سعت هرباً منه وولت كأنها حليم تولي عن جوار سفيه[٣]

٤ ـ عدم التدخل في أحكامهم وأعمالهم:

فقد كان موقف عبد الملك من القضاء والقضاة مبني على الاحترام وعدم التدخل في عملهم وأحكامهم[٤].

٥ ـ احترامه لقضاء عبد اللّه بن الزبير رضي اللّه عنه:

أرسل أبان بن عثمان عامل عبد الملك على المدينة رسالة يسأله عن موقفه من أقضية وأحكام عبد اللّه بن الزبير، قائلاً له: إن عبد اللّه بن الزبير قضى بين الناس بأقضية، فما يرى أمير المؤمنين، أمضيها أم أردها؟ فكتب عبد الملك إلى إبان بن عثمان: إنا واللّه ما عبنا على ابن الزبير أقضيته، ولكن عبنا عليه ما تناول من الأمر، فإذا أتاك كتابي هذا، فأنفذ أقضيته، فإن ترداد الأقضية عندما يتعسر[٥]. وهذه الرسالة تبين لنا جانباً مهماً من سياسة عبد الملك الحازمة، وحكمته في عدم التدخل في المؤسسة القضائية، إذ سد باباً على الحكام والولاة كان فتحه يمكن أن يعرض أحكام القضاة إلى النقض المستمر[٦].

---

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، (٢/ ٢١١).
(٢) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، (٢/ ٢١١).
(٣) أخبار وكيع (١/ ٥٦)، الإصلاحات المالية، ص (١٩٠).
(٤) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٩٠).
(٥) أخبار القضاة (١/ ١٣٠).
(٦) الإصلاحات المالية، ص (١٩١).

٦ ـ تحديد مهور النساء:

قام عبد الملك بتحديد المهور وجعلها (٤٠٠) أربعمائة دينار، حداً أعلى، وهو أول من فعل ذلك اقتداء بما فعله رسول اللّه ﷺ عندما خطب أم حبيبة بنت أبي سفيان[١]، وربما قام عبد الملك بذلك منعاً للمغالاة في المهور، وتشجيعاً للزواج والإنجاب[٢].

٧ ـ ديوان المظالم:

كان الخليفة عبد الملك أول من أفرد يوماً للنظر في المظالم، حيث جلس في يوم محدد يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر فيها، فكان إذا وقف منها على مشكل، أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه[٣] أبي إدريس الخولاني، فنفذ فيه أحكامه، وقد قام للجلوس بنفسه حتى يرتدع الناس، فكان أبو إدريس هو المباشر وعبد الملك الآمر[٤]، وكان عبد الملك حين يجلس للمظالم يستعد لها، فكان يلبس جبة ورداء[٥]، كما يقام على رأسه بالسيوف[٦]، ويأمر شخصاً من هؤلاء القائمين على رأسه بإنشاد شعر لسعية بن عُريض وهو:

إنا إذا ما دعا الهوى ... وأنصت السامع للقائل
واصطرع القوم بألبابهم ... نقضي بحكم عادل فاصل
لا نجعل الباطل حقاً ولا ... نلفظ دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلافنا ... فنخمل الدهر مع الخامل[٧]

ثم يجتهد عبد الملك في الحق بين الخصمين[٨]. وهذا يعني أن جلوس الخليفة عبد الملك للمظالم كان جلوساً منظماً ومتكاملاً، ولا بد أن جلسات الخليفة هذه كان يحضرها كتاب يدونون هذه الجلسات وأحكامها، كما أن تحديد الخليفة عبد الملك يوماً معيناً من كل أسبوع للنظر في المظالم، وتعيين قاضٍ

---

(١) الطبقات (٨/ ٩٩)، الإصلاحات المالية، ص (١٩٠).
(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٩٠).
(٣) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص (١٥١).
(٤) نهاية الأرب (٦/ ٢٦٩).
(٥) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص (١٥٢).
(٦) الإسلام والحضارة العربية، كرد علي، ص (١٦٧).
(٧) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص (١٥٢).
(٨) البداية والنهاية (١٢/ ٣٨٥).

لذلك، وتعيين من يقوم على رأسه بالسيوف وهم من الحماة والأعوان، وارتداء الخليفة ملابس معينة، وانعقاد هذه الجلسات في مكان محدد، كل هذا يعني وجود الأسس لديوان مستقل. لكل ذلك يمكننا أن نقول بأن الخليفة عبد الملك ربما كان أول من أسس ديوان النظر في المظالم في الدولة[١].

ثانياً
الشرطة

ومن الأجهزة المهمة التي كان لها أثر فاعل في إدارة بلاد الشام، جهاز الشرطة، وعلى رأسه صاحب الشرطة، ولا بد أن الخليفة عبد الملك كان لا يختار لهذا المنصب إلا من توافرت فيه شروط صعبة التوافر[٢]، وعين الخليفة عبد الملك بن مروان على شرطته: عبد اللّه بن هاني الأزدي[٣]، ثم استبدل به يزيد بن كبشة السكسكي ثم عزل الكثير من هذا المنصب وآخرهم في عهد عبد الملك، كعب بن حامد العبسي[٤].

ولم تكن مهمة الشرطة في عهد عبد الملك هي الجناة واللصوص فحسب، بل مارست الشرطة عملاً مهماً، ألا وهو عملية تنظيم وضبط نزول جيوش الخلافة ورحيلها أثناء الحملات العسكرية، فقد قلد الخليفة الحجّاج بن يوسف الثقفي هذه المهمة، فنجح فيها في عدة مناسبات، وتمكن من ضبط جيش الخليفة وتأدية مهمته على أحسن وجه[٥]، وكانت الشرطة موجودة في كل أقاليم الدولة وتابعة لولاتها.

واتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان حرساً خاصاً به[٦]، ويرأس هؤلاء الحرس رئيس، يعين ويعزل من الخليفة، وهو المسؤول عن أفراد حرسه أمام الخليفة. ويبدو أن أعدادهم لم تكن قليلة، وكانت مهمة الحرس الأساسية، هي حماية الخليفة، والمحافظة على سلامته، في حله وترحاله، وتنفيذ أوامره.

ومن الجدير بالذكر أن جميع رؤساء حرس عبد الملك كانوا من الموالي وبخاصة من موالي الخليفة نفسه، ويبدو أن ذلك راجع إلى طبيعة أعمال هؤلاء المرتبطة دوماً بالخليفة، والتي تستوجب أن يكونوا موضع ثقة الخليفة للاطمئنان

---

(١) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص (١٥٣).
(٢) عيون الأخبار (١/ ١٦).
(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٩١).
(٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٩٢).

على سلامته، وكان الخليفة ينتقل في مدن بلاد الشام، ونظم إقامته على هذا الأساس، فلم يكن يقيم بدمشق طوال العام، بل كان يشتو بالصَنبرة من الأردن، وإذا انتهى الشتاء نزل الجابية، وفرّق الأرزاق على أصحابه، فإذا مضت أيام من آذار دخل دمشق، حتى إذا اشتد الحر أتى بعلبك فقام بها حتى تهيج رياح الشتاء فيرجع إلى دمشق، فإذا اشتد البرد خرج إلى الصنبرة، وهذه التنقلات كانت تخضع لنظام حراسة مشدد، ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب الشرطة في العصر الأموي، للدكتور أرسن موسى رشيد.

الفصل السابع

العلماء والشعراء
في عهد عبد الملك

الفصل السابع

العلماء والشعراء في عهد عبد الملك

أولاً

العلماء

اختلف موقف العلماء من عبد الملك، فهناك من خرج عليه، كعبد الرحمن بن أبي ليلى، وسعيد بن جبير، وهناك من ابتعد عنه والتزم بالبيعة كالحسن البصري وغيره، وهناك من كان قريباً منه ناصحاً له كقبيصة بن أبي ذؤيب. وقد اخترت مجموعة من العلماء ممن كانت لهم قربة ومنزلة من عبد الملك، أو نصحوه أو ذكّروه، ولم يكن عبد الملك بعيداً عن أجواء العلماء وطلاب العلم، فقد كان في المدينة في مقبل شبابه مشمراً في طلب العلم وعرف عنه أنه كان يلزم المسجد ولا يكاد يبرحه حتى سمي حمامة المسجد لعبادته، وطول انقطاعه للدراسة، مقبلاً على طلب العلم مجلاً لشيوخه.

ولما كان متوقد الذكاء، شديد الفطنة، قوي الذاكرة، فقد وعى كل ما سمع منهم، وأتقنه لمجالسته لهم[١]، وهذا أكسبه قدرة بحيث صار حجة في المعارف الدينية كقراءة القرآن التي كان يطيل في تلاوتها بالمدينة[٢]، كما كان يحضر دراسته بدمشق[٣]، وعرف بروايته للحديث، وإن كان مقلاً[٤]، على الرغم أنه كان ثقة فيما رواه[٥]، وروايته مثبتة في الصحيحين البخاري ومسلم[٦].

وكان فقيهاً من الفقهاء، ومن أهل العلم بالمغازي والسير[٧]، وإخبارياً له علم

---

(١) أنساب الأشراف نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص (٢٩٠).

(٢) تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢٢)، شذرات الذهب (١/ ٩٧).

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص (٢٩٠).

(٤) الطبقات (٥/ ٢٢٦)، تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢٢).

(٥) تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢٣).

(٦) المصدر نفسه (٦/ ٤٢٣).

(٧) تجديد الدولة الأموية، ص (٢٩١).

واسع بأحاديث العرب وآثارهم في الجاهلية والإسلام، كثير المحاورة لرواة وسادة القبائل، ونسابة له معرفة دقيقة بأنساب العرب وبخاصة أنساب قريش[١]، ولذلك كان عارفاً بنفسية العلماء قادراً على التعامل معهم، ومن أشهر العلماء الذين احتك بهم، أو كانت له مواقف وعظ أو تذكير له هم:

١ ـ قبيصة بن ذؤيب:

نشأ قبيصة في المدينة وكان في عداد علمائها ولكنه انتقل إلى الشام بجانب عبد الملك، وأصبح من خاصته، واختاره عبد الملك لعلاقته القديمة به في المدينة، ولما يتمتع به قبيصة من روح مرنة تراعي الأحوال، وتقدر المواقف، وتوازن بين المصالح، وصاحب هذه الروح هو القادر على الصبر والقرب من الخلفاء والسلاطين، وهو من يرغب الخلفاء في تقريبه عادة، ومن المواقف التي ظهرت فيها هذه الروح عند قبيصة ما ذكره ابن سعد في طبقاته، حيث ذكر أن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه دخل على عبد الملك وقربه، فقال جابر: يا أمير المؤمنين إن المدينة حيث ترى، وهي طيبة سماها النبي عليه الصلاة والسلام، فأهلها محصورون، فإن رأى أمير المؤمنين أن يصل أرحامهم ويعرف حقهم فعل، قال: فكره ذلك عبد الملك وأعرض عنه، وجعل جابر يلح عليه حتى أومأ قبيصة إلى ابنه ـ وهو قائده وكان جابر قد ذهب بصره ـ أن أسكته، قال: فجعل ابنه يسكته، قال جابر: ويحك؟ ما تصنع بي؟ قال: اسكت فسكت جابر، فلما خرج أخذ قبيصة بيده فقال: يا أبا عبد الله إن هؤلاء القوم صاروا ملوكاً. فقال جابر: أبلى الله بلاءً حسناً فإنه لا عذر لك وصاحبك يسمع منك. قال يُسمع ولا يسمع وما وافقه سمع، وقد أمر لك أمير المؤمنين بخمسة آلاف درهم، فاستعن بها على زمانك فقبضها جابر[٢].

فمن هذا الموقف يتضح كيف أدرك قبيصة عدم رضا الخليفة عن فتح هذا الموضوع معه من قبل جابر، وكيف أنهى الموضوع حتى لا يتطور إلى ما لا تحمد عقباه للطرفين، فأشار على ابن جابر بإيقاف والده عن الكلام، ثم يطيب خاطر جابر بأخذه بيده، والاعتذار إليه بألا يستغرب هذا التصرف من عبد الملك، فلا يتعامل معه على أنه عبد الملك العالم، وإنما على أنه عبد الملك الذي صار ملكاً ينظر إلى الأمور من نافذة الملك ومصالحه، ثم هو يعتذر لنفسه عندما وجه جابر اللوم له بأنه

---

(١) المصدر نفسه، ص (٢٩١).

(٢) الطبقات (٥/ ٢٣١).

ليس له عذر في عدم المطالبة بحقوق أهل المدينة ما دام له هذه المكانة عند عبد الملك، لكن الأمر ليس كما يتصور جابر وغيره بأنه قادر على تحقيق كل ما يريده من عبد الملك بل الواقع أن يُسمع ولا يسمع، وفي هذا دليل على مراعاة قبيصة للأحوال والأشخاص[(١)].

أ ـ **مكانته من عبد الملك**: جمع قبيصة عدداً من المهام في عهد عبد الملك، وتعددت مسميات مهامه عند عبد الملك، فيذكر ابن سعد[(٢)]، وابن عساكر، وابن عبد الهادي: إن قبيصة كان على الخاتم والبريد، وأما الذهبي، فقد ذكر هذه المهام السابقة وأضاف أخرى حيث ذكر أنه كان كاتباً لعبد الملك، ووصفه بأنه الوزير[(٣)].

وكان يدخل على عبد الملك طروقاً[(٤)]، وأن عبد الملك تقدم إلى حاجبه فقال: لا يحجب قبيصة أي ساعة جاء من ليل أو نهار إذا كنت خالياً أو كان عندي رجل واحد، أو كنت عند النساء، أدخل المجلس ثم أُعلمت مكانه. وكانت تأتيه الأخبار قبل عبد الملك فيقرأ الكتب قبله ثم يأتي بها منشورة إلى عبد الملك فيقرأها إعظاماً لقبيصة[(٥)]، فقبيصة بهذا كان وزيراً لعبد الملك ومستشاراً له وساعده الأيمن في إدارة الدولة وتصريف شؤونها، وكان ملازماً له في سفره وإقامته[(٦)].

ب ـ **موقف قبيصة من محاولة عبد الملك خلع أخيه عبد العزيز**: كان مروان بن الحكم قد عقد ولاية العهد لابنيه عبد الملك ومن بعده عبد العزيز[(٧)]، وبعد وفاة مروان تمت البيعة بالخلافة لعبد الملك وبولاية العهد لأخيه عبد العزيز بن مروان من قبل المؤيدين لبني أمية، ثم تأكدت تلك البيعة من الأمة بعد مقتل ابن الزبير ونهاية سلطانه، ولكن عبد الملك بعدما استقرت له الأمور، وتذوق حلاوة الملك في دنياه ورغب من استمرار الذكر له بعد الوفاة، لا سيما وقد رأى أن كلاً من ابنيه الوليد وسليمان قد بلغ من الرشد مبلغه، وتحركت فيه عاطفة الأبوة تجاههما، وأحب أن يصرف ولاية العهد من بعده لهما دون أخيه عبد العزيز، وكان قد عزم على ذلك إلا أن قبيصة بن ذؤيب نهاه عن ذلك.

---

(١) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (١٢٤).
(٢)، (٣) الطبقات الكبرى (٥/ ٢٣٤).
(٤) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (١٢٥).
(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ٢٣٤).
(٦) المصدر نفسه (٥/ ٢٣٠).
(٧) تاريخ خليفة، ص (٢٦١).

فقد أورد ابن سعد هذا الخبر: قالوا: كان عبد الملك بن مروان قد همّ أن يخلع أخاه عبد العزيز بن مروان ويعقد لابنيه الوليد وسليمان بعده بالخلافة، فنهاه قبيصة بن ذؤيب، وقال: لا تفعل هذا، فإنك تبعث عليك صوتاً نعاراً[(١)]، ولعل الموت يأتيه فتستريح منه، فكف عبد الملك عن ذلك ونفسه تنازعه أن يخلعه، فدخل عليه ليلة روح بن زنباع الجذامي وكان يبيت عند عبد الملك، وكان أحلى الناس كلاماً عند عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين لو خلعته ما انتطحت فيه عنزان، قال: ترى ذلك يا أبا زرعة؟ قال: أي والله وأنا أول من يجيبك إلى ذلك، فقال: نصبح إن شاء الله، فبينما هو على ذلك، وقد نام عبد الملك بن مروان وروح بن زنباع إلى جنبه إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب.. فقال: آجرك الله يا أمير المؤمنين في أخيك. فقال: فهل تُوفي؟ قال: نعم. فاسترجع عبد الملك بن مروان ثم أقبل على روح فقال: أبا زرعة كفانا الله ما كنا نريد وما أجمعنا عليه[(٢)].

ومن خلال هذا الموقف لقبيصة يمكن أن نستشف منهجه في التعامل مع عبد الملك كمشير ووزير، ويتمثل ذلك المنهج في صدقه في النصيحة ومراعاة المصلحة العامة للأمة والدولة، فهو لم يجامل عبد الملك بموافقته له فيما يوده ويهواه، بل دفعه إخلاصه لله وتقديره لمصلحة الأمة بعامة، والبيت الأموي بخاصة، أن يقول رأيه بصراحة، وإن كان يعلم أنه يخالف ما في نفس عبد الملك ويضاد رغباته وعواطفه تجاه بنيه[(٣)].

جـ ـ موقفه من محنة الإمام الجليل سعيد بن المسيب: بعد وفاة عبد العزيز بن مروان عقد عبد الملك البيعة من بعده لابنيه الوليد وسليمان، وبعث إلى البلدان لأخذ البيعة لهما، ففي المدينة دعا واليها هشام بن إسماعيل المخزومي الناس إلى البيعة فبايعوا إلا سعيد بن المسيب فإنه أبى وقال: أنظر، فضربه هشام وطاف به ثم سجنه، وبعث إلى عبد الملك يخبره بما فعل[(٤)].

وكانت الرسائل تصل إلى قبيصة بن ذؤيب ويقرؤها قبل عبد الملك، فلما وصل كتاب هشام واطلع على ما فيه كان له موقف من تصرف هشام مع سعيد بن المسيب يصور لنا ابن سعد هذا الموقف: ...دخل قبيصة بن ذؤيب على عبد الملك بن مروان بكتاب هشام بن إسماعيل يذكر أنه ضرب سعيداً وطاف به،

---

(١) النعار: العاصي والخرّاج السعّاء في الفتن.

(٢) الطبقات الكبرى (٥/ ٢٣٣، ٢٣٤).

(٣) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (١٣٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٠)، الطبقات (٥/ ١٢٦).

قال قبيصة: يا أمير المؤمنين يفتات عليك هشام بمثل هذا؟ يضرب ابن المسيب ويطوف به؟ والله لا يكون سعيد أبداً أمحل وألج[١] منه حين يضرب، سعيد لو لم يبايع ما كان يكون منه؟ ما سعيد مما يخاف فتقه ولا غوائله على الإسلام وأهله، وإنه لمن أهل الجماعة والسنة. وقال قبيصة: اكتب إليه يا أمير المؤمنين في ذلك. فقال عبد الملك: اكتب أنت إليه عني تخبره برأيي فيه ومخالفتي من ضرب هشام إياه.

فكتب قبيصة إلى سعيد بذلك. فقال سعيد حين قرأ الكتاب: الله بيني وبين من ظلمني[٢]، وكتب إلى والي المدينة كتاباً باسم عبد الملك: سعيد كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه، وإنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولا خلاف[٣].

ويتضح من هذا أثر قبيصة الكبير في صياغة موقف عبد الملك وقراره في مثل هذه القضايا المهمة والخطيرة، كما يظهر أثره الفعال في إطفاء الفتن وحسن معالجته لها معالجة تنم عن بعد نظره ومعرفته بعواقب الأمور من منطلق إرضاء الله أولاً، ثم الحرص على مصلحة الأمة والدولة ثانية[٤].

د ـ **محاولته إصلاح بطانة عبد الملك**: كانت له محاولات تستهدف إصلاح بطانة عبد الملك، وذلك بتقريب العلماء له وجعلهم ضمن جلسائه ليكثر بذلك سوادهم عنده، ويكون تأثيرهم أقوى وأنفع، ومن ذلك محاولته تقريب الإمام الزهري إلى عبد الملك فتشير بعض الروايات التي ذكرت صلة الزهري بعبد الملك أن الزهري خرج من المدينة لما اشتد به ضيق ذات اليد، وساءت أحوال أهله، وليس له مورد فرحل إلى الشام، وذكرت بعض الروايات أنه اتصل بقبيصة وجالسه مدة قبل اتصاله بعبد الملك[٥]، وقد أكرم قبيصة الزهري وقال له: ائتني في المنزل، فلحق به الزهري، فلما بلغ منزله كساه ومنحه بغلة ومائة دينار وغلاماً[٦].

---

(١) المحل: المكر والكيد، وماحله مماحلة ومحلاً: قاومه حتى تبين أيهما أشد، واللجاجة: الخصومة.

(٢) الطبقات (٥/ ١٢٦، ١٢٧).

(٣) المصدر نفسه (٥/ ١٢٦) إثر العلماء، ص (١٤٠).

(٤) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (١٤١).

(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٢٩).

(٦) المصدر نفسه (٥/ ٣٢٩).

وعمل على تعريف عبد الملك بمكانة الزهري العلمية حتى أصبح من أصحابه وفرض له العطاء، وتوطدت العلاقة بين الزهري وعبد الملك، وتكرر الدخول على عبد الملك بانتظام شأنه شأن أصحابه وجلسائه، ولكن حرص الزهري على العودة إلى المدينة لمواصلة طلب العلم، وتولي مؤونة أهله وذويه جعله يرحل وينقطع عن عبد الملك. فكانت صلته هذه على يد قبيصة بداية اتصال الزهري بخلفاء بني أمية بعد عبد الملك(١).

وقد قال ابن سعد في أثر قبيصة لتقريب الزهري لبني أمية بقوله: وهو الذي أدخل الزهري على عبد الملك بن مروان ففرض له ووصله وصار من أصحابه(٢). وكان هذا من قبيصة حرصاً على مصلحة الزهري، كما كان همه إصلاح بطانة عبد الملك وتكثير سواد أهل العلم والصلاح في بلاطه مما سيكون له أثر في توجيه سياسة الدولة نحو الأصلح بالتأثير على عبد الملك من قبل جلسائه وبطانته(٣).

وقال الذهبي عن قبيصة: الإمام الكبير، الفقيه، أبو سعيد الخزاعي.

وعن الشعبي قال: كان قبيصة أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت، وعن ابن شهاب، قال: كان قبيصة بن ذؤيب من علماء هذه الأمة. وعن مكحول قال: ما رأيت أحداً أعلم من قبيصة.

وقد توفي سنة ٨٦هـ، وقيل: ٨٧هـ، وقيل: ٨٨هـ(٤).

٢ ـ عطاء بن أبي رباح ونصيحته لعبد الملك:

دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك، وهو جالس على السرير وحوله الأشراف وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بَصُر به عبد الملك قام إليه، فسلم عليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين اتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق دونهم بابك. فقال له: أفعل، ثم نهض وقام، فقبض عليه عبد الملك وقال: يا أبا محمد، إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟ فقال: ما لي إلى مخلوق

---

(١) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (١٤٣).
(٢) الطبقات (٧/ ٤٤٧).
(٣) أثر العلماء، ص (١٤٣).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٨، ٢٨٢).

حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد[١].

وكان بنو أمية في عهدهم يأمرون منادياً يصيح في الحج: لا يُفتي الناس إلا عطاء بن رباح، فإن لم يكن عطاء، فعبد الله بن أبي نجيح[٢]، وقد فاق عطاء أهل مكة في التقوى[٣]. وكان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاة[٤]، وكان معاشه صلة الإخوان ونيل السلطان[٥].

ومن أقوال عطاء: إن من قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون أن عليكم حافظين، كراماً كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر آخرته[٦]، وعن عطاء: إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأُنصت له كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد[٧].

وعطاء هذا الذي كان مرجع الأمة في موسم الحج كان أسود أعرج، أفطس، أعور، ثم أعمى، من الموالي. فهذا الذي تجمعت فيه كل العاهات الجسدية جعلته الحضارة الإسلامية رأس الفتوى في أقدس بقعة عند المسلمين في مكة، فضلاً عن كونه من أشهر علماء الحجاز الذين يستقطبون طلبة العلم من مختلف أرجاء المعمورة[٨].

٣ ـ يزيد بن الأصم وإجابته لعبد الملك:

سأل عبد الملك يزيد بن الأصم عن معنى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] فأجاب بكل صراحة بقوله: التجبر في الأرض، والأخذ بغير الحق ـ أي من العلو والفساد في الأرض ـ فنكس عبد الملك برأسه، وجعل ينكت في الأرض، وكان إطراق عبد الملك وتنكيسه لرأسه حياء من يزيد لإدراكه أنه المعني لذلك بالتوجيه[٩].

---

(١) المصدر نفسه (٥/ ٨٤، ٨٥).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (٥/ ٨٢).
(٤)، (٥) المصدر نفسه (٥/ ٨٤).
(٦) المصدر نفسه، (٥/ ٨٦).
(٧) سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٦).
(٨) رعاية الفئات الخاصة، ص (٩).
(٩) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٢٧٥).

ثانياً

عبد الملك والشعر والشعراء

كان عبد الملك بن مروان راوياً للشعر ناقداً له، كثير الاستشهاد به في كثير من المناسبات، يكثر من الأسئلة والمحاورة منه في مجلسه، فضلاً عن اهتمامه بمعانيه، كما كان يعلم خطورته في التأثير الإعلامي في كسب الأنصار والهجوم على خصومه، ولذلك اهتم بالشعراء اهتماماً كبيراً ووظفهم لمدحه ودولته وبني أمية، ولم يبخل عليهم بالعطاء، ولذلك كان كبار شعراء عصره من الأمويين مثل الأخطل، والفرزدق، وجرير، وغيرهم، كما أنه عمل على كسب خصومه حتى أنهم مدحوه بعد أن هجموا عليه بقصائد قوية في سبه وذمه مثل عبيد اللّه الرقيات، وإليك شيئاً من شعر شعراء الدولة الأموية:

١ ـ الأخطل:

هو غياث بن غوث التغلبي النصراني، شاعر زمانه، وقد قيل للفرزدق: من أشعر الناس؟ قال: كفاك بي إذا افتخرت، وبجرير إذا هجا، وبابن النصرانية إذا امتدح[1]، وكان عبد الملك بن مروان يجزل عطاء الأخطل، ويفضله في الشعر على غيره[2]، فقد كان شاعر الدولة الرسمي الذي أكثر من مدح خلفائها، والدعاية لها، والترويج لسادتها نحو ربع قرن[3]، ومن مدحه في بني أمية:

تمت جدودهم واللّه فضّلهم ... وجدُّ قوم سواهم خامل نكدُ
وأنتم أهل بيت لا يوازنهم ... بيت إذا عدت الأحساب والعدد[4]

ومن شعره المتميز في بني أمية قوله:

حشدٌ على الحق عيّافو الخنا أُنُفٌ ... إذا ألمّت بهم مكروهة صبروا
شمسُ العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا[5]

وكان كثير المديح لعبد الملك والتنويه بصلاح السياسة في عهده كقوله:

إلى إمام تغدينا فواضله ... أظفره اللّه فليهنأ له الظفرُ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٩).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ٥٨٩).

(٣) أدب السياسة في العصر الأموي، ص (٤٩٢).

(٤) ديوان الأخطل، ص (١٧٤).

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٤٩٥).

الخائض الغمر والميمون طائره خليفة اللّه يُستقى به المطر
والمستمر به أمر الجميع فما يغتره بعد توكيد له غرر
نفسي فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النواجز يوماً عارم ذكر[١]

وعرف الأخطل بأنه يعاود شعره بالتنقيح والصقل، حتى لقد قالوا إنه كان ينظم القصيدة تسعين بيتاً، ثم يضرب عن ستين ويبقي ثلاثين، وهذا هو السبب في جودة تعبيره، وندرة سقطه، وهو بهذا يشبه المنقحين القدماء، مثل زهير والحطيئة وأضرابهما، مما سماهم الأصمعي عبيد الشعر[٢]. ومن أحسن ما قال من الشعر قوله:

والناس همهم الحياة ولا أرى طول الحياة يزيد غير خبال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال[٣]

٢ ـ الفرزدق:

هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن مجاشع[٤]، وكان ممن مدح بني أمية، وقال في عبد الملك بن مروان:

فالأرض للّه ولّاها خليفته وصاحب اللّه فيها غير مغلوبِ
بعد الفساد الذي قد كان قام به كذاب مكة من مكر وتخريب
راموا الخلافة في غدر فأخطأهم منها صدور وفازوا بالعراقيب
والناس في فتنة عمياء قد تركت أشرافهم بين مقتول ومحروب
دعوْا ليستخلف الرحمن خيرهم واللّه يسمع دعوى كل مكروب
فأصبح اللّه ولّى الأمر خيرهم بعد اختلاف وصدع غير مشعوب
تراث عثمان كانوا الأولياء به سربال ملك عليهم غير مسلوب[٥]

وكان للفرزدق أخٌ شاعر وهو هميم وهو القائل:

لعمر أبيك فلا تكذبن لقد ذهب الخير إلا قليلاً
وقد فتن الناس في دينهم وخلّى ابن عفان شراً طويلاً[٦]

---

(١) عارم ذكر: نكبة شديدة وأذى مهلك، أدب السياسة، ص (٥٠٠).
(٢) أدب السياسة في العصر الأموي، ص (٥٠١).
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٩٠).
(٤) الشعر والشعراء (١/ ٤٧١).
(٥) أدب السياسة في العصر الأموي، ص (١٤٩)، الديوان (١/ ٢٥).
(٦) الشعر والشعراء (١/ ٤٧٢).

٣ ـ جرير:

هو جرير بن عطية بن الخطفي التميمي البصري مدح خلفاء بني أمية، وشعره مدون[١]، وقد مدح عبد الملك ووصفه بأنه ركن الدين، والحفيظ على أحكام الشرع، ولولاه ما اجتمع المسلمون في صلواتهم في المساجد في الجُمع، ثم يصفه بأنه أمين اللّه، والمبارك الذي يهدي به اللّه عباده، ويقول: إن أوامره ميمونة مطاعة، وإن اللّه فضل بني أمية على غيرهم من أهل البدع، يريد الأحزاب المعادية لبني أمية[٢]، حيث قال:

لولا الخليفة والقرآن يقرأه ... ما قام للناس أحكام ولا جُمَعُ
أنت الأمين أمين اللّه لا سرف ... فيما وليت ولا هيابة ورع[٣]
أنت المبارك يهدي اللّه شيعته ... إذا تفرقت الأهواء والشيع
فكل امرِ على يمن أمرت به ... فينا مطاع ومهما قلت يستمع
يا آل مروان إن اللّه فضلكم ... فضلاً عظيماً على من دينه البدع[٤]

ومدح عبد الملك بقصيدة جاء فيها:

سأشكر إن رددت علي ريشي ... وأنبت القوادم من جناحي
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

فقال عبد الملك: من مدحنا فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت، ووهبه مائة ناقة، فسأله الرعاء، فوهبه ثمانية أعبد، ورأى صحاف ذهب بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين والمحلب[٥]، وأشار إليها، فنحاها إليه بالقضيب وقال: خذها لا نفعتك[٦].

وكان في جرير على هجائه للناس عفة ودين، وحسن خلق، ورقة طبع، اتفق علماء الأدب وأئمة نقد الشعر، على أنه لم يوجد في الشعراء الذين نشأوا في ملك بني أمية أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل، وإنما اختلفوا في أيهم أشعر[٧]. وإن

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩١).
(٢) أدب السياسة في العصر الأموي، ص (١٤٧، ١٤٨).
(٣) سرف: متجاوز الحد. ورع: جبان.
(٤) ديوان جرير، ص (٣٥٥).
(٥) المحلب: الإناء.
(٦) شذرات الذهب (٢/ ٥٧).
(٧) جواهر الأدب (٢/ ١٥١).

لجرير في كل باب من الشعر أبياتاً سائرة، هي الغاية التي يضرب بها المثل:

أ ـ فيقال إن أغزل شعر قالته العرب هو قوله:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهنَّ أضعف خلق اللّه إنسانا

ب ـ أفخر بيت قوله:

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضانا

جـ ـ أهجى بيت مع التصون والفحش قوله:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

د ـ أصدق بيت قوله:

إني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل

هـ ـ أشد بيت تهكماً قوله:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع[1]

ومن جيد شعره قوله من قصيدة يرثي به امرأته:

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد نظرت وما تمتُّع نظرة في اللحد حيث تمكن الإحفار
ولَهْتِ قلبي إذ علتني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكرُّ عليهم ونهار[2]
صلى الملائكة الذين تخيَّروا والطيِّبون عليكِ والأبرار
فلقد أراكِ كسيت أحسن منظر ومع الجمال سكينة ووقار
كانت إذا هجر الحبيبُ فرَاشَها خُزِنَ الحديث وعَفَّتِ الأَسرار[3]

وكان قد افتخر على الأخطل في قصيدة، وبيَّن أن عبد الملك ابن عمه، ولو شاء ساق إليه قبيلة الأخطل حيث قال:

إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل النبوة والخلافة فينا
هل تملكون من المشاعر مشعراً أو تشهدون مع الأذان أذينا؟
مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم يا خُرزَ تغلب من أب كأبينا

---

(١)، (٢) المصدر نفسه (٢/ ١٥١).

(٣) الشعر والشعراء (١/ ٤٩١).

هذا ابن عمي في دمشق خليفة   لو شئت ساقكم إليَّ قطينا[١]

قال الذهبي عن جرير: كان عفيفاً منيباً توفي ١١٠هـ بعد الفرزدق بشهر[٢].

٤ ـ الراعي:

من كبار الشعراء هو أبو جندل، عبيد بن حصين النُّميري، وإنما لقب بالراعي لكثرة ما يصف الإبل في شعره، وقد امتدح عبد الملك[٣]، وانضم إلى الفرزدق على جرير، فقال فيه جرير قصيدته المشهورة التي صارت وبالاً على بني نمير:

أقِلي اللوم عاذل والعتابا   وقولي إن أصبت لقد أصابا

وفيها يقول له:

فغض الطرف إنك من نُمير   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وأهم ما بقي للراعي لاميته التي مدح بها عبد الملك بن مروان ويشكو له العريف أو الجابي، ويرجو التخفيف عن قومه، ويتبرأ من الخوارج النجدية والزبيريين، ويعد نفسه بذلك مخلصاً للأمويين[٤]، ويبدو أن الراعي كان أموياً لأجل قومه، ورغبة في عبد الملك أن يرفع عن قومه ظلم الجباة، ومن شعر الراعي لعبد الملك:

إنّي حلفت على يمين برّة   لا أكذب اليوم الخليفة قيلا

ما إن أتيت نُجيدة بن عويمر   أبغي الهدى فيزيدني تضليلا[٥]

إلى أن قال في رواية أخرى:

أخليفة الرحمن إنا معشر   حُنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عُربٌ نرى للَّه في أموالنا   حق الزكاة منزلاً تنزيلاً

إن السُّعاة عصوك يوم أمرتهم   وأتوا دواهي لو علمت وغُولا[٦]

أخذوا العريف فقطعوا حيزومه   بالأصبحية قائماً مغلولا[٧]

---

(١) القطين: العبيد والإماء في هذا الموضع.

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩١).

(٣) المصدر نفسه (٤/ ٥٩٨).

(٤) تاريخ الشعر السياسي، ص (٣٧١).

(٥) طبقات فحول الشعراء (٢/ ٥٠٨).

(٦) الغول: الهلكة والداهية.

(٧) العريف: شيخ القبيلة. حيزومه: وسطه. الأصبحية: جمع أصبحي وهو السوط نسبة إلى ذي أصبح، وهو ملك يمني.

إن الـذيـن أمـرتـهـم أن يـعـدلـوا لـم يـفـعـلـوا مـمـا أمـرت فـتـيـلا
فـادفـع مـظـالـم عـيَّـلَـت أبـنـاءنـا عـنـا وأنـقِـذْ شِـلْـونـا الـمـأكـولا[١]

هؤلاء من أشهر شعراء عهد عبد الملك، وكان يهتم بهم ويسمع لهم ويجزل لهم في العطاء، وكسبهم في صفه، وأصبحوا من أبرز المدافعين عن الخليفة ودولته، وكان لا يتورع عن دفع الأموال للشعراء ما داموا يمدحون ويبجلون خلفاء بني أمية.

(١) عيلت: أجاعت، شلو: عضو. أدب السياسة في العصر الأموي، ص (١٧٢).

الفصل الثامن

ولاية العهد وموقف سعيد بن المسيب منها، ووصية عبد الملك لأولاده ووفاته

الفصل الثامن

ولاية العهد وموقف سعيد بن المسيب منها، ووصية عبد الملك لأولاده ووفاته

أولاً

ولاية العهد وموقف سعيد بن المسيب منها

عقد مروان بن الحكم ولاية العهد لابنه عبد الملك ومن بعده أخوه عبد العزيز بعد عودته من مصر، وبعد وفاته سنة ٦٥هـ تولى عبد الملك الحكم، وكانت العلاقة التي تربط بين الخليفة وأخيه وولي عهده عبد العزيز يسودها الصفاء، ولم يتوان الأخير عن خدمة الخلافة طيلة حياته، وبعد أن مضى ما يقارب عشرين سنة على هذه الحال بدأت تظهر فكرة تحويل ولاية العهد من عبد العزيز إلى الوليد وأخيه سليمان ابني الخليفة.

وقد تباينت الروايات في ذكرها لمن أشار بأمر الخلع، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف، فعلى ما يبدو أن الخليفة عبد الملك بعد أن ظهرت هذه الفكرة لديه كتب إلى أخيه يطلب منه أن يتنازل عن ولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان، فأبى عبد العزيز، وأراد عبد الملك أن ينتقم من عبد العزيز ويضيق عليه[١]، فكتب عبد العزيز إلى أخيه:

يا أمير المؤمنين إني وإياك قد بلغنا سناً لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً. وإني لا أدري ولا تدري أينا يأتيه الموت أولاً، فإن رأيت ألا تغثث عليَّ بقية عمري فافعل. فقال الخليفة عبد الملك: لعمري لا أغثث عليه بقية عمره، وقال لابنيه: إن يرد الله أن يعطيكموها لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك[٢].

---

(١) عبد العزيز بن مروان، بديع محمد الديلمي، ص (٢٠٦ ـ ٢٠٩).

(٢) تاريخ الطبري (٧/ ٣١٣).

وحسم موت عبد العزيز الخلاف مع أخيه، وعقد عبد الملك بيعة ولاية العهد للوليد وسليمان من بعده، وأمر ولاته في جميع الأمصار بأخذ البيعة لهما، فكان موقف سعيد بن المسيب هو الامتناع عن البيعة لأن ذلك التزام بسنة النبي ﷺ في نظره، لأنه نهى عن البيعة لاثنين، فلا بد من تنفيذ ذلك، مهما كلفه الامتناع من ثمن باهظ. قال عمران بن عبد الله: دُعي سعيد للبيعة للوليد وسليمان بعد عبد الملك بن مروان فقال: لا أبايع لاثنين ما اختلف الليل والنهار. قال: فقيل له: ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر، قال: والله لا يقتدي بي أحد من الناس[١].

وكان حجة سعيد بن المسيب في امتناعه عن البيعة أنه لا يجوز أن يبايع لاثنين بالخلافة في آن واحد[٢]. وقال عبد الرحمن بن عبد القاري لسعيد بن المسيب، حين قدمت البيعة للوليد وسليمان بالمدينة من بعد أبيهما: إني مشير عليك بخصال ثلاث، قال: وما هي؟ قال: تعتزل مقامك، فإنك وهو حيث يراك هشام بن إسماعيل ـ والي المدينة ـ قال: ما كنت لأغيّر مقاماً قمته منذ أربعين سنة. قال: تخرج معتمراً؟ قال: ما كنت لأنفق مالي، وأجهد بدني في شيء ليس فيه نية. قال: فما الثالثة؟ قال: تبايع. قال: أرأيت إن كان الله أعمى قلبك، كما أعمى بصرك. قال: فما عليّ[٣]! ـ وكان أعمى ـ قال رجاء بن جميل الإيلي: فدعاه هشام إلى البيعة، فأبى، فكتب فيه إلى عبد الملك، فكتب إليه عبد الملك، مالك ولسعيد، ما كان علينا منه شيء نكرهه، فأما إذا فعلت، فاضربه ثلاثين سوطاً، وألبسه تُبّان[٤] شعر، وأوقفه للناس[٥].

وكان للفقيه الكبير قبيصة بن ذؤيب دور في ندم الحكام على صنيعهم، ولام الخليفة على ما فعل بابن المسيب، وتم إخلاء سبيله من السجن من قبل والي المدينة الذي سجنه وجلده[٦].

فهذا هو موقف سعيد بن المسيب وتمسكه بفتواه، فقد رفض بشدة الخضوع للسلطان وخداع الأمة، فهو يرى أن امتناعه عن البيعة، إذا لم يعلمه

---

(١) سعيد بن المسيب سيد التابعين، ص (١٥٧)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣١).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣١).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٢٣١).
(٤) التبان: سروال صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة.
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣١).
(٦) سعيد بن المسيب سيد التابعين ص (١٦١).

الناس فلا جدوى منه، فلا بد للعالم والفقيه أن يبين ما يحدد موقفه[١]، وكان سعيد بن المسيب عنده أمر عظيم من بني أمية وسوء سيرتهم وكان لا يقبل عطاءهم[٢].

وقد اختلف المؤرخون في أمر سعيد بن المسيب، بأن والي المدينة هو الذي عرض سعيد للعقوبة بدون أمر عبد الملك، والبعض الآخر قال: إن عبد الملك هو الذي أمر، فالذي يهمنا هنا هو موقف سعيد من ولاية العهد للوليد وسليمان وتعرضه للعقوبة والمحنة، مما زاد من حدة الخلاف بينه وبين بني مروان، وأسهم في توسيع الفجوة في علاقته بهم وولاتهم[٣]، وكانت له مواقف صلبة أمام عبد الملك وابنه الوليد من بعده[٤]، ويلاحظ المتمعن في خلاف سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ لبني أمية وولاتهم ـ التزامه بآداب جمة يجدر الوقوف عندها وتأملها للإفادة منها، ومن أهم تلك الآداب ما يلي:

١ ـ إنه على الرغم مما حدث بينه وبين بعض خلفاء بني أمية وولاتهم فإنه يعترف بإمامتهم وشرعية خلافتهم، فهو يعترف لعبد الملك بن مروان وابنه الوليد بإمرة المؤمنين، كما ورد ذلك في قوله لحاجب عبد الملك حين دعاه لمقابلة عبد الملك، فقال سعيد: ما لأمير المؤمنين[٥] حاجة. وكذلك قالها للوليد حين قدم الوليد المدينة، ودخل المسجد مع عمر بن عبد العزيز ودار فيه مع عمر حتى قربا من سعيد بن المسيب ووقفا عليه، فقال الوليد لسعيد: كيف أنت أيها الشيخ؟ فقال سعيد: بخير والحمد لله، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ قال الوليد: خير والحمد لله. فانصرف وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس، فقال عمر: أجل يا أمير المؤمنين[٦].

كما أنه على الرغم مما صنع به والي المدينة ـ هشام بن إسماعيل ـ فإنه كان يصلي خلفه، وكل ما فعله مقابل إساءته له أن قال: الله بيني وبين من ظلمني، أو اللهم انصرني من هشام[٧]، وكان يمتثل أوامرهم فيه، فحين أخرج من السجن نهوا

---

(١) الفقهاء والخلفاء، سلطان حثلين، ص (٧٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٢٢٨).
(٣) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٣٧٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/٢٢٦، ٢٢٧).
(٥) المصدر نفسه (٤/٢٢٧).
(٦) تاريخ الإسلام للذهبي، نقلاً عن أثر العلماء، ص (٣٨٩).
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/٢٣٠)، الطبقات (٥/١٢٦).

أن يجالسه أحد، فكان إذا أراد أحد أن يجالسه قال: إنهم قد جلدوني، ومنعوا الناس أن يجالسوني[(١)].

٢ ـ ومن أدب خلافه أنه لم يشغل نفسه بسب بني أمية أو ولاتهم، أو التعرض لهم بالقدح وإثارة الناس عليهم، فحين قيل له: ادع على بني أمية، قال: اللَّهم أعز دينك، وأظهر أولياءك، واخز أعداءك في عافية لأمة محمد ﷺ[(٢)].

٣ ـ كما لم يدفعه كرهه لبني أمية أن يضع يده مع كل معارض لهم، ويسعى لتأييده نكاية للأمويين.

٤ ـ كما أنه على الرغم من كرهه القرب من خلفاء بني أمية، لا سيما بني مروان منهم، وربما انتقاده لبعض العلماء الذين خالطوهم كقبيصة بن ذؤيب والزهري، على الرغم من ذلك فإن كرهه لهذا العمل من العلماء لم يمتد ليشمل نظرته وتقويمه لهم، بل كان يقدر لهم علمهم واجتهادهم، فروي عنه قوله في الزهري: ما مات من ترك مثلك[(٣)]. فانظر إلى هذا الأدب في الخلاف بين العلماء حين يختلفون في قضية من القضايا أو موقف من المواقف، فإنه لا يمتد هذا الخلاف ليفسد ذات بينهم، أو يشعل فتيل التهم فيما بينهم[(٤)].

وقد استطاع عمر بن عبد العزيز حين تولى الحجاز في عهد الوليد أن يحسن التعامل مع العلماء بشكل عام، وقدر لهم قدرهم، وجعلهم مستشاريه، وخص سعيداً بمزيد من التقدير والاحترام، ونتيجة لحسن معاملة عمر بن عبد العزيز له تجاوب سعيد معه، قال ابن كثير: وكان سعيد لا يأتي أحداً من الخلفاء، وكان يأتي عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة، ومرة أرسل عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى سعيد ليسأله في مسألة فأخطأ الرسول فدعاه فلما جاء سعيد قال عمر: أخطأ الرسول، إنما أرسلناه يسألك في مجلسك[(٥)]. فانظر كيف كان حرص عمر على تقديره، وانظر أيضاً كيف سارع سعيد إلى المجيء إليه تقديراً له[(٦)]. كان عالم المدينة وسيد التابعين مدرسة في الأخلاق والقيم والمبادئ، ومن حياته تستفاد دروس وعبر وفوائد منها:

---

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٢).
(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٣٧).
(٤) أثر الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (٣٩٠).
(٥) البداية والنهاية نقلاً عن أثر الحياة السياسية، ص (٣٩٢).
(٦) أثر الحياة السياسية، ص (٣٩٢).

١ ـ تزويجه ابنته:

كانت بنت سعيد قد خطبها عبد الملك لابنه الوليد، فأبى عليه[١]، وزوج سعيد ابنته لابن أبي وداعة أحد تلاميذه، فعن ابن أبي وداعة قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب، ففقدني أياماً، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: تُوُفِّيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها، ثم قال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك اللَّه، ومن يزوِّجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ قال: أنا، فقلت: وتفعل؟ قال: نعم، ثم تحمَّد، وصلى على النبي ﷺ، وزوّجني على درهمين ـ أو قال: ثلاثة ـ فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح.

فصرت إلى منزلي وجعلت أتفكر فيمن أستدين. فصليتُ المغرب، ورجعت إلى منزلي، وكنت وحدي صائماً، فقدمت عشائي أُفطر وكان خبزاً وزيتاً، فإذا بابي يُقرع فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد. ففكرت في كل من اسمه سعيد إلا ابن المسيَّب، فإنه لم يُر أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فخرجت، فإذا سعيد، فظننت أنه قد بدا له فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلت إليّ فآتيك؟ قال: لا أنت أحق أن تؤتى، إنك كنت رجلاً عزباً فتزوجت، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب، وردَّ الباب.

فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم وضعت القصعة في ظلِّ السراج لكي لا تراه، ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران، فجاءوني فقالوا: ما شأنك؟ فأخبرتهم. ونزلوا إليها، وبلغ أمي، فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أُصلحها إلى ثلاثة أيام، فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظ الناس لكتاب اللَّه، وأعلمهم بسنة رسول اللَّه ﷺ، وأعرفهم بحق زوج، فمكثت شهراً لا آتي سعيد بن المسيب، ثم أتيته وهو في حلقته فسلَّمت، فردَّ عليَّ السلام، ولم يُكلمني حتى تقوَّض المجلس، فلما لم يبق غيري قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: خير يا أبا محمد، على ما يحب الصديق، ويكره العدو، قال: إن رابك شيء فالعصا. فانصرفت إلى منزلي، فوجَّه إليَّ بعشرين ألف درهم[٢].

٢ ـ معرفته بتأويل الرؤى:

كان سعيد من أعبر الناس للرؤيا، أخذ ذلك عن أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٤).

وأخذته أسماء عن أبيها[١]، وعن عمر بن حبيب بن قُليع قال: كنت جالساً عند سعيد بن المسيِّب يوماً، وقد ضاقت بي الأشياء ورهقني دين، فجاءه رجل، فقال: رأيت كأنّي أخذت عبد الملك بن مروان، فأضجعته إلى الأرض، وبطحته فأفندت في ظهره أربعة أوتاد. قال: ما أنت رأيتها! قال: بلى. قال: لا أخبرك أو تخبرني! قال: ابن الزبير رآها، وهو بعثني إليك قال: لئن صدقت رؤياه قتله عبد الملك، وخرج من صُلب عبد الملك أربعة كلهم يكون خليفة. قال: فرحلت إلى عبد الملك بالشام فأخبرته، فسُرَّ، وسألني عن سعيد بن المسيِّب وعن حاله فأخبرته وأمر بقضاء ديني وأصبت منه خيراً[٢].

وعن إسماعيل بن أبي حكيم، قال: قال رجل: رأيت كأنّ عبد الملك بن مروان يبول في قبلة مسجد النبي ﷺ أربع مرار. فذكرت ذلك لسعيد بن المسيِّب، فقال: إن صدقت رؤياك قام فيه من صلبه أربعة خلفاء[٣].

وعن عمران بن عبد الله، قال: رأى الحسن بن علي كأن بين عينيه مكتوباً ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فاستبشر به، وأهل بيته، فقصُّوها على سعيد بن المسيِّب، فقال: إن صدقت رؤياه فقلَّ ما بقي من أجله، فمات بعد أيام[٤].

٣ ـ من كلام سعيد بن المسيب:

قال: ما أيس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء[٥]، ثم قال لنا سعيد ـ وهو ابن أربع وثمانين سنة قد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى ـ: ما شيء أخوف عندي من النساء[٦]، وقال: لا تقولوا مصيحف ولا مسيجد، ما كان للّه فهو عظيم حسن جميل[٧]، وقال: لا خير في من لا يُريد جمع المال من حلِّه، يعطي منه حقه، ويكف به وجهه عن الناس[٨]، فقال: من استغنى باللّه، افتقر الناس إليه[٩]. وقال برد ـ مولى ابن المسيب لسعيد بن المسيب: ما رأيت ما أحسن ما يصنع هؤلاء! قال سعيد: وما يصنعون؟ قال: يصلي أحدهم الظهر، ثم لا يزال صافاً رجليه حتى يصلي العصر. فقال: ويحك يا برد، أما واللّه ما هي العبادة، إنما

---

(١) المصدر نفسه (٤/ ٢٣٥).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٥).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٦).
(٤)، (٥)، (٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٧).
(٧)، (٨) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٨).
(٩) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٩).

العبادة التفكر في أمر الله[١]، والكف عن محارم الله. وقال: ما خفت على نفسي شيئاً مخافة النّساء، قالوا: يا أبا محمد إنَّ مثلك لا يريد النساء ولا تريده النساء، فقال: هو ما أقول لكم. وكان شيخاً كبيراً أعمش[٢].

٤ ـ دعاء مستجاب:

عن علي بن يزيد قال: قال لي سعيد بن المسيِّب: قل لقائدك يقوم، فينظر إلى وجه هذا الرجل وإلى جسده، فقام، وجاء فقال: رأيت وجه زنجيٍّ وجسده أبيض. فقال سعيد: إن هذا سبَّ طلحة والزبير وعلياً رضي الله عنهم، فنهيته، فأبى، فدعوت الله عليه، قلت: إن كنت كاذباً فسوّد الله وجهك، فخرجت بوجهه قرحة فاسود وجهه[٣].

توفي رحمه الله عام ٩٤هـ، وسميت السنة التي مات فيها سنة الفقهاء؛ لكثرة من مات منهم فيها[٤]. ولما اشتد به الوجع دخل عليه نافع بن جبير يعوده، فأغمي عليه، فقال نافع: وجِّهوه، ففعلوا، فأفاق فقال: من أمركم أن تحولوا فراشي إلى القبلة، أنافع؟ قال: نعم. قال له سعيد: لئن لم أكن على القبلة والملة والله لا ينفعني توجيهكم فراشي[٥].

ثانياً

وصية عبد الملك لأولاده ووفاته:

لما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره، فلما فُتحت سمع قصاراً ـ أي: غسالاً ـ بالوادي، فقال: ما هذا؟ قالوا: قصار، فقال: يا ليتني كنت قصاراً أعيش من عمل يدي، فلما بلغ ذلك سعيد بن المسيِّب قال: الحمد لله الذي جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم[٦].

١ ـ ولما حضره الموت جعل يندم ويندب ويضرب بيده على رأسه ويقول: وددت لو أكتسب قوتي يوماً بيوم، واشتغلت بعبادة ربي[٧]

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٢٤١).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٤١).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٢٤٢).
(٤)، (٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٤٥).
(٦) البداية والنهاية (١٢/ ٣٩٥).
(٧) المصدر نفسه (١٢/ ٣٩٥).

٢ ـ **وقيل** له لما حضره الموت: كيف تجدك؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[1] [الأنعام: ٩٤].

٣ ـ **وقيل**: إنه لما حضرته الوفاة دعا بنيه فوصاهم فقال: الحمد لله الذي لا يسأل أحداً من خلقه صغيراً، أو كبيراً ثم أنشد:

فهل من خالد إما هلكنا ... وهل بالموت للباقين عار

وقيل: إنه قال: ارفعوني فرفعوه حتى شم الهواء، وقال: يا دنيا ما أطيبك؟ إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإن كنا بك لفي غرور، ثم تمثل بهذين البيتين:

إن تناقش يكن نقاشك يا رب ... عذاباً لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز فأنت رب صفوح ... عن مسيء ذنوبه كالتراب[2]

وخطب عبد الملك يوماً خطبة بليغة، ثم قطعها وبكى بكاءً شديداً، ثم قال: يا رب إن ذنوبي عظيمة، وإن قليل عفوك أعظم منها، اللّهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي، فبلغ ذلك القول زاهد العراق الحسن البصري فبكى وقال: لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام[3].

وقال الشعبي: خطب عبد الملك، فقال: اللّهمّ إن ذنوبي عظام وهي صغار في جنب عفوك يا كريم، فاغفرها لي[4].

٤ ـ جاء ابنه الوليد بباب المجلس وهو غاص بالنساء، فقال: كيف أصبح أمير المؤمنين؟ قيل له: يُرجى له العافية، وسمع عبد الملك ذلك فقال:

وكم سائل عنا يريد لنا الرَّدى ... وكم سائلات والدموع ذوارف

ثم أمر النساء، فخرجن وأذن لبني أمية فدخلوا عليه، وفيهم خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية فقال لهما: يا بني أتحبان أن أقيلكما بيعة الوليد؟

قالا: معاذ الله يا أمير المؤمنين. قال: لو قلتما غير ذلك لأمر بقتلكما على حالتي هذه. ثم خرجوا عنه واشتد وجعه، فتمثل ببيت أمية بن أبي الصَّلت:

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ... في قلال الجبال أرعى الوعولا[5]

---

(١) المصدر نفسه (١٢/ ٣٩٤).
(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٣٩٦).
(٣) المصدر نفسه (١٢/ ٣٩١).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٤٩).
(٥) الأخبار الطوال، ص (٢٩٦).

*** وصية عبد الملك لابنه الوليد عند موته تدل على حزمه:** لما احتضر عبد الملك دخل ابنه الوليد فبكى، وقال له عبد الملك: ما هذا؟ أتخن خنين الجارية والأمة، إذا مت فشمر واتزر، والبس جلد النمر وضع الأمور عند أقرانها، واحذر قريشاً ثم أوصاه بعدة وصايا هي:

١ ـ يا وليد: اتق اللّه فيما استخلفك فيه، واحفظ وصيتي.

٢ ـ انظر إلى أخي معاوية فصل رحمه واحفظني فيه.

٣ ـ وانظر إلى أخي محمد فأمِّره على الجزيرة ولا تعزله عنها.

٤ ـ وانظر إلى ابن عمنا علي بن عباس، فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته، وله نسب وحق فَصِلْ رحمه، واعرف حقه.

٥ ـ وانظر إلى الحجّاج بن يوسف فأكرمه، فإنه هو الذي مهد لك البلاد، وقهر الأعداء، وخلص لك الملك وشتت الخوارج.

٦ ـ وأنهاك وإخوتك عن الفرقة، وكونوا أولاد أم واحدة، وكونوا في الحرب أحراراً، وللمعروف مناراً، فإن الحرب لم تدن مُنية قبل وقتها، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه، ويميل القلوب بالمحبة، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل، وللّه در القائل:

إن الأمور إذا اجتمعن فرامها ... بالكسر ذو حنقٍ وبطشٍ مفند
عزت فلم تكسر وإن هي بددت ... فالكسر والتوهين للمتبدد

٧ ـ ثم قال: إذا أنا مت فادع الناس إلى بيعتك، ومن أبى فالسيف، وعليك بالإحسان إلى أخواتك فأكرمهن، وأحبهن إليَّ فاطمة، وكان قد أعطاها قرطي ماريا، والدرة اليتيمة، ثم قال: اللّهم احفظني فيها[1]، وكان قد تزوجها عمر بن عبد العزيز وهو ابن عمها.

*** وصيته لبنيه:** لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة دعا بنيه. فأوصاهم فقال:

١ ـ يا بني: أوصيكم بتقوى اللّه، فإنها أحصن كهف وأزين حلة؛ ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير.

٢ ـ وإياكم والاختلاف والفرقة، فإنه بها هلك الأولون قبلكم، وذل ذو العدد والكثرة.

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٣٩٢، ٣٩٣).

٣ ـ وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه، فإنه جنتكم الذي به تستجنون، ونابكم الذي عنه تفترون.

٤ ـ أكرموا الحجّاج، فإنه وطأ لكم المنابر، وكونوا عند القتال أحراراً، وعند المعروف مناراً، وكونوا بني أم بررة، احلولوا في مرارة ولينوا في شدة.

ثم رفع رأسه إلى الوليد فقال:

٥ ـ يا وليد، لا أعرفنك إذا وضعتني في حفرتي تمسح عينيك وتعصرهما فعل الأمة، ولكن إذا وضعتني في حفرتي فشمر واتزر، والبس جلد النمر، ثم اصعد المنبر فادع الناس إلى البيعة، من قال كذا فقل كذا[١].

* **وفاته ودفنه:** كان عبد الملك يقول: ولدت في رمضان، وفطمت في رمضان، وخِتمت القرآن في رمضان، وأتتني الخلافة في رمضان، وأخشى أن أموت في رمضان، فلما دخل شوال وأمن مات[٢]، مات بدمشق سنة ٨٦هـ يوم الجمعة، وقيل: الأربعاء، وصلى عليه ابنه الوليد ولي عهده من بعده، وكان عمره يوم مات ستين سنة، وقيل: ثلاثاً وستين سنة وقيل: ثمان وخمسين سنة[٣]، ودفن بين باب الجابية وباب الصغير[٤].

وكان نقش خاتمه (آمنت باللّه مخلصاً)[٥]، وانفرد بالخلافة منذ مقتل ابن الزبير إلى وفاته، والصحيح أنه لما مات كان عمره ستين سنة حيث ولد عام ستة وعشرين هجرية[٦].

---

(١) المعمرون والوصايا، ص (١٦٠)، نقلاً عن وصايا وعظات قيلت في آخر الحياة، ص (٩٧)، تاريخ ابن عساكر (٦٦/ ١٢٦).
(٢) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ (٢/ ٢٢).
(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٣٩٦).
(٤) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ (٢/ ٢٣).
(٥) تاريخ القضاعي، ص (٣٤٧).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٤٦).

أهم المصادر والمراجع

١ ـ **أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية**، د. عبد الله بن عبد الرحمن بن زيد الخركان، مكتبة الراشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٢ ـ **أخبار مكة للفاكهي**، عبد الله بن محمد، تحقيق عبد الملك بن دهيش.

٣ ـ **أسماء بنت أبي بكر الصديق**، محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي.

٤ ـ **الآحاد والمثاني**، لابن عاصم، تحقيق باسم فيصل الجوابرة، دار الراية، الرياض.

٥ ـ **الأخبار الطوال**، لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري، دار القلم، بيروت ـ لبنان.

٦ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، لابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر.

٧ ـ **الأعلام**، لخير الدين الزركلي، دار العلم، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٩هـ.

٨ ـ **الأغاني**، أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد الأموي، طبع دار الكتب المصرية.

٩ ـ **الأمويون بين المشرق والمغرب**، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت.

١٠ ـ **البداية والنهاية**، الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان.

١١ ـ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، أبو عبد الله محمد المراكشي (ابن عِذارى).

١٢ ـ **التاريخ الإسلامي**، عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٩٨م.

١٣ ـ **التقريب**. تقريب التهذيب، لابن حجر، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، حلب.

١٤ ـ **الحجاج بن يوسف المفترى عليه**، محمود زيادة، دار السلام.

١٥ ـ **الحرية أو الطوفان**، د. حاكم المطيري.
١٦ ـ **الحزب الزبيري في أدب العصر الأموي**، د. ثريا عبد الفتاح ملحس، دار البشير، عمان ٢٠٠٢م.
١٧ ـ **الدور السياسي لأهل اليمن في الشام**، إسماعيل الجبوري، هاشم يحيى الملاح، جامعة الموصل، رسالة الماجستير، عام ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
١٨ ـ **الدولة الأموية**، فرست مرعي الدهوكي، ألوان للطباعة، الجامعة الجديدة، صنعاء ٢٠٠٠م.
١٩ ـ **الدولة الأموية**، يوسف العش، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.
٢٠ ـ **الدولة الأموية المفترى عليها**، حمدي شاهين، دار القاهرة للكتاب، سنة ٢٠٠١م.
٢١ ـ **الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الهدم**، محمد الطيب النجار.
٢٢ ـ **السيرة النبوية**، لابن هشام، دار إحياء التراث.
٢٣ ـ **السيرة النبوية**، د. علي الصلابي، دار المعرفة بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
٢٤ ـ **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة، دار الحديث القاهرة ـ تحقيق أحمد شاكر، ١٩٩٨م.
٢٥ ـ **الشيعة العربية والزيدية**، محمد إبراهيم الفيومي، دار الفكر العربي، ٢٠٠٢م.
٢٦ ـ **العالم الإسلامي في العصر الأموي**، د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، دار الاتحاد التعاوني للطباعة بمصر.
٢٧ ـ **العراق في العصر الأموي**، ثابت الراوي، مكتبة الأندلس ـ بغداد، رسالة ماجستير.
٢٨ ـ **العواصم من القواصم**، القاضي أبو بكر بن العربي، تحقيق محب الدين الخطيب، إعداد محمد سعيد مبيض، دار الثقافة، قطر ـ الطبعة الثانية ١٩٨٩م.
٢٩ ـ **الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد**، أحمد عبد الرحمن البنا الشهير «بالساعاتي».

٣٠ ـ **الفرق بين الفِرق**، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، طبع مؤسسة الحلبي وشركاه بالقاهرة.

٣١ ـ **الفقهاء والخلفاء**، سلطان حثلين، دار عمان، الأردن، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

٣٢ ـ **الكامل في التاريخ**، أبو الحسن علي بن أبي المكارم الشيباني المعروف بابن الأثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

٣٣ ـ **المحلي**، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، المتوفى سنة ٤٥٦هـ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، وهو أحد منشوراتها، بيروت.

٣٤ ـ **المحن**، لأبي العرب، محمد بن أحمد التميمي، دار العلوم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٣٥ ـ **المعجم الكبير**، للطبراني، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة العلوم والحكم.

٣٦ ـ **المعارف**، لابن قتيبة، تحقيق ثروت عكاشة، الطبعة الثالثة، دار المعارف ـ مصر.

٣٧ ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٨ ـ **النظريات السياسية الإسلامية**، محمد ضياء الريس، الطبعة السابعة، دار التراث ١٩٧٩م.

٣٩ ـ **اليهود في السنة المطهرة**، د. عبد الله الشقاري، دار طيبة ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٤٠ ـ **أنساب الأشراف**، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري. طبعة بيروت، عام ١٩٨٩م.

٤١ ـ **تاريخ الإسلام**، محمد أحمد الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

٤٢ ـ **تاريخ الخلفاء**، لجلال الدين السيوطي، دار صادر بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٤٣ ـ **تاريخ الطبري**، المسمى بتاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر الطبري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٥م.

٤٤ ـ **تاريخ القضاعي**، كتاب عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف للإمام القاضي محمد بن سلام بن جعفر الشافعي، مطبوعات أم القرى.

٤٥ ـ **تاريخ خلافة بني أمية**، نبيه عاقل، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٥م.

٤٦ ـ **تاريخ خليفة بن خياط**، أبو عمر خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي، تحقيق أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، دار القلم، بيروت، ١٣٩٧هـ.

٤٧ ـ **تجديد الدولة الأموية**، شحادة الناطور، دار الكندي، إربد، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٤٨ ـ **حقبة من التاريخ**، عثمان الخميس، دار الإيمان، الإسكندرية.

٤٩ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم أحمد بن عبد اللّه الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٠ ـ **دراسات في الأهواء والفرق والبدع، وموقف السلف منها**، د. تامر عبد الكريم العقل، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيليا، الرياض الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٥١ ـ **ديوان عبيد اللّه بن قيس الرقيات**، تحقيق محمد يوسف.

٥٢ ـ **سنن ابن ماجه**، للحافظ أبي عبد اللّه بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٣ ـ **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٤ ـ **سيرة علي بن أبي طالب**، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت.

٥٥ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي.

٥٦ ـ **صحيح البخاري**، لأبي عبد اللّه محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر.

٥٧ ـ **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

٥٨ ـ **طبقات ابن سعد**، دار صادر، بيروت، لبنان.

٥٩ ـ **عبد اللَّه بن الزبير**، ماجد لحام، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٦٠ ـ **عبد اللَّه بن الزبير**، د. شحادة الناطور، دار ابن رشد، عمان.

٦١ ـ **عبد اللَّه بن الزبير فقيهاً**، محمد عبد الرضا هادي، رسالة ماجستير، العراق.

٦٢ ـ **عبد اللَّه بن الزبير**، عبد اللَّه عثمان الخراشي، رسال ماجستير، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، ١٤٠٨هـ.

٦٣ ـ **عبد اللَّه بن الزبير**، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٦٤ ـ **عبد اللَّه بن عمر**، محيي الدين مستو، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.

٦٥ ـ **عبد الملك بن مروان والدولة الأموية**، د. محمد ضياء الدين الريس، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.

٦٦ ـ **عيون الأخبار**، لأبي محمد عبد اللَّه بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية.

٦٧ ـ **فتح الباري**، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٦٨ ـ **فتوح البلدان للبلاذري**، أحمد بن يحيى بن جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٦٩ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، طبعة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٧٠ ـ **مستدرك الحاكم على الصحيحين**، لأبي عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٧١ ـ **مصنف ابن أبي شيبة**، للإمام أبي بكر عبد اللَّه بن محمد بن أبي شيبة العبسي، دار القرآن الكريم والعلوم الإنسانية، كراتشي، باكستان، ١٤٠٦هـ.

٧٢ ـ **مع المسلمين الأوائل**، د. مصطفى حلمي، دار العلوم، جامعة القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٧٣ ـ **من دولة عمر إلى دولة عبد الملك**، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية.

٧٤ ـ **منهاج السنة**، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.

٧٥ ـ **مواقف المعارضة في خلافة يزيد**، محمد بن عبد الهادي بن زرَّان الشيباني، المكتبة المكية، دار البيارق، الطبعة الأولى.

٧٦ ـ موقف الشعر من الحركة الزبيرية، محمد علي الهرفي، دار المعالم الثقافية، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ.

٧٧ ـ نسب قريش، لأبي عبد الله مصعب عبد الله الزبيري، طبع دار المعارف.

٧٨ ـ نحو دستور إسلامي، محمد سيد أحمد.

٧٩ ـ نشأة الحركات السياسية والدينية في الإسلام، د. فاروق فوزي.

٨٠ ـ نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق، د. أحمد عبد الله مفتاح، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٨١ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، الهيئة المصرية للكتاب.

٨٢ ـ هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة، صالح العلي.

٨٣ ـ يزيد بن معاوية، حياته وعصره، عمر سليمان العقيلي، الرياض ١٤٠٨هـ.

٨٤ ـ نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ظافر القاسمي، دار النفائس، بيروت.

٨٥ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر.

٨٦ ـ الهجرة النبوية المباركة، د. عبد الرحمن البر، دار الكلمة، المنصورة ـ مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٨٧ ـ الوثائق السياسية للجزيرة العربية، محمد حميد الله، دار النفائس، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥م.

٨٨ ـ الفصل في الملل والنحل، لابن حزم، مكتبة السلام العالمية.

٨٩ ـ تاريخ دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر، تحقيق: مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ دمشق.

٩٠ ـ سير السلف، لأبي القاسم الأصفهاني، دار الراية ـ الرياض، ١٤٢٠هـ.

فهرس المحتويات